



” الأمويون والبحر الأبيض المتوسط ”

أ.د. عامر جاد الله أبو جبلة

استاذ بقسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية

جامعة مؤت - الأردن

ملخص بحث:

يتناول هذا البحث كل ما له علاقة بالأمويين والبحر الأبيض المتوسط مع التركيز على الفترة من ٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م. من حيث صراع الأمويين البحري مع البيزنطيين والحروب البحرية التي حدثت خلال هذه الفترة بين الطرفين، فضلا عن استعدادات الأمويين من حيث بناء أسطولهم البحري الحربي وما يتصل فيه من موانئ لصناعة السفن ومستلزماتها في سواحل الشام ومصر، إضافة إلى المصطلحات العسكرية البحرية المرتبطة بذلك التي سادت في ذلك العصر كأسماء السفن وأنواعها والتي استخدمت في المعارك البحرية في تلك الفترة، كما يشتمل البحث على إظهار دور أبرز الأسماء العسكرية والقادة العسكريين الذين كان لهم دور فعال في حماية سواحل كل من بلاد الشام ومصر من هجمات البيزنطيين البحرية.

Abstract

The Umayyads and the Mediterranean

Prof. Dr. Amer Jadallah Abu Jableh / Department of History / Mutah University / Jordan

This research deals with everything related to the Umayyads and the Mediterranean, with a focus on the period from 41 - 132 AH / 661-750 AD..

In terms of the Umayyad naval conflict with the Byzantines and the naval wars that took place during this period between the two parties, as well as the Umayyad preparations in terms of building their naval fleet and related ports for the manufacture of ships and their supplies in the coasts of Levant and Egypt, in addition to the naval military terms associated with that that prevailed in That era, such as the names of ships and their types, which were used in the naval battles in that period. The research also includes showing the role of the most prominent military names and military leaders who had an active role in protecting the coasts of both the Levant and Egypt from the Byzantine naval attacks.

» خطة البحث «

أولاً : تمهيد

ثانياً : الغزوات البحرية (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)

ثالثاً : الموانئ ودور الصناعة

رابعاً : أنواع السفن .

خامساً : القادة البحريون

سادساً : الخاتمة

سابعاً : المصادر والمراجع



أولاً : تمهيد :

يقول ابن خلدون: " فلما استقر الملك للعرب، وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم ، وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته واستحدثوا بصراء به فشرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواني (المراكب البحرية الحربية) وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس ."(١)

إلا أنه منذ أن أصبحت السيادة للمسلمين على بلاد الشام ومصر ابتداءً انتهج الخليفة عمر بن الخطاب سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي على ثغور المسلمين، فاهتم بتحسين السواحل وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها، خاصة وقد ورث المسلمون مدناً وموانئ ساحلية هامة مثل غزة وعسقلان، وعكا، وصور، وبيروت، وجبيل، واللاذقية، وجبلة، وانطرسوس، وقيسارية، وكذلك الإسكندرية. (٢)

ويشار إلى أول أن من ركب البحر الأبيض المتوسط من المسلمين غازياً بأسطول بحري هو معاوية بن أبي سفيان، والي عثمان بن عفان على الشام، ويذكر أنه استعمل على البحر عبدالله بن قيس الحارثي، حليف بني فزارة، الذي غزا خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة في البحر ولم ينهزم . (٣)

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن) ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبدالله درويش، ط١، دار العرب، دمشق، ٢٠٠٤، ج١، ص ٤٣٧، وحسن شهاب الدين، فن الملاحة عند العرب، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، ط١، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٠ .

(٢) البلاذري (أحمد بن عيسى) ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٦، ج١، ص ١٥٢، وانظر: السيد عبد العزيز سالم، واحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩ م ص ١٦ - ١٧ .

(٣) الطبري (محمد بن جرير) ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢م ، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج١١، دار المعارف، ط٢، مصر، ١٩٦٧ م، ج٥، ص ٥١-٥٣، والبلاذري، (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحفي عبدالله الطباع، مؤسسة المعارف، ط١، بيروت، ١٩٨٧ م، ص ١٩٥، ١٦١ .



ويذكر أن معاوية بن أبي سفيان كان قد جاءه توجييه من الخليفة عثمان بن عفان سنة ٢٧هـ/٦٤٧م "أن إذا: ركب البحر ومعك امرأتك فاركبه مأدوناً لك وإلا فلا" فركب معاوية البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة، وحمل معه امرأته فأخته بنت قرظة، وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصاري، وذلك سنة ٢٨هـ/٦٤٨م، بعد انحسار الشتاء، فسار المسلمون إلى قبرص، وهي جزيرة في البحر، وتم الصلح مع حاكمها على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدونها كل عام، وشروط أخرى، ولكن في سنة ٣٢هـ/٦٥٢م، قام أهل قبرص بإعانة الروم في البحر بمراكب، ولذلك قام معاوية بغزوهم في عام ٣٣هـ/٦٥٣م، وكان معه خمسمائة مركب، ففتح قبرص عنوة، فقتل وسبى، ثم أقرهم على صلحهم، وبعث إليها من يستوطنها من المسلمين وغيرهم، ويذكر أن أسطول مصر بقيادة عبدالله بن أبي سرح قد اشترك في غزو قبرص تحت لواء معاوية بن أبي سفيان. (٤) ولذلك فإن من الواضح أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من تولى إنشاء أسطول حربي يواجه فيه القوة والأسطول البحري البيزنطي الذي كان يهدد سواحل بلاد الشام ومصر، فكان معاوية بن أبي سفيان والياً على جندي دمشق والأردن بداية، فأخذ الأسطول الإسلامي منذ ذلك الوقت زمام المبادرة والتفوق على الأسطول البيزنطي، فأخذ يهاجم الجزر ويرسل الحملات البحرية إلى سواحل بيزنطة. (٥) ثم تتابعت غزوات معاوية في البحر، فيذكر الطبري أن معاوية قام في سنة ٣٢هـ/بغزو مضيق القسطنطينية، وكانت برقيقته زوجته (٦).

(٤) الطبري، تاريخ، ج٤، ص ٢٦٢، وانظر ص ٢٥٨، ٢٦٠، والواقدي، فتوح البلدان، ص ١٥٧ وما بعدها، البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٠، وأنظر: طاهر حبوش، أوائل العرب عبر العصور (العصر الأموي) ج٣، بغداد ١٩٩١ م، ص ٢٩، ٣٠، وفتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ج٢، ص ٢٨، ٤٥.

(٥) انظر: أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص ٨٧ - ٩٠، ومحمد المناصير، الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول، مجدلاوي، ط١، دار عمان، ٢٠٠٠ م، ص ١٨٦.

(٦) الطبري، تاريخ، ج٤، ص ٣٠٤، وإبراهيم العدوي، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ص ٥٣.



كما أحرز الأسطول الإسلامي انتصاراً باهراً في السيطرة على مياه البحر المتوسط الشرقي سنة ٣٤٤هـ / ٦٥٥م، بعد معركة ذات الصواري التي وقعت قرب شواطئ ليكيا بآسيا الصغرى، وانتصر فيها المسلمون (٧) ويذكر أن الأسطول المصري قد شارك مع الأسطول الشامي في معركة ذات الصواري بقيادة عبدالله بن أبي سرح حيث انطلق من الإسكندرية، فالتقى بالأسطول البيزنطي في البحر المتوسط، ويشار إلى أن الأسطول البيزنطي كان قد تألف من ألف مركب أو سبعمائة مركب، وأسطول المسلمين كان قد مائتي مركب، كان النصر إلى جانب المسلمين في تلك المعركة المشهورة. (٨)

ثانياً : الغزوات البحرية (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) :

لا تذكر غزوات بحرية بين ٣٤٤ هـ - ٤٣ هـ، ويبدو أن مرد ذلك يرجع إلى مهادنة معاوية للبيزنطيين أثناء صراعه السياسي مع علي بن أبي طالب والتفاته لتحقيق الاستقرار الداخلي للدولة ، ويبدو أنه عندما استتب الأمن واطمأن للأحوال الداخلية ، استأنف معاوية نشاطه البحري ضد البيزنطيين، فيشار إلى أن بسر بن أرطأة كان قد غزا البحر زمن معاوية سنة ٤٤ هـ / ٦٦٤ م . (٩)

(٧) الطبري، تاريخ، ج٤، ص ٢٩٠ - ٢٩٢، وابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ج١، تحقيق : أبي الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م، ج٢، ص ٣٢٨، وابن عبد الحكم (٢٥٧هـ/٨٧٠م) فتوح مصر، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٥٥ .

(٨) ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م)، النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٢٩ م ج١، ص ٩١، والذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) تاريخ الإسلام، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الناشر العربي، ط٢، ١٩٩٠، ج٣، ص ٤٢٠، وأبو زرعة المشقي (عبد الرحمن بن عمر) ت ٢٨١هـ/٨٩٤م تاريخ أبي زرعة المشقي، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٦، ص ٤١ .

(٩) الطبري، تاريخ، ج٥، ص ٤٤، وانظر : نبيه عاقل، تاريخ خلافة بني أمية، دار الفكر، ط٣، دمشق، ١٩٧٥ م، ص ٨٥ .



كما أغزى معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى صقلية، في مائتي مركب، فسبوا وغنموا، وأقاموا شهراً ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة، ثم عاد معاوية بن حديج إلى مصر تاركاً مكانه في طرابلس الغرب سنة ٤٦هـ/٦٦٦م رويغ بن ثابت الأنصاري ، الذي غزا إفريقية ودخلها سنة ٤٧هـ/ وفتح جزيرة جربة التي يسكنها البربر (١٠) وفي سنة ٤٧هـ /٦٦٧م، أمر معاوية بن أبي سفيان عقبة بن عامر بغزو رودس، ومعه مسلمة بن مخلد، وخرجا إلى الإسكندرية، ثم توجها في البحر، فلما سار عقبة في البحر استولى مسلمة على سرير إمرته . (١١) ولما ولي مسلمة مصر سنة ٤٧هـ/٦٦٧م، انتظمت غزواته في البر والبحر. (١٢)، ويذكر أنه في سنة ٤٨هـ/٦٦٨م، غزا مالك بن هبيرة السكوني البحر ، دون تحديد الوجهة البحرية لهم، التي تم غزوها، وكذلك غزا عقبة بن نافع الجهني بأهل مصر وبأهل المدينة البحر أيضاً . (١٣) وفي سنة ٤٩هـ/٦٦٩م، غزا عقبة بن نافع الجهني البحر ، فشتا بأهل مصر (أي غزوة في الشتاء)، وكذلك غزا يزيد بن شجرة الرهاوي البحر فشتا بأهل الشام ، ثم غزا فضالة بن عبيد جزيرة جربة وشتا بجربة ،(١٤) ثم قام فضالة بن عبيد بغزوة ضد البيزنطيين في البحر وذلك سنة ٥٠هـ /٦٧٠م. (١٥) فضلا عن أن يزيد بن معاوية كان قد غزا أرض الروم في هذه السنة (٥٠هـ) برا وبحرا ، وقاتلوا أهل القسطنطينية ، ثم قفل . (١٦)

(١٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ ، وعلي الصلابي ، معاوية بن أبي سفيان ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، (د. ت) ص ٣٨٠ .

(١١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، وانظر الذهبي ، تاريخ الإسلام ج ٤ ، ص ٢٧٨ .

(١٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٣ ، ١٣٧ .

(١٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣١ ، وانظر نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بني أمية ، ص ٨٦ .

(١٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ .

(١٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٤ .

(١٦) الذهبي تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ٢٢ ، وانظر: أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة ، ص ٤٢ .



وقام جنادة بن أبي أمية الأزدي في سنة ٥٣ هـ / ٦٧٢ م بفتح جزيرة رودس في البحر المتوسط، فنزلها المسلمون، وزرعوا فيها ، واتخذوا بها أموالاً وحواشي يرعونها في أطراف الجزيرة ، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن، ولهم مراقب يحذرهم من الأخطار المحيطة بالجزيرة من الروم ، وكان المسلمون يتعرضون في هذه الجزيرة لسفن الروم في البحر . (١٧)

ثم قام جنادة بن أبي أمية بفتح جزيرة أرواد سنة ٥٤ هـ / ٦٧٣ م، وهي قريبة من القسطنطينية، وكان المسلمون قد أقاموا بجزيرة أرواد مدة سبع سنين، بعد فتحها على يد جنادة. (١٨) كما قام يزيد بن شجرة الرهاوي سنة ٥٦ هـ / ٦٧٥ م بغزوة بحرية ضد البيزنطيين، وقيل إنه قتل سنة ٥٨ هـ / ٦٧٧ م في إحدى غزواته البحرية. (١٩) ويذكر أن عمر بن يزيد الجهني كان قد غزا في البحر ضد البيزنطيين وذلك سنة ٥٧ هـ / ٦٧٦ م (٢٠)

ويشار إلى جنادة بن أبي أمية ونشاطه في البحر سنة ٥٨ هـ / ٦٧٧ م ومواجهته للبيزنطيين، وكذلك في سنة ٥٩ هـ / ٦٧٨ م، ومواجهة البيزنطيين عند جزيرة رودس، ومعه من القادة علقمة بن جنادة الحجري، وعلقمة بن الأختم . (٢١)

وكانت الإسكندرية كميناء مهم لمصر على البحر المتوسط آنذاك، مقراً ومكاناً لإدارة الشؤون البحرية لولاتها، ففي سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م، هبط عبد العزيز بن مروان إلى الإسكندرية، وفي سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م، خرج عبد العزيز بن مروان إلى الشام، وهبطها مكانه خباب بن مرثد . (٢٢)

(١٧) الذهبي تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٢٨٨، البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٠، وانظر: علي الصلابي ، معاوية بن أبي سفيان ، ص ٤٢٢ ، نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بني أمية، ص ٨٦ .

(١٨) الطبري، تاريخ، ج ٥ ، ص ٥٩٣ ، و البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٣٠ ، وانظر نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بني أمية ، ص ٨٦ .

(١٩) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٠١ .

(٢٠) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢١) الطبري، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٠٩ ، و خليفة بن خياط، تاريخ ، ص ٤٢٧ .

(٢٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٢٧٠ .



ويذكر أن عبد الواحد بن أبي الكنود كان قد قاد في سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩ م، حملة بحرية ضد الروم في البحر المتوسط حتى بلغ قبرص . (٢٣)

وفي سنة ٧٠٢ هـ / ٧٠٢ م، غزا عطاء بن رافع صقلية، كما خرج عمران بن شراحيل على البحر. (٢٤)

ويذكر أن موسى بن نصير سنة ٧٠٥ هـ / ٧٠٥ م، كان قد وجه المغيرة بن أبي بردة العبدي في مراكب فافتتح أوليه، وهي أول مدائن صقلية، ويبدو أن هذه آخر غزوة بحرية كانت زمن الخليفة عبد الملك بن مروان. (٢٥)

وفي زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، استؤنفت الغزوات البحرية الإسلامية في البحر المتوسط ، ذلك أن القائد موسى بن نصير كان قد وجه سنة ٧٠٥ هـ / ٧٠٥ م ابنه عبد الله بن موسى بن نصير لغزو سردينية، ثم وجه عبدالله بن حذيفة الأزدي لغزو سردينية أيضاً في السنة نفسها، فغنم وأصاب سبياً وغنائم (٢٦) كما يشار إلى مسلمة بن عبد الملك بأنه كان في سنة ٧٠٥ هـ / ٧٠٥ م، قد افتتح فيعم (قمم) وبحيرة الفرسان، حتى بلغ جيشه قلوزيما تلس، فقتل وسبى. (٢٧)

وقام موسى بن نصير في سنة ٧٠٧ هـ / ٧٠٧ م، بإرسال ابنه عبدالله ليغزو ميورقة، ومنورقة، وهما جزيرتان بين صقلية والأندلس وافتتحهما، وتدعى هذه الغزوة، بغزوة الأشراف، إذا كان معه في هذه الحملة أشراف الناس. (٢٨)

(٢٣) الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ ، وانظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

(٢٤) الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ١٨ .

(٢٥) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٢٩٢ .

(٢٦) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٠ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ٣٠١ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ ، وانظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢١٦ ، و الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ٣٤ .



وفي سنة ٩٠هـ/٧٠٨م، أسرت الروم خالد بن كيسان "صاحب البحر" فذهبوا به إلى ملكهم (٢٩) البيزنطي فأرسله إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وهذا دليل على رغبة الامبراطور البيزنطي في استرضاء خليفة دمشق ليثنيه عن غزو بحري للقسطنطينية، ولكن الخليفة الوليد كان يتابع تحركات البيزنطيين المعادية للأسطول البحري الإسلامي في البحر المتوسط، فأوكل المهمة لأخيه مسلمة بن عبد الملك للتحضير والتخطيط لمحاصرة القسطنطينية. إلا إن ذلك قد تم في زمن أخيه سليمان بن عبد الملك الذي تولى الخلافة من بعده. (٣٠) ويذكر الطبري أن بداية غزو موسى بن نصير للأندلس كان سنة ٩١هـ/٧٠٩م. (٣١)

وفي سنة ٩٢هـ/٧١٠م، وجه موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد فأتى طنجة وهي على ساحل البحر، وعبر إلى الأندلس، فلقية ملكها، فقتل وسبى وأسر، فتم فتح جزيرة الأندلس في اثني عشر ألفاً تم حملهم إلى الأندلس في السفن، وانتصر فيها جيش المسلمين على جيش لذريق حسب تقدير ابن خلدون (٣٢). ويشار كذلك إلى أن جيش موسى بن نصير البحري قد سيطر أيضاً على جزيرة سردينية في سنة ٩٢هـ/٧١٠م، وهي جزيرة في البحر المتوسط للبيزنطيين، وهي من أكبر جزائر البحر، قال الذهبي: " فأخذوها وغنموا وغرقوا عن آخرهم" (٣٣).

(٢٩) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٢٤٢.

(٣٠) انظر: نبيه عاقل، تاريخ خلافة بني أمية، ص ٢٢٢.

(٣١) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٤٥٤.

(٣٢) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٠٤، وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٢٥، و الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٤٦٨، والواقدي، فتوح البلدان، ص ٣٢٣، و ابن خلدون، المقامة، ج ٤، ص ١١٧، و نبيه عاقل، تاريخ خلافة بني أمية، ص ٢١٤.

(٣٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٢٥، وانظر: الذهبي تاريخ الإسلام، ج ٦، ص ٢٥٦.



وقام العباس بن الوليد في سنة ٩٤ هـ / ٧١٢ م، بغزو أرض الروم فافتتح أنطاكية، وقارطة على ساحل البحر، قال الذهبي: " فافتتح مدينتين من الساحل". (٣٤)

وفي فترة الخليفة سليمان بن عبد الملك ، قام عمر بن هبيرة سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ م، بغزو الروم في البحر، وذلك في فصل الشتاء. (٣٥) ثم في سنة ٩٨ هـ / ٧١٦ م، حوصرت القسطنطينية من قبل الأسطول الإسلامي (فشتى مسلمة بن عبد الملك في ضواحي الروم، وشتى عمر بن هبيرة الفزاري في البحر في ألف مركب، فسار مسلمة من مشتاه حتى صار إلى القسطنطينية في البحر والبر، فجاوز الخليج، وافتتح مدينة الصقالبة ، وخرّب مسلمة ما بين الخليج والقسطنطينية ، وفيها أصيب عبدالله بن شراحيل. (٣٦)

وكان الأسطول الإسلامي يتألف من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا عن السفن الصغيرة الأخرى، واحتل الأسطول الإسلامي مضيق البوسفور الجنوبي، لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة وبحر إيجه وفي مطلع الربيع من حصار المسلمين للقسطنطينية وصلت لمسلمة بن عبد الملك القائد العام نجدات بحرية وبرية فقد جاء أسطول من مصر وآخر من شمال إفريقية، واستخدم المسلمون النفط، وسلاحا يشبه المدفعية في حصار القسطنطينية. (٣٧) وتوفي الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م، والأسطول البحري يحاصر القسطنطينية، ولما تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز في سنة

(٣٤) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٠٦، و الذهبي تاريخ الإسلام، ج ٦، ص ٢٦١ .

(٣٥) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٥٢٤، و ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٣٥ .

(٣٦) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣١٥ - ٣١٦، و الذهبي تاريخ الإسلام، ج ٦، ص ٢٦٩، وانظر :

نبيه عاقل، تاريخ خلافة بني أمية، ص ٢٤٦ .

(٣٧) انظر : نبيه عاقل، تاريخ خلافة بني أمية، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .



٩٩هـ/٧١٧م، الخلافة أذن للجيش البحري والبري بالققول ، وذلك بسبب تعرّض الأسطول الإسلامي لخسارة كبيرة في البحر. (٣٨) ويلاحظ أن الروم بعد فشل المسلمين في فتح القسطنطينية أخذوا بمهاجمة ثغور المسلمين في الشام، فركزوا غاراتهم البحرية على اللاذقية سنة ١٠٠هـ/٧١٨م، على الساحل الشامي.(٣٩) وفي زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م، أغزى يزيد بن أبي مسلم (والي إفريقية) محمد بن أوس الأنصاري في البحر، ليغزو جزيرة صقلية ، فغنم وسبى وسلم.(٤٠) كما قام بشر بن صفوان (والي إفريقية) بتوجيه يزيد بن مسروق اليحصبي سنة ١٠٣هـ/٧٢١م لغزو جزيرة سردينية، فغنم وسلم (٤١) وقام بشر بن صفوان (والي إفريقية) بتوجيه عمرو بن فاتك الكلبي سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م لغزو البيزنطيين في البحر، فغنم وسلم.(٤٢) وبعد أن تسلم الخليفة هشام بن عبد الملك الخلافة في سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م، واصل الأسطول الإسلامي نشاطه في البحر ضد البيزنطيين فيذكر أن بشر بن صفوان(والي إفريقية) قد وجه محمد بن أبي بكر مولى بني جمح سنة ١٠٦ هـ /٧٢٤ م، لغزو جزيرتي كورسيكا، وسردينية.(٤٣) ويشار إلى غزو معاوية بن هشام في سنة ١٠٧ هـ /٧٢٥م، ومعه أهل الشام في البحر مع البيزنطيين، حيث عبر البحر إلى قبرص، ومعه ميمون بن مهران.(٤٤) ويذكر أن بشر بن صفوان (والي إفريقية) كان قد وجه قثم بن عوانه الكلبي لغزو

(٣٨) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٢٠ .
(٣٩) انظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بني أمية ، ص ٢٥١ .
(٤٠) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٢٦ .
(٤١) المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ .
(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ .
(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ .
(٤٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٠ ، و ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦١ .



البيزنطيين في البحر، فغنم وسلم، وذلك سنة ١٠٨ هـ / ٧٢٦ م. (٤٥) وفي سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م، أغزى بشر بن صفوان من إفريقية القائد حسان بن محمد بن أبي بكر مولى بني جمح، جزيرة سردينية، فغنم وسلم. (٤٦) وفي السنة نفسها أي ١٠٩ هـ، تولى إفريقية عبدالله بن الحباب لهشام بن عبد الملك، فسير جيشاً إلى صقلية فلقبتهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهمز الروم. (٤٧) ولعل عبدالله بن عقبة بن نافع الفهري كان على رأس هذه الحملة، وفي رواية أخرى كان على جيش البحر (الأسطول) عبد الرحمن بن معاوية بن حديج. (٤٨) وتولى إفريقية لهشام بن عبد الملك سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م، عبيدة بن عبد الرحمن الذكواني من بني سليم، فوجه عثمان بن أبي عبيدة على سبعمائة، فقصده سراقس، مدينة صقلية، فلقوه، فأسر بطريق الروم، وهزمهم. (٤٩) وفي سنة ١١١ هـ / ٧٢٩ م، كان على جيش البحر (الأسطول) عبدالله بن أبي مريم. (٥٠) كما أغزى عبيدة بن عبد الرحمن (والي إفريقية) في هذه السنة المستتير بن الحارث في ثمانين ومائة مركباً، فحاصر الروم في البحر، فهجم الشتاء، وجاءت ريح عاصف، فغرقت مراكبهم، فلم يسلم منهم إلا سبعة عشر مركباً. (٥١) وقام والي إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م، بتوجيه ثابت بن خثيم من أهل الأردن، لغزو صقلية، فأصاب سبايا وغنائم، وسلم، (٥٢) كما وجه أيضاً في سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م، من إفريقية

(٤٥) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٣٨.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٣٩.

(٤٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٦٦.

(٤٨) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٤٦، ٥٤.

(٤٩) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٤٠.

(٥٠) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٦٧، و ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٧٠.

(٥١) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٤١، و الذهبي تاريخ الإسلام، ج ٧، ص ٣٠٣.

(٥٢) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٤٣.



القائد البحري عبدالله بن قطن، فهاجم صقلية ، فغنم وسلم ، كما أغزى أيضا عمران الهذلي، فغنم وسلم . (٥٣) وكذلك في سنة ١١٤هـ/٧٣٢م، قام والي إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن بتوجيه عبدالله بن قطن أيضا لغزو صقلية، فغنم وسلم، كما وجه عبدالله بن زياد الأنصاري لغزو سردينية، فغنم وسلم.(٥٤) وفي سنة ١١٥ هـ / ٧٣٣ م، وجه والي إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن أيضا بكر بن سويد ، فغزا صقلية ودربانة، فلقية الروم فرموا مراكبه بالنار. (٥٥) ومع تسلّم والي إفريقية الجديد عبيدالله بن الحبحاب قام في سنة ١١٦هـ/٧٣٤م، بتوجيه عثمان بن أبي عبيدة لغزو صقلية، فأصاب منها وقل، فلقيتهم مراكب الروم في البحر، فهزمهم الله، وأصابوا من المسلمين، وأسروا ابني عثمان عمراً وسليمان أبا الربيع، وعبد الرحمن بن زياد، وابن أنعم ، وأخاه المغيرة بن زياد ، فلم يزلوا في أيد الروم حتى ولي عبد الرحمن بن حبيب، ففدى ابني عمه وناساً من أسارى المسلمين، وعبدالله بن زياد، وذلك سنة ١٢١هـ/٧٣٨م، بعد أن قضوا في الأسر خمس سنين. (٥٦) ثم أرسل عبيد الله بن الحبحاب (والي إفريقية) سنة ١١٧هـ/٧٣٥م، حملة بحرية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة، لغزو جزيرة سردينية ، فأصاب قرية منها، وأثن في القتل فيهم، وكذلك السبي. (٥٧) ثم قام عبيد الله بن الحبحاب (والي إفريقية) سنة ١١٨ هـ/٧٣٦م، بتوجيه قثم بن عوانة الكلبى لغزو صقلية ، فأصاب أولية من صقلية، وأحاط به الروم ، ثم فكوا عنه الحصار. (٥٨) كما قام والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب في

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٥ .

(٥٤) المصدر نفسه ، ص ٣٤٥ .

(٥٥) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ ، وانظر : الذهبي تاريخ الإسلام ، ج ٧ ، ص ٣١١ .

(٥٧) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٤٨ .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٣٤٩ .



سنة ١١٩ هـ/٧٣٧ م، بتوجيه قثم بن عوانة أيضاً ليغزو جزيرة سردينية في البحر، فأصاب قلعة من جزيرة سردينية، ولكنه غرق في مراكب من المسلمين، وسلم بعضهم. (٥٩) ويذكر خليفة بن خياط أن الغزو في البحر من إفريقية كان قد توقف في سنة ١٢٠ هـ/٧٣٧ م. (٦٠) ولكن الغزو في البحر من إفريقية استؤنف في سنة ١٢٢ هـ/٧٣٩ م، إذ وجه والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب، القائد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهري لغزو صقلية، ويذكر أنه ظفر ظفراً ما سمع بمثله، وسار حتى نزل على أكبرمدائن صقلية، وهي مدينة سرقوسة. (٦١) وفي سنة ١٢٥ هـ/٧٤٢ م، أغزى الخليفة الوليد بن يزيد أخاه الغمر بن يزيد بن عبد الملك، فأمر على جيش البحر (الأسطول (الأسود بن بلال المحاربي، وأمره أن يسير إلى قبرص. (٦٢) وفي أواخر العهد الأموي، ومع هروب واختفاء آخر خليفة أموي، وهو مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ/٧٥٠ م، قام أبو العباس السفاح العباسي، بتوجيه صالح بن علي في طلب مروان بن محمد، والقبض عليه، فسار، فنزل الرملة، ثم سار فنزل البحر، وجمع صالح بن علي السفن، وتجهز بريد مروان وهو بالفرماء، فسار على الساحل والسفن بمحاذاته في البحر حتى نزل العريش. (٦٣)

(٥٩) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٤٩. وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٨٣.

(٦٠) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٥٠.

(٦١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٨٨، وانظر: خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٥٣،

والذهبي تاريخ الإسلام، ج ٨، ص ٨.

(٦٢) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٢٧، وانظر: نبيه عاقل، تاريخ خلافة بني أمية، ص ٣١٨.

(٦٣) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٤٤٠.



ثالثاً: الموانئ ودور الصناعة: عندما افتتح المسلمون بلاد الشام ومصر كان لهذه البلاد موانئ حربية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فاعتمد العرب المسلمون على هذه الموانئ في نشاطهم البحري مثل موانئ : عكا وصور وصيدا وطرابلس وبيروت واللاذقية وجبيل وعسقلان وغزة على سواحل بلاد الشام، ثم الإسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس وتيس وبرقة على سواحل مصر تلك الموانئ التي تم تحصينها وحمايتها وحراستها وشحنها بالمقاتلة، وذلك منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب وواليه على بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان. (٦٤) وأشار البلاذري إلى ذلك إذ قال: فكلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها ما تحتاجه من الجند، فإن حدث شيء فيها من قبل العدو سربوا إليها الإمداد(٦٥) أما دور صناعة السفن فيمكن الإشارة إلى أن معاوية بن أبي سفيان كان قد أمر بجمع الصناع من النجارين فتم جمعهم ، ورتبهم في السواحل الشامية، وجعل مقر دار صناعة السفن في بلاد الشام هي عكا (وهي المدينة ذات الحصانة زمن الأمويين) جعلها معاوية دار صناعة للسفن في بلاد الشام ، بدلا من الاعتماد على دار الصناعة في مصر وحدها . (٦٦) ثم صور قال الواقدي: " لم تزل المراكب بعكا حتى ولي مروان (بن الحكم) فنقلوها إلى صور"، ولذلك كان ميناء صور

(٦٤) البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص ١٥٢، وانظر: السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١٧، ومحمد المناصير، الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول ص ٢٠٠ .

(٦٥) البلاذري، فتوح البلدان ، ص ص ٣٤، وانظر: سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ٦٨ .
(٦٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٤ ، ١٦١ ، : السيد عبد العزيز سالم ، وأحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٤٩ .



دارا لصناعة السفن والتي استمرت إلى ما بعد العصر الأموي. (٦٧) ثم الإسكندرية وبها دار لصناعة السفن منذ عهد البطالمة والبيزنطيين ، فكانت تصنع سفناً تجارية وحربية، وتحمل المنجنيق وآلات قذف الحجارة ، والنيران ، ثم بعد الفتح الإسلامي لمصر كانت الإسكندرية من الموانئ التي تصنع السفن الحربية ، وخاصة بعد أن تولاهما والي مصر الثاني المعروف عبدالله بن سعد بن أبي سرح . ثم دار صناعة الروضة، إذ أمر معاوية بن أبي سفيان في سنة ٦٧٣/٥٥٤م بإنشاء دار صناعة للأساطيل وصناعة السفن الحربية، وذلك في عهد واليه على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري، فكان مقر دار الصناعة هذه في جزيرة الروضة التي عرفت باسم "صناعة الروضة" (٦٨) ثم برقة (وبها دار لصناعة السفن منذ عهد الخليفة عبدالملك بن مروان). (٦٩) ثم تونس (كانت بها دار لصناعة السفن ، تمكنت فيما بعد من صناعة ما يكفيها من السفن لتغزو بها البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط وجزره صقلية وغيرها، (٧٠) فكان والي إفريقية حسان بن النعمان قد تولى لعبد الملك بن مروان سنة ٦٧٨/٦٩٧م، قد أنشأ بفناء قرطاجنة دار

(٦٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٥ ، ١٦١ ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ، وانظر : ومحمد المناصير ، الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول ، ص ٣٠٤ ، وعلي الصلابي ، معاوية بن أبي سفيان ، ص ٤٢٢ .

(٦٨) انظر : سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣١٣ ، و: السيد عبد العزيز سالم ، وأحمد مختار العبادي تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٤٤ - ٤٦ ، وجمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية، دار المعارف ، القاهرة (د . ت) ص ٣٧ . وعلي الصلابي ، معاوية بن أبي سفيان ، ص ٤٢٢ .

(٦٩) ابن خلدون، (العبر) تاريخ ، ج ١ ، ص ٣١٤ ، والمقرئزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، وانظر : ومحمد المناصير، الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول ، ص ٢٠٧ .

(٧٠) انظر : السيد عبد العزيز سالم ، وأحمد مختار العبادي تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ٤٤ - ٤٦ .



صناعة لبناء السفن والأساطيل، وجلب لها الصناع من مصر، وعددهم ألف صانع ماهر من بناء السفن مع عائلاتهم لبناء الأسطول في موضع مدينة تونس الحالية في شمال إفريقيا. (٧١) ويظهر أن أول أسطول عربي تم بناؤه كان في زمن الخليفة عثمان بن عفان، على يد واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان، إذ أنشأ السفن والشواني ليغزو بها في البحر المتوسط ضد البيزنطيين، وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر للخليفة معاوية بن أبي سفيان، هو الذي بدأ ببناء نواة الأسطول المصري في العصر الإسلامي، لأن مصر كما هو معروف كانت معروفة بمهارة صناع السفن، وكثرة دور الصناعة، إذ زود السواحل والثغور الشامية بالسفن، ولكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يستجلب الأخشاب من غابات الأرز من بلاد الشام لصناعة السفن الحربية للدفاع عن سواحل الشام ومصر، وظلت مصر تمتد الأساطيل الإسلامية حتى سنة ٤٨هـ/ ٦٦٩م إلى أن كثرت غارات الروم في حوض البحر الأبيض المتوسط، فتم إنشاء دور لصناعة السفن في سواحل الشام (لتوفر الأخشاب في بلاد الشام) إلى جانب دور الصناعة بمصر، زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان، فتم إنشاء السفن الحربية وغيرها من المراكب الخاصة بنقل المؤن، والعتاد. (٧٢) ويشير أرشيبالد إلى أن هناك ثلاثة

(٧١) ابن خلدون، المقدمة، ج ٢، ص ٦٢٨، وانظر: أرشيبالد، القوى البحرية والتجارية، ص ١٠٠ - ١٠١، وظاهر حبوش، أوائل العرب عبر العصور (العصر الأموي)، ج ٣، ص ٢١٥.

(٧٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٤، وانظر: سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣٠٠، و: السيد عبد العزيز سالم، وأحمد مختار العبادي تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ١٧ - ١٨.



أساطيل قد تكونت وتشكلت في نهاية المطاف منذ بواكير العهد الأموي في صراعهم مع البيزنطيين، وهي: الأسطول الشامي، والأسطول المصري، والأسطول الإفريقي، ويذكر أن الأسطول المصري والأسطول الشامي كانا أكثر تعاوناً وتشاركاً في النزاع ضد البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط، إلا إن الأسطول الإفريقي كان مستقلاً بعملياته عنهما في نزاعه مع البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط. (٧٣) أما أعداد السفن التي تم ذكرها واستخدامها في الحروب البحرية، فيشار إلى أن معاوية كان قد ركب البحر من عكا، ومعه مراكب كثيرة، عندما سار لفتح قبرص سنة ٢٨هـ/٦٤٨م، (٧٤) وتذكر المصادر الأجنبية مثل سيببوس، أن عدد السفن التي غزا بها معاوية بيزنطة (عدد السفن الكبرى ثلاثمائة، كل منها يحمل ألف رجل، وعدد الطرادات خمسة آلاف كل منها يحمل مائة رجل، "وأن هذه السفن كانت مزودة بآلات القذف التي تتكون من المجانيق وآلات رمي الحجارة وبالأبراج العالية التي تستعمل في تسور صرح الأسوار المحصنة" (٧٥) وكان عدد المراكب التي غزا بها معاوية بن حديج صقلية في حدود سنة ٤٦هـ/٦٦٦م، حوالي مائتا مركب (٧٦)

(٧٣) أرشيبالد، القوى البحرية والتجارية، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٧٤) الواقدي، فتوح البلدان، ص ١٥٧، والبلاندي، فتوح البلدان، ص ١٦٠، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٩١.

(٧٥) سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص ٣١٣ .

(٧٦) البلاندي، فتوح البلدان، ص ٢٣٧، وانظر: علي الصلابي، معاوية بن أبي سفيان، ص ٣٨٠، وشكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، ص ١٦١ .

ويذكر أن عدد المراكب التي حاصرت القسطنطينية سنة ٩٨هـ/٧١٦م زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك بلغت ألف مركب. (٧٧)

كما يذكر أنه في سنة ١١١هـ/ ٧٢٩م، غزا القائد البحري المستنير بن الحارث الروم في البحر، وحاصره بثمانين ومائة مركب. (٧٨)

وهكذا، فإن الأمثلة التي أوردتها المصادر حول أعداد السفن التي حاربت الروم خلال العهد الأموي، ما هي إلا إشارات أولية للأعداد الكبيرة للسفن الحربية التي تم صنعها ليؤثروا بذلك هذا التأثير الكبير على سيادتهم للبحر الأبيض المتوسط، والسيطرة على عدد من الجزر فيه.

رابعًا: أنواع السفن:

أشار البلاذري في كتابه "فتوح البلدان" إلى ما استخدمه العرب في حروبهم البحرية إلى كلمة "مراكب" قال في معرض حديثه عن غزو معاوية لقبرص في المرة الأولى "فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة سنة ٢٨ هجرية" (٧٩) وفي الغزوة الثانية سنة ٣٣هـ قال البلاذري "غزاهم معاوية في خمسمائة مركب" (٨٠)، ولكن عندما غزا طارق بن زياد الأندلس سنة ٩٢هـ أشار البلاذري إلى كلمة "السفن" إذ

(٧٧) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣١٥، والذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٦، ص ٢٦٩.

(٧٨) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٤١.

(٧٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٨. وانظر: محمد الحموي، تاريخ الأسطول العربي، ص ١٤.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٩. وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٤١.



قال: حملة وأصحابه إلى الأندلس في السفن " (٨١) ونقل البلاذري عن الواقدي قال "لم تزل المراكب بعكا حتى ولي بنو مروان فنقلوها إلى صور" (٨٢) .
ويُعرّف درويش النخيلي في كتابه السفن الإسلامية علة حروف المعجم "المركب" قال: "الجمع مراكب ويقال مركب للسفينه استعمله الناس" (٨٣).
ويذكر أحمد الشامي في بحثه: "العرب وصناعة السفن " أن العرب ركبوا البحر وعرفو صناعة السفن منذ عصور موهلة في التاريخ عندما اهتدى الإنسان إلى شق مياه البحار باستخدام المركب ذي الصاري والشرع.. وأن العرب اقتصرت معرفتهم على المراكب المدنية منذ عصور ما قبل الإسلام أن معرفتهم مراكب الحرب والقتال (الأسطول) تمت في عصر صدر الإسلام في عهد الخليفة عثمان بن عفان " (٨٤) ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى أن العرب كانوا قد أنشئوا في البحر المتوسط " السفن والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح " (٨٥)، ولذلك كانت الشواني هي أقدم أنواع السفن الحربية التي عرفها المسلمون والتي اهتموا بصناعتها وأكثرها من تعدادها فكانت أهم القطع لديهم في حروبهم في البحر المتوسط في القرون الأولى من الإسلام (٨٦).

(٨١) المصدر نفسه، ص ٣٢٣

(٨٢) المصدر نفسه ، ص ١٦١ .

(٨٣) درويش النخيلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص ١٤٠ .

(٨٤) أحمد الشامي "العرب وصناعة السفن " ، كتاب الحضارة الإسلامية وعالم البحار ، اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص ١٣٥ ، ١٣٧

(٨٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٨ .

(٨٦) انظر: محمد الحموي ، تاريخ الأسطول العربي ، ص ٥٦ .

ويشار إلى الشاني أو الشيني أو الشوني بأنها سفينة حربية كبيرة وهي أهم قطع الأسطول الحربي في الدولة الإسلامية وهي أصل للسفن الحربية الأخرى مثل الغراب والطريدة والجفنة والحراقة؛ لأن هذه السفن أصغر من الشيني التي تسير بمائة وأربعين مجدافاً وفيها ما يقرب من ١٥٠ مقاتلاً عدا من يعملون على المجاديف(٨٧).

ويعد الاطلاع على ما كتبه الباحثون حول السفن الإسلامية والأسطول الإسلامي الحربي فلم نجد عندهم تحديداً لأسماء أنواع السفن الحربية في العصر الأموي إذ طالعنا في هذا الباب ما كتب عند: سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ومحمد الحموي: تاريخ الأسطول العربي، وأحمد الشامي: بحث: "العرب وصناعة السفن"، ودرويش النخيلي: السفن الإسلامية على حروف المعجم، وغيرها.. ولذلك نشير إلى ما ذكره كل من البلاذري وخليفة بن خياط اللذين ذكرا كلمة "مراكب" كثيراً في رواياتهم حول الأسطول البحري في زمن الأمويين، وأحياناً تذكر كلمة "السفن" للدلالة على السفن الحربية في مواجهة أسطول الروم في البحر المتوسط.

خامساً: القادة البحريون:

اشتهر عدد من القادة البحريون الذين قادوا الحملات البحرية (الصوائف والشواتي) ضد الروم في البحر الأبيض المتوسط، ابتداءً منذ أول تماس عسكري

(٨٧) أحمد الشامي، بحث: "العرب وصناعة السفن" مرجع سابق، ص ١٥٨.



بحري بين المسلمين والبيزنطيين ، فيذكر الطبري أن قائد الحملة البحرية ، كان يحمل لقب "صاحب البحر" وذلك في الرواية الخاصة بأسر الروم للقائد البحري خالد بن كيسان (صاحب البحر) في حوادث سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م، (٨٨) وكان يطلق على المقاتلة في البحر "جيش البحر" كما ورد في رواية في حوادث سنة ١٢٥هـ / ٧٤٢م، بعبارة "وأمر على جيش البحر" "الأسود بن بلال المحاربي" (٨٩).

ومن هؤلاء القادة البحريين: عبد الله بن قيس الحارثي، حليف بني فزارة، الذي استعمله معاوية على البحر زمن الخليفة عثمان بن عفان (٩٠) وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، الذي كان على أسطول مصر ، زمن الخليفة عثمان ، وشارك في معركة ذات الصواري سنة ٣٤هـ / ٦٥٤م، (٩١) ويسر بن أبي أرطأة (٩٢) ومعاوية بن حديج (٩٣) وعقبة بن عامر (٩٤) ومالك بن ومالك بن هبيرة السكوني (٩٥) وعقبة بن نافع الجهني . (٩٦) ويزيد بن شجرة الرهاوي (٩٧) وفضالة بن عبيد (٩٨) وجنادة بن

-
- (٨٨) انظر: الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٤٢ .
(٨٩) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ ، وانظر : ص ٦٧ .
(٩٠) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٥١ - ٥٣ ، و البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٥٩ ، ١٦١ .
(٩١) انظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٩١ ، والذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٤٢٠ .
(٩٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٤ ، وانظر : نبيه عاقل ، تاريخ خلافة بني أمية ، ص ٨٥ .
(٩٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ .
(٩٤) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٨ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
(٩٥) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٣١ .
(٩٦) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .
(٩٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ، ٣٠١ .
(٩٨) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ .



أبي أمية الأزدي (٩٩) ومسلمة بن مخلد، (١٠٠) وعمرو بن يزيد الجهني، (١٠١) وعلقمة بن جنادة الحجري، وعلقمة بن الأختم، (١٠٢) وعبد الرحمن بن أبي الكنود، (١٠٣) وعطاء بن رافع وعمران بن شراحيل، (١٠٤) والمغيرة بن أبي بردة العبدي، (١٠٥) وموسى بن نصير وأبنة عبد الله بن موسى، (١٠٦) وعبد الله بن حذيفة الأزدي، (١٠٧) ومسلمة بن عبد الملك، (١٠٨) وخالد بن كيسان، (١٠٩) وطارق بن زياد، (١١٠) والعباس بن الوليد، (١١١) وعمر بن هبيرة الفزاري، (١١٢) ومحمد بن أوس الأنصاري، (١١٣) ويزيد بن مسروق اليعصب، (١١٤) وعمر بن فاتك الكلبي، (١١٥) ومحمد بن أبي بكر مولى بني جمح (١١٦) ومعاوية بن هشام بن عبد الملك، (١١٧)

- (٩٩) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ .
(١٠٠) بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، ١٣٣ .
(١٠١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
(١٠٢) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٤٢٧ .
(١٠٣) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٥ ، ص ٣٤٢ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .
(١٠٤) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ص ١٨ .
(١٠٥) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٢٩٢ .
(١٠٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٥٤ ، و خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٠ ، ٣٠٢ .
(١٠٧) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٠ .
(١٠٨) المصدر نفسه ، ص ٣٠١ .
(١٠٩) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .
(١١٠) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٤ ، وانظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
(١١١) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٠٦ ، و الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج ٦ ، ٢٦١ .
(١١٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٢٤ .
(١١٣) خليفة بن خياط ، تاريخ ، ص ٣٢٦ .
(١١٤) المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ .
(١١٥) المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ .
(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ .

وقثم بن عوانة الكلبي، (١١٨) وحسان بن محمد بن أبي بكير مولى بني جمح، (١١٩) وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج، (١٢٠) وعثمان بن أبي عبيدة، (١٢١) وعبد الله بن أبي مريم، (١٢٢) والمستنير بن الحارث، (١٢٣) وثابت بن خثيم، (١٢٤) وعبد الملك أو عبد الله بن قطن، (١٢٥) وبكر بن سويد، (١٢٦) وحبيب بن أبي عبيدة، بن عقبة الفهري، (١٢٧) والغمر بن عبد الملك، (١٢٨). وهكذا فإن المصادر تشير إلى ثلاثة وأربعين قائداً بحرياً (صاحب بحر) كانوا على رأس الحملات البحرية التي كانت موجة ضد البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط وسواحلها.

-
- (١١٧) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٤٠، و ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٦١ .
(١١٨) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٣٨، ٣٤٩ .
(١١٩) المصدر نفسه، ص ٣٣٩ .
(١٢٠) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٤٦، ٥٤ .
(١٢١) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٤٩ .
(١٢٢) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٦٧ ،
(١٢٣) خليفة بن خياط، تاريخ، ص ٣٤١ .
(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٣ .
(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٥ .
(١٢٦) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٢٧ .
(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٤٧ .
(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٤٨، ٣٥٣، و ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٨٨



سادساً: الخاتمة: ناقش هذا البحث موضوع "الأمويون والبحر الأبيض المتوسط" وتبين أن هناك جملة من النتائج أهمها: - كان لفتح العرب لبلاد الشام ومصر ابتداء تحدياً كبيراً لهم بسبب تفوق البيزنطيين في البحر، ولكن سرعان ما اتخذ العرب المسلمون قرارهم بالتصدي لهذا الخطر، فأنشئوا الأسطول الحربي البحري منذ زمن الخليفة عثمان بن عفان، وعلى يد واليه على بلاد الشام معاوية بن أبي سفيان .

تم بناء دور للصناعة منذ البدايات في الإسكندرية، وعكا، وصور، وجزيرة الروضة، وبرقة، وقرطاج، وتونس، حتى أصبح الأسطول الإسلامي منافساً قوياً ومسيطرًا على معظم أجزاء البحر الأبيض المتوسط .

- تأسست ثلاثة أساطيل للمسلمين في البحر الأبيض المتوسط في العصر الأموي وهي: الأسطول الشامي، والأسطول المصري، والأسطول الإفريقي، وكان الأسطولان الشامي والمصري متعاونين مع بعضهما البعض للتصدي للأسطول البيزنطي في سواحل بلاد الشام ومصر، وفي عرض البحر الأبيض المتوسط، أما الأسطول الإفريقي فكان يعمل ضد البحرية البيزنطية في البحر المتوسط وجزره مستقلاً عن الأسطولين الشامي والمصري، وذلك بعد تاريخ ٧٢٨هـ / ٧٠٥م، زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية .

- هزم الأسطول الإسلامي الأسطول البيزنطي في أكثر من معركة بحرية منها على سبيل المثال: معركة ذات الصواري ٣٤هـ / ٦٥٤م، ومحاصرة القسطنطينية سنة ٩٨هـ / ٧١٦م، وغزو جزيرة قبرص ٢٨هـ / ٦٤٨م، وجزر سردينية، وصقلية، وأرود، وغيرها من الجزر التي كانت تابعة للروم، وتوجت الحملات البحرية بفتح الأندلس سنة ٩٢هـ / ٧١٠م .



- إن الغزوات البحرية لم تتوقف طيلة العصر الأموي، فكانت سنوية ضد البيزنطيين في البحر المتوسط فيما كان يعرف ب (الشواتي والصوائف) أي الغارات البحرية الشتوية والصيفية ، وذلك من أجل إضعاف القوة البحرية البيزنطية، وحماية سواحل بلاد الشام ومصر والشمال الإفريقي ، التابع للدولة الأموية في ذلك الوقت.

- اشتهر عدد كبير من القادة البحريين الذين كانوا على رأس الحملات البحرية ضد البيزنطيين في البحر المتوسط، وقد أحصينا ٤٣ قائدا بحريا، قاموا بغزو الروم في العصر الأموي، ويطلق على الواحد منهم (صاحب البحر) وعلى المقاتلة (جيش البحر) كما ورد ذلك في كتاب تاريخ الطبري ، في أكثر من رواية.

- أشار كل من خليفة بن خياط، والبلاذري إلى ذكر كلمة (مراكب) و(سفن) إلى القطع البحرية الإسلامية المشاركة في الحروب مع الروم في البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم).

- كان الالتحاق بالبحرية الإسلامية اختيارياً وتطوعياً، وليس إجبارياً وتنظيمياً، في بداية الأمر، ثم أصبح فيما بعد منظماً، ويبدو أن (جيش البحر) كان زمن الأمويين يتبع إلى ديوان الجند بعد التوسع في تأسيس الأسطول، ودور صناعة السفن، لصد الخطر البيزنطي المائل آنذاك في البحر الأبيض المتوسط .

سابعاً : المصادر والمراجع :

المصادر :



- ١ - ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)، الكامل في التاريخ، ١١ ج، تحقيق: أبي الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م .
- ٢ - البلاذري، أحمد بن يحيى، (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، فتوح البلدان، تحقيق: عبدالله الطباع، ط١، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧ .
- ٣ - ابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م)، النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٢٩ م .
- ٤ - ابن خلدون، عبد الرحمن، (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله الدرويش، ط١، دار العرب، دمشق، ٢٠٠٤ م .
- ٥ - ابن خلدون، (العبر) : تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣ م
- ٦ - خليفة بن خياط، (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم العمري، ط٢، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٧ م .
- ٧ - الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) تاريخ الإسلام، تحقيق عبد السلام تدمري، ط٢، دار الناشر العربي، ١٩٩٠ .
- ٨ - وأبو زرعة الدمشقي (عبد الرحمن بن عمر): (ت ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، وضع حواشيه خليل منصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦ .
- ٩ - الطبري (محمد بن جرير) (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١١ ج، دار المعارف، ط٢، مصر، ١٩٦٧ م .
- ١٠ - ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م) فتوح مصر، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦١ م .

المراجع:

- ١ - إبراهيم العدوي، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، الفجالة



- ٢ - إبراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية)، مكتبة الانجلو المصرية، (د. ت).
- ٣- أحمد الشامي: بحث: "العرب وصناعة السفن" كتاب: الحضارة الإسلامية وعالم البحار (بحوث ودراسات) منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٩٤م. ص ١٣٥ - ١٦٢.
- ٤ - أرشيبالد ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠م، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت).
- ٥ - أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٠..
- ٦ - جمال الدين الشيال، تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة (د. ت).
- ٧ - حسن صالح شهاب، فن الملاحة عند العرب، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، ط١، بيروت، ١٩٨٢م.
- ٨ - سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، (المقدمة).
- ٩ - سعد المومني، القلاع الإسلامية في الأردن في العصرين الأيوبي والمملوكي، دار البشير، ط١، عمان، ٢٠٠٨ م.
- ١٠ - السيد عبد العزيز سالم، واحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩ م.
- ١١ - شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري.
- ١٢ - طاهر حبوش، أوائل العرب عبر العصور (العصر الأموي)، بغداد، ١٩٩١م.
- ١٣ - علي الصلابي، معاوية بن أبي سفيان، مكتبة الإيمان، المنصورة، (د.ت).

- ١٤ - فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، (الكتاب الثاني في التاريخ الحربي)، دار الكتاب العربي، القاهرة.
- ١٥ - محمد الحموي، تاريخ الأسطول العربي، نشر فؤاد هاشم الكتبي، دمشق، ١٩٤٥ م.
- ١٦ - محمد المناصير، الجيش الإسلامي في العصر العباسي الأول، مجدلاوي، ط١، دار عمان، ٢٠٠٠ م .
- ١٧ - نبيه عاقل، تاريخ خلافة بني أمية، دار الفكر، ط٣، دمشق، ١٩٧٥.
-

”أثر العواصف على نتائج المعارك بدول حوض البحر المتوسط الإسلامية منذ القرن الأول وحتى القرن السابع الهجري“

د. عبدالله أحمد همام

باحث

الملخص:

يتناول هذا البحث موضوعاً في غاية الخطورة، حيث أثرت العواصف في نتائج المعارك البرية والبحرية تأثيراً واضحاً سواء بالسلب أم بالإيجاب لما تحدثه تلك العواصف من تدمير مقومات الجيوش سواء البشرية أم المعدات والأسلحة والسفن؛ فتكون بذلك العامل المسؤول عن الهزيمة أو الانتصار في المعارك.

وكانت العواصف تحول دون الإغارة على سواحل دول البحر المتوسط الإسلامية، بل وتتسبب في تدمير الأساطيل المعادية وتقذفها بعيداً عن السواحل، كما تسببت تلك العواصف في عرقلة ومنع الإمدادات العسكرية للوصول إلى السواحل خاصة في المعارك البحرية.

ومن ناحية أخرى، كانت العواصف أخطر من مواجهة الأعداء، لقدرتها على إلحاق الهزيمة بالجيوش في المعارك البرية، نتيجة لما تثيره من الأتربة الكثيفة التي تحجب الرؤية، وتتسبب في انهزام الجنود نتيجة انتشار الفوضى في الصفوف، وانعدام الرؤية.

وظهر من خلال الدراسة أنّ العواصف من أشد العوامل قسوة، وأدت إلى استسلام المدن والحصون، ولاسيما في حالات الحصار، حيث كانت العواصف تجبر المحاصرين المدافعين عن المدن على الاستسلام وطلب الأمان لعجزهم عن الدفاع، وخاصة حين تزداد شدة تلك العواصف نتيجة ما يلحقها من هبوط الأمطار وغيرها.

ومثلت العواصف أحد المعوقات التي قضت على جهود القادة في إعداد الأساطيل البحرية لما تحدثه من الدمار الشامل بالمراكب والسفن العسكرية أثناء استعداداتها للإقلاع مما يؤدي إلى إلحاق الهزيمة بالأسطول قبل إقلاعه.

الكلمات المفتاحية: أثر العواصف، المعارك البرية، المعارك البحرية.

ملخص البحث باللغة الإنجليزية

Abstract:

Storms had affected the results of naval and land battles whether positively or negatively due to the drastic impact of these storms on the resources and the fundamentals of armies such as human resources, equipment, weapons, and ships. Thus, it is considered as the responsible factor for loss or victory in battlefield.

Besides, it caused serious destruction to the fleets of enemies, storms were effective in preventing raiding the coasts of the Muslim Mediterranean countries. These storms, then, obstructed the arrival of military supplies to the concerned coasts during naval battles.

Moreover, storms were more dangerous than facing enemies for their ability to cause the defeat of certain armies in battlefield due to the dust they raise blurring vision and causing chaos among soldiers.

This study reveals that one of the factors that forced the defenders of sieged cities and forts to surrender was storms. Storms and rain that accompany them made it difficult for the solders to defend their cities or forts.

Storms undermined the commanders' efforts in preparing the naval fleets, as they caused massive damage to the military vessels and ships during their preparations for war, which would lead to the defeat of the fleet before it took off.

المقدمة:

يرصد البحث أثر العواصف على نتائج المعارك، حيث لعبت العواصف دوراً مهماً في نتائج المعارك البرية والبحرية سواء بالسلب أم الإيجاب، لما أحدثته من تدمير مقومات الجيوش، سواء البشرية أم المعدات والأسلحة والسفن، فتكون بذلك العامل المسؤول عن الهزيمة أو الانتصار في المعارك.

وإزداد خطر العواصف العاتية في أحداث المعارك البحرية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام ومصر، حيث لعبت الرياح دوراً مهماً في حماية السواحل بالبلاد الإسلامية المطلة على البحر المتوسط من الغارات المفاجئة التي كانت تشنها الأساطيل الصليبية من حين لآخر على السواحل الإسلامية، فكانت تتعرض لهزائم ساحقة دون تدخل من الجيوش الإسلامية لحماية سواحلها في بعض الأحيان؛ نتيجة تحطم سفن تلك الأساطيل بفعل الرياح ووقوعها طاقمها بين قتلى وأسرى.

كما أعطت تلك الرياح الفرصة في بعض الأحداث الأخرى للمدافعين عن المدن المحاصرة في اتخاذ كافة الاستعدادات الحربية لالتقاط أنفاسهم وتوحيد صفوفهم نتيجة انشغال المهاجمين بتداعيات وآثار العواصف وما تلحقه بهم من تدمير معداتهم، فيتقهقرون أياماً لحين هدوء الأجواء الجوية وتقادياً لحدوث أية خسائر فادحة سواء بشرية أم مادية. وظهرت آثار العواصف في نتائج المعارك البرية والبحرية وانتصار أحد طرفي المعركة دون الآخر بفعل الرياح، وما أوقعته من تدمير في الطرف المنهزم، وعلى الجانب الآخر يحقق الطرف المنتصر مكاسب مادية ومعنوية دون عناء يذكر في بعض الأحيان بمجرد جمع الغنائم وتتبع فلول المنهزمين الذين يقعون بين قتلى وأسرى في أيديهم.

أهداف البحث: يمكن تلخيص أهداف البحث فيما يلي:

- التعرف بالرياح العاتية من حيث: أثرها على شتى مناطق البحر المتوسط الشرقية، والجنوبية، والغربية.
- تسليط الضوء على العواصف التي كانت تتعرض لها بلاد حوض البحر المتوسط وأثرها على المعارك سواء البرية أو البحرية.
- توضيح الآثار التدميرية الناجمة عن العواصف في المعارك سواء الخسائر البشرية أم المادية.

أهمية البحث:-

يكتسب موضوع البحث أهمية متزايدة بسبب ما كانت تسببه العواصف من خسائر فادحة في أرواح الجنود والتدمير الكامل لمقومات الجيش، فيترتب عنه انتصار الجيش الإسلامي أو والهزائم الساحقة التي يتعرض لها جيش أعدائه بفعل الآثار الناجمة عن العواصف من تدمير الأساطيل البحرية أو إثارة الأتربة في المعارك البرية. فقد كانت الكوارث الناجمة عن العواصف أكبر الأسباب التي تحكمت في بعض المعارك البرية والبحرية خاصة في حماية سواحل البلاد الإسلامية في حوض البحر المتوسط من الغارات المباغثة من الأساطيل البحرية العدائية، فكانت العواصف تؤدي إلى تحطم السفن ووقوع طاقمها من الرجال بين قتلى أو أسرى في أيدي جنود البلاد الإسلامية وغيرها من الخسائر المادية الفادحة التي تكبدتها الجيوش المعادية في المعدات والسفن.

مشكلة البحث:-

من خلال ما سبق ذكره من أهمية البحث، وحتى نتمكن من تحقيق أهداف البحث، تتضح مشكلة البحث من خلال السؤال الرئيس التالي: ما هي آثار العواصف على المعارك البرية والبحرية وكيفية استفادة الجيوش الإسلامية منها في بلاد حوض البحر المتوسط وأثرها في خط سير الأحداث بعد تلك المعارك؟

منهج البحث:-

اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي في هذه الدراسة، حيث قام بجمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع وتحليلها بشكل موضوعي بشكل يخدم موضوع الدراسة في حرص حذر حتى لا نخلط من أحداثها المتشابهة والمتباينة، وإبراز الآثار التدميرية الناجمة عن العواصف، وما تلحقه من خسائر بشرية ومادية، ومدى أثر ذلك في نتائج المعارك البرية والبحرية.

أقسام البحث: للإمام بمختلف جوانب الموضوع، تم تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور:

أولاً: أثر العواصف على نتائج المعارك شرق البحر المتوسط بمصر والشام.

ثانياً: أثر العواصف على نتائج المعارك جنوب البحر المتوسط (شمال افريقية).

ثالثاً: أثر العواصف على نتائج المعارك غرب البحر المتوسط (شرق سواحل الأندلس).

وفيما يلي، تناول محاور البحث بالتفصيل:

المحور الأول: أثر العواصف على نتائج المعارك شرق البحر المتوسط بمصر

والشام:-

في الحقيقة، ساعدت العواصف الشديدة بسواحل البحر المتوسط في حمايتها من الإغارات المباغثة التي كانت تعرضت لها منذ الخلافة الراشدة وصراعها مع الإمبراطورية البيزنطية، فمثلت العواصف درعاً طبيعياً لردع الأخطار الخارجية التي كانت تُحدّق بالدولة الإسلامية منذ الخلافة الراشدة، ومن أشهر الأحداث التي لعبت فيه العواصف هذا الدور حين خرج الإمبراطور قسطنطين^(١) بن هرقل قاصداً الإسكندرية في ألف مركب مجهزة بالمقاتلة والسلاح، فاعترضت تلك الحملة رياح عاصفة أغرقت معظمها ونجا قسطنطين بمركبه، فاتجه إلى صقلية^(٢) وقتل بها سنة ٦٥٦/هـ^(٣).

وكان للرياح العاصفة أثر مهم في أحداث المعارك بين المسلمين والصلبيين ولاسيما البحرية منها، فكانت في بعض الحملات العسكرية تمثل ألد الأعداء للحملة أكثر من أعدائها لما تلحقه تلك العواصف من خسائر بشرية ومادية للأساطيل الإسلامية المقلعة دفاعاً عن سواحل بلاد الشام من هجوم الفرنج، فتصبح عاجزة عن مجابهة الفرنج؛ نتيجة لما لحق بها من دمار ووقوع بحارتها وجنودها بين غرقى أو قتلى وأسرى في أيدي أعدائها، كما حدث حين أرسل الوزير الفاطمي عيسى^(٤) بن نسطورس أسطولاً مكوناً من أربعة وعشرين مركباً تدعيماً لبنجوتكين^(٥) وإلى دمشق لمجابهة الفرنج، وكان منازلماً لأنطرسوس^(٦)، إلا إن الأسطول تعرض لرياح شديدة عاصفة حطمت سفنه، ووقع البحارة والجنود بين غرقى، ومن نجا منهم إلى الساحل، أنقض عليهم أهل أنطرسوس وغنموا ما سلم من المراكب وأسروا بحارتها وجنودها، وكان ذلك في عهد الخليفة العزيز بالله^(٧) الفاطمي سنة ٣٨٦/هـ ٩٩٦م^(٨).

أما عن تأخر وصول الإمدادات العسكرية عن الأساطيل المهاجمة على السواحل بسبب العواصف الشديدة، فقد كان من أخطر العوامل التي تؤدي إلى الهزيمة والانسحاب في المعركة وبما مثلته من ناحية أخرى إتاحة الفرصة للطرف الثاني من المعركة في اتخاذ التدابير والاستعدادات اللازمة لمواجهة أعدائه، ومن أهم الأحداث التي كانت الرياح العاصفة ذات أثر

خطير في تأخر الإمدادات العسكرية حين اجتمعت القوات الرومية والصليبية على شواطئ الشام في ٢٢ محرم ٥٦٥هـ/ ١٥ أكتوبر ١١٦٩م، وكان الأسطول الرومي قد أبحر قبل ذلك بعدة أيام للهجوم على مصر^(٩) التي كانت تمثل بؤرة الخطر على الوجود الصليبي في ذلك الوقت، بقيادة صلاح الدين^(١٠) وزير مصر أواخر العصر الفاطمي، فاستطاع الجيش البري الوصول إلى دمياط^(١١) في ٤ صفر ٥٦٥هـ/ ٢٧ أكتوبر ١١٦٩م^(١٢).

وفي أوائل صفر ٥٦٥هـ/ أكتوبر ١١٦٩م، بدأ حصار المدينة بينما لم يبدأ الهجوم^(١٣)؛ نظراً لتأخر وصول إمداد الأساطيل الرومية ثلاثة أيام، بسبب "هبوب رياح عاتية" عاقت حركتها، واضطر الأسطول الفرنجي الانتظار لحين استقرار الأمواج إلى أن وصل الأسطول بعد عدة أيام عند مدخل النهر^(١٤)، هذا إلى جانب هطول الأمطار بشدة؛ بسبب هبوب الرياح العاتية، مما زاد من القلق والاضطراب في صفوف المعسكر الصليبي، وأغرقت جميع خيام الصليبيين^(١٥)، ومن ناحية أخرى، كان لتأخر الأسطول الرومي إتاحة الفرصة للمعسكر الإسلامي في اتخاذ التدابير والاستعدادات العسكرية اللازمة لمواجهة الخطر الصليبي الرومي، حيث أرسل إليها صلاح الدين الجنود عبر النيل وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر إلى أن انتهت المعركة بهزيمة التحالف الصليبي الرومي وانتصار المصريين^(١٦).

وتوالى الهزائم على التحالف الصليبي الرومي بفعل العواصف مجدداً؛ فبعد انتهاء المعركة بعقد معاهدة للسلام بين الجانبين الصليبي والمصري بعد حصار الصليبيين والروم لدمياط لحوالي شهرين من نهاية أكتوبر حتى نهاية ديسمبر ١١٦٩م، تعرضت القوات الرومية لضربة قاصمة من الرياح العاتية التي هبت عند إبحار القوات أثناء العودة إلى بلادهم أدت إلى تحطيم معظم قطع الأسطول، وقذفت بحطامها على الشاطئ حتى غرق كل شيء^(١٧).

وكانت عواصف البحر المتوسط من أشد العواصف التي كبدت الفرنج خسائر فادحة سواء البشرية أو المادية، من ذلك حين نقض الفرنج عهدهم بتعرضهم لسفن تجار البحر، هبت رياح عاتية لبطسة^(١٨) عظيمة من المراكب الفرنجية مقلعة من مدينة بوليه^(١٩) قاصدة زيارة بيت المقدس، وكان على منتهى ألقان وخمسائة نفس من وجهائهم وأبطالهم وأتباعهم، وألقته العاصفة إلى ثغر دمياط بعد أغرقت معظم من عليها، وما تبقى منهم، وقَعوا أسرى في أيدي المسلمين، وكانوا زهاء ألف وستمائة وست وسبعين أسيراً سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م^(٢٠).

ويبدو أن العواصف والرياح العاتية كانت مصدرًا من مصادر سوق الغنائم للمعسكر الإسلامي دون قتال أو عناء، من خلال سوقها للمراكب الفرنجية رغمًا عنها إلى السواحل الإسلامية والتي كانت قاصدة مدن الفرنج، فغنم المسلمون غنائم كثيرة منها حين ألقت الرياح بسطنتين خرجتا من عكا^(٢١) الفرنجية نحو بلاد الفرنج، فألقتها الرياح بساحل زيب^(٢٢) وكانتنا محمّلتين بالرجال والصبيان والنساء وميرة عظيمة وغيرها من الغنائم الأخرى، فغنمها المسلمون بفضل الرياح دون عناء في رمضان سنة ٥٨٦هـ/أكتوبر ١١٩٠م^(٢٣).

وكبدت العواصف الدول الإسلامية خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وصارت عائقًا حال دون وصول الإمدادات العسكرية المتمثلة في السفن المحملة بالمؤن للمدن الإسلامية المنكوبة بحصار الفرنج، وحاول المسلمون من خلالها إغاثة إخوانهم المحاصرين كي يستطيعوا مواجهة أعدائهم أثناء الحصار، وهو ما حدث أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا؛ إذ أرسل السلطان صلاح الدين الأيوبي سبع سفن محملة بالإمدادات تعين أهل المدينة من مشقة الحصار، إلا أن شاء القدر عند اقتراب تلك السفن من الميناء، هبت ريح عاصف أدت إلى اصطدام بعضها البعض حتى دمرت وغرق ما كان فيها من الميرة^(٢٤) والبحارة، ووصف المؤرخون أن الميرة التي كانت بها تكفي أهل المدينة سنة كاملة، وذلك في الثاني من ذي الحجة ٥٨٦هـ/٣١ ديسمبر ١١٩٠م^(٢٥).

ولما علم الصليبيون ما حدث من انقلاب السفن، وغرق بحارتها، زحفوا نحو المدينة من جانب البر حتى قاربوا الأسوار وحاولوا التسلل عبر أجزاء الشقوق بالأسور إلا إن أهل البلد أدركوهم وردوهم دون تحقيق أهدافهم من اختراق الأسوار^(٢٦).

وكما ألحقت العواصف الهزائم بالأساطيل الإسلامية أثناء الصراع مع الفرنج، فقد كبدت الفرنج أيضًا خسائر بشرية ومادية فادحة، وكانت سببًا في إضعاف الفرنج المهاجمين على مدن السواحل الشامية وهزيمة بعض حملاتهم البحرية، نتيجة الدمار الذي تلحقه بسفنهم ورجالهم كما فعلت بأسطول ابن ملك الألمان^(٢٧) الذي قصد مهاجمة عكا، إلا إنه حال بينه وبين تحقيق هدف حملته هبوب رياح عاصفة أهلكت من قوة حملته ثلاث مراكب بكامل عدتها ورجالها مما كان له الأثر البالغ في تقليل قوة حملته البحرية، ولم يصل إلى عكا إلا بجمع يسير منها حتى مات بعكا في ١٢ ذي الحجة ٥٨٦هـ/٩ يناير ١١٩١م^(٢٨).

ولعبت الرياح العاصفة دوراً مهماً في أحداث المعارك بين المسلمين والصليبيين، ومثلت في بعض الأحيان درع حماية طبيعياً لمدن السواحل الإسلامية ضد غارات السفن الصليبية؛ إذ كانت هذه الرياح العاتية تجبر الصليبيين إلى إنفاذ سفنهم إلى الجزر القريبة بعيداً عن سواحل المدن الإسلامية التي تحاصرها أثناء العواصف حفاظاً عليها من الدمار وقتل بحارتها، واضطروا إلى الانسحاب والانتظار لحين توقفها وعادوا الكرة مرة أخرى في الحصار، كما حدث حين هبت الرياح العاصفة وهاج البحر على سفن الصليبيين المحاصرين لمدينة عكا حتى دُمرت بعضها بفعل تلك العواصف، فاضطروا إلى الانسحاب وإنفاذها إلى الجزر القريبة لحمايتها، وخلا البحر من مراكبهم بعد أن ضجر أهل البلد من طول الحصار سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م^(٢٩).

ومن الهزائم التي ألحقتها العواصف العاتية بالحملة الصليبية الرامية إلى الإغارة على سواحل البلاد الشامية ما حدث للحملة الصليبية الثالثة بقيادة رينشارد قلب الأسد التي تعرضت لهبوب رياح عاصفة أدت إلى تدمير معظم سفن الأسطول الذي كان مكوناً من خمس وعشرين سفينة، وأجبرته تلك العواصف وما أسفر عنها من دمار لحملة إلى الجنوح نحو قبرس^(٣٠) في السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٧هـ/٢٢ مايو ١١٩١م^(٣١).

ومن الكوارث والخسائر الفادحة التي ألحقتها العواصف بالأساطيل الإسلامية أنها كانت تتسبب في إغراق وتدمير السفن وغرق عدد كبير من بحارتها حتى وصل الأمر إلى سقوط بعضهم أسرى في أيدي أعدائهم كما هو الحال حين أعدّ السلطان الملك العادل^(٣٢) (ت: ٦١٤هـ/١٢١٨م) أسطولاً مكوناً من خمسة عشر شيناً^(٣٣) فهبت رياح عاصفة على هذا الأسطول رمى بهم إلى طرف الصليبيين قرب مدينة طرابلس^(٣٤) فتسببت في إغراق تسعة سفن من الأسطول الإسلامي وألحق بسببها الهزيمة ووقوع الجند بين غرقى وأسرى، ولم يسلم منه سوى ست سفن، وذلك سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م^(٣٥).

وفي عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) أثناء صراعه مع الفرنج ببلاد الشام، نجد أن العواصف أخفقت إحدى حملاته البحرية التي كانت تهدف للاستيلاء على جزيرة قبرس حين بلغه وهو مخيم بحصن الأكراد خروج ملكها هيو الثالث لوزجان بجيشه قاصداً عكا، فأراد السلطان بيبرس اغتنام الفرصة وأرسل حملة بحرية

كبيرة مكونة من سبعة عشر شينياً لغزو جزيرة قبرس في غيبة ملكها، ولما قاربت السفن سواحل المدينة، تعرضت لرياح عاصفة أدت إلى اصطدام بعضها ببعض حتى حطمت أحد عشر شينياً وسقط بحارتها والجنود ما بين غرقى وأسرى في أيدي الفرنج ما بلغ عددهم ألف وثمانمائة سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م^(٣٦).

ومن ناحية أخرى، كان لحدوث العواصف أثر كبير في رد ودحر الغزاة عن بلاد الشام، بعد تدميرها لسفنهم بما فيها من الجنود والبحارة، ومن ذلك حين خرج جماعة الفرنج من الغرب، بعد توصلهم مع المغول للتحالف والاستعداد لمهاجمة بلاد الشام واجتماعاً بجهة سيس^(٣٧) بسفن كثيرة، فهبت عليهم ريح عاصفة كبدتهم بخسائر فادحة، فأغرقت العديد من سفنهم بما فيها من الجنود والبحارة ومن نجا منهم عاد أدراجه إلى بلاده مهزوماً مدحوراً سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م^(٣٨).

ومن الحملات الصليبية التي لعبت العواصف دوراً مهماً في هزيمتها وفشلها في مهاجمة سواحل بلاد الشام وحماية السواحل من شر هجمات الفرنج المتتالية وردهم إلى بلادهم مهزومين مدحورين نتيجة ما ألحقته تلك الرياح العاتية من دمار لسفنهم، وقتل ما فيها من الجنود والبحارة، كما حدث حين هاجم ملك قبرس سواحل بلاد الشام، فهبت ريح عاصفة ردت عن هجومه واضطرته نتيجة شدتها وآثارها المدمرة النزول في بيروت^(٣٩)، فاشتبك مع المسلمين الذين كانوا على أهبة الاستعداد لمقاومته، فهزموه وغنموا كثيراً من حيوانات النقل وغيرها من المعدات الحربية، فاضطر الانسحاب بحراً إلى صور^(٤٠) بعد أن تكبد بخسائر فادحة خسر فيها كثيراً من جيشه حتى وقع من جنوده في الأسر ثمانون رجلاً سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م^(٤١).

ويبدو أن العواصف مثلت لسواحل بلاد الشام درع حماية طبيعي في بعض الأحيان ضد ما تتعرض له من إغارات الفرنج المتتالية على سواحلها وهو ما نلمسه من خلال ما فعلته العواصف بالفرنج من إحباط لمخططاتهم في الهجوم على السواحل الشامية الإسلامية واضطرارهم للعودة إلى بلادهم مهزومين دون تحقيق أهدافهم، من ذلك ما حدث أيضاً حين وصل إلى ساحل بيروت سفن كثيرة للفرنج مجهزة بكامل العدة والعتاد، وبلغت ثلاثين

بطسة^(٤٢)، وحملت كل بطسة منها نحو سبعمائة مقاتل، قصدوا الإغارة على السواحل الشامية والنزول إلى الساحل إلا إن الرياح الشديدة أغرقت معظم مراكبهم باصطدام بعضها البعض حتى دمرت، ورجع من سلم منهم إلى بلاده مهزومين سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م^(٤٣).
ومن الغنائم التي غنمها المسلمون بفضل الرياح وسوقها للسفن الفرنجية المحملة بالغنائم كالميرة والبضائع ما حدث حين جهز صاحب مدينة سيس مراكب نحو قبرس فيها بضائع ما بلغ قيمتها نحو مائة ألف دينار، فألقتها الرياح على ميناء دمياط، فغنمها المسلمون سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م^(٤٤).

ولم يقتصر أثر العواصف على نتائج المعارك البحرية فحسب، بل شمل أيضاً المعارك البرية، حيث كانت الرياح العاصفة من أشد العوامل التي أدت إلى إسقاط القلاع والحصون ولاسيما أثناء الحصار، حيث كانت العواصف تجبر المحاصرين إلى اللجوء للاستسلام وطلب الأمان لعجزهم عن الدفاع في ظل ظروف العواصف الشديدة وما تبعها من عصف الرياح وشدة الأمطار، كما حدث حين ضيق الجيش الإسلامي بقيادة الأمير صلاح الدين الأيوبي الحصار على قلعة كوكب^(٤٥) إلا إن العواصف الشديدة من الرياح العاتية والأمطار الغزيرة أجبرتهم إلى الاستسلام وطلب الأمان بعد أن أيقنوا من الهزيمة، فأجابهم صلاح الدين للصلح وتسلمها في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م^(٤٦).

وكان هبوب الرياح العاصفة من أنسب الأوقات التي استغلها الفرنج المحاصرون في مهاجمة معسكرات الجيش الإسلامي، فيتسللون في ظل ظروف هبوب الرياح العاتية ويهجمون على معسكرات الجيوش الإسلامية مما أسفر عن ذلك وقوع قتلى بين صفوف الجيش الإسلامي نتيجة تلك الهجمات التي يتعرض لها أثناء العواصف كما حدث أثناء حصار السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون لمدينة عكا الصليبية، فهبت ريح عاصفة استغلها الفرنج المحاصرون من الإسبترية والداوية بعكا في توجيه ضربات قاسية في الهجوم على المعسكر الإسلامي ترك أثراً سلبياً على الجيش الإسلامي لما أسفر عن تلك الهجمات من وقوع قتلى بين صفوف الجيش الإسلامي سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م^(٤٧).

المحور الثاني: أثر العواصف على نتائج المعارك جنوب البحر المتوسط (شمال إفريقيا):
أما الفتوحات الإسلامية البحرية، فيبدو أن العواصف كانت السبب المباشر لعدم تحقيق أهداف بعض حملاتها البحرية لما أحدثته من إغراق سفن الأسطول وبحارتها، فيضطر قائدها إلى الرجوع، ويعود بما تبقى منها دون تحقيق الأهداف المرسلة من أجلها تلك الأساطيل، من ذلك بعد أن قام الوالي حسان^(٤٨) بن النعمان بتأسيس القاعدة البحرية الإسلامية المعروفة باسم تونس^(٤٩)، أغار بأسطول مصري على جزيرة صقلية إلا إن محاولته باءت بالفشل نتيجة هبوب رياح عاصفة شديدة هددت أسطوله بالدمار، فاضطرت سفنه من العودة والرجوع إلى قواعد الأمانة في تونس تقادياً لآثار المدمرة للعواصف سنة ٧٠٣هـ/٧٠٣م^(٥٠).

ومن الحملات التي أخفقت في فتح جزيرة صقلية بسبب العواصف أيضاً حين أرسل والي إفريقيا الأمير عبيدة^(٥١) ابن عبدالرحمن القائد المستنير ابن الحارث الحرشي لغزو جزيرة صقلية، إلا إن الحملة لم تحقق نجاحاً لتعرضها لرياح عاصفة شديدة تسببت في إغراق السفن حتى نزلت سفينة أميرها إلى ساحل طرابلس^(٥٢) وتعرض المستنير للتكثير من الوالي عبيدة وذلك لتفاعسه وأقامته بأرض الروم حتى نزول الشتاء واشتداد أمواج البحر وعواصفه حتى حدوث الكارثة وبلغت سفن ذلك الأسطول مائة وثمانين مركباً، فغرقت معظمها ومن فيها ولم يسلم منها إلا سبعة عشر مركباً سنة ١١١هـ/٧٢٩م^(٥٣).

ولم تسلم الإمدادات العسكرية والأساطيل الإسلامية من آثار العواصف المدمرة التي كانت تدمر أهداف القادة لحماية ممتلكات الدولة الإسلامية وخاصة الجزر الخاضعة لحكمها، والتي كانت تتعرض لهجمات معادية، فعجزوا عن الدفاع عنها بسبب تدمير العواصف للأساطيل الإسلامية التي أعدوها لنجدة الجزر المنكوبة بالحصار، ونتج عن ذلك سقوط الجزر التابعة لها في أيدي أعدائها، وهو ما حدث حين بلغ الأمير المعز^(٥٤) بن باديس خروج الروم في جمع كثير لاستيلاء على جزيرة صقلية، واستطاعوا الاستيلاء على ما كان للمسلمين في جزيرة قَلُورِيَّة^(٥٥)، فجهز أسطولاً كبيراً بلغ أربع مائة قطعة، وحشد فيها عدد كبير من الرجال والمجاهدين، إلا إن هذا الأسطول تعرض قرب سواحل إفريقيا لرياح عاصفة تسببت في إغراق معظمه ولم ينج منه سوى القليل وذلك سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م^(٥٦).

ويبدو أن العواصف الشديدة مثلت في بعض الأحيان سداً منيعاً لحماية سواحل البلاد الإسلامية من إغارات الفرنج المفاجئة، وإن كان المنع مؤقتاً لبضعة أيام وإتاحة تلك الفترة الفرصة لأهل البلاد من اتخاذ التدابير اللازمة لحماية بلادهم سواء في الدفاع عنها أو استطاعت الهرب والفرار قبل هجوم الأسطول، وهو ما حدث حين أراد قائد الأسطول الفرنجي جرجي من الهجوم على مدينة المهديّة^(٥٧) بغتة في غفلة من أهلها فخرج من صقلية بأسطول مكون من مائتين وخمسين شينياً محملة بالرجال والسلاح، إلا إن الرياح العاتية أبطلت خطته الهجومية في المباغته ومفاجأة أهل مدينة المهديّة ولم يستطع المسير إلا بالمقاذيف، فاستطاع الأمير الحسن^(٥٨) بن باديس الصنهاجي صاحب إفريقية من انتهاز فرصة هبوب الرياح على الأسطول والرحيل بأهل مدينة المهديّة لعدم قدرته في مواجهة الأسطول الفرنجي، وظل الأسطول في البحر تمنعه الرياح من الوصول إلى المهديّة، ولم يتمكن من دخولها إلا بعد أن هدأت الرياح ودخل القصر والبلد خاوية على عروشها لا يوجد بها أحد من أهلها سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م^(٥٩).

ومن الآثار المترتبة عن العواصف هو تأخر هجوم الأساطيل على المدن المحاصرة لحين انتهاء العاصفة لخوف قادة الأساطيل من الدمار الذي تحدثه تلك العواصف من خسائر فادحة في السفن وبحارتها، مما يتيح الفرصة أثناء تلك الفترة من تفاوض أهل المدينة المحاصرة مع قائد الأسطول لتسليم المدينة وتأمين أهلها على أرواحهم وأموالهم وهو ما حدث حين قام الملك عبد المؤمن أمير إفريقية بحصار مدينة تونس، فراسل أهلها لطاعته، وكان على رأس أسطول مكون من سبعين شينياً وطريدة^(٦٠) وشلندى^(٦١) فامتنعوا، فقاتلهم قتالاً شديداً ولم يحل دون الدخول إليها سوى هبوب ريح عاصفة منعت الموحدين الدخول إلى البلد، فتراجعوا لحين انتهاء العاصفة، مما أتاح ذلك الوقت لسبعة عشر رجلاً من أعيان المدينة للتفاوض مع عبد المؤمن لاستلام المدينة " فأجابهم إلى الأمان لهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة، وأما ما عداهم من أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهاليهم، ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين" وأن يخرج أميرها أحمد بن خراسان وتم الصلح واستلم المدينة بالأمان سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م^(٦٢).

ويبدو أن آثار الدمار الذي أحدثته العواصف تدخل في حسم المعارك البرية لما تسببه من إثارة الأتربة والرمال، فيصعب معه الرؤية أثناء القتال حتى يكاد لا يبصر الرجل صاحبه في المعركة ولاسيما في حالة حصار المدن فتقلب العاصفة ميزان الغلبة في المعركة فتحول النصر إلى هزيمة، وهو ما حدث أثناء حصار أبي يزيد الخارجي للمهدية وبها عسكر القائم، حتى قتل جماعة من أعوان أبي يزيد فهبت رياح عاتية مظلمة أثناء القتال تسببت في حجب الرؤية، فكان الرجل لا يرى مبارزه فانهزم عسكر القائم وقتل منهم جماعة وعاد الحصار على ما كان عليه، وقد هرب كثير من أهل المهدية إلى جزيرة صقلية وطرابلس ومصر وبلاد الروم وذلك سنة ٣٣٣هـ/٩٤٥م^(٦٣).

المحور الثاني: أثر العواصف على نتائج المعارك غرب البحر المتوسط (شرق

سواحل الأندلس):-

كان للموقع الجغرافي للأندلس الأثر البالغ في تعرض البلاد إلى الكثير من الكوارث، فوقعها بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي جعلها عرضة للتأثيرات المناخية وهبوب الرياح القوية وتأثيرات البحار من حيث العواصف والأمطار المختلفة المواسم^(٦٤).

والملاحظ أن العواصف عرقلت مهام الأساطيل الإسلامية في الإغارة على سواحل الفرنج لما تحدثه من خسائر فادحة تلحق بالأسطول الإسلامي سواء في تدمير السفن وغرق القوات البحرية أو قذف الأسطول بعيداً عن السواحل، مما يتسبب في إلحاق الهزيمة بالأسطول الإسلامي قبل لقاء أساطيل خصومه، كما حدث مع الأسطول الأندلسي الكبير الذي كان بقيادة القادة الأمير محمد بن رماحس وغالب بن عبدالرحمن وسهل بن أسيد حين خرج الأسطول من المرية^(٦٥) قاصداً الإغارة على سواحل إفرنجة إلا إن عاصفة شديدة قذفت بأسطوله بعيداً عن تلك السواحل وحالت العاصفة دون تحقيق هدف الحملة وهي معاونة قاعدة جبل القلال^(٦٦) سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م^(٦٧).

وكما كانت العواصف تلحق الهزائم بالأساطيل البحرية وتحول دون تحقيق أهدافها، فكانت أيضاً عائقاً أدى إلى تأخر وصول الإمدادات العسكرية البحرية ومما أدى ذلك إلى تأخير حسم المعركة لحين استقرار الأحوال الجوية وانتهاء العاصفة، كما هو الحال حين

نقض الحسن^(٦٨) بن كنون عهد الخليفة الحكم^(٦٩) المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) ، فأرسل الخليفة قائد البحر الأمير عبدالله بن رماحس دعماً لقائده محمد بن القاسم، إلا إن ابن قاسم قتل واستدعى الحكم قائد الثغور الأمير غالب بن عبدالرحمن الناصري وكتب إلى قائد الأسطول ابن رماحس اتباع أوامر قائده الجديد، إلا إن العواصف الشديدة حالت دون إبحار الأمير غالب بجيشه من الجزيرة الخضراء، واضطر إلى الرجوع والمكوث أياماً بساحل الجزيرة لحين تحسن الأحوال الجوية وانتهاء العاصفة مما أدى إلى تأخر الإمدادات العسكرية، وبعدها تمكن من الإبحار والاتصال مع قائد الأسطول ابن رماحس وتمكنا من إجبار الحسن بن كنون للدخول في طاعة الحكم سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م^(٧٠).

ووقفت العواصف المدمرة حجر عثرة أمام الفتوحات الإسلامية خاصة في فتح جزر البحر المتوسط، وذلك نتيجة ما تلحقه تلك العواصف من دمار وتحطم السفن والأساطيل فتزهق أرواح البحارة والجنود بين غرقى وقتلى أو وقوعهم أسرى في أيدي أعدائهم، وهى الأحوال التي لحقت بالأساطيل الإسلامية التي خرجت من قرطبة بقيادة الأمير مجاهد^(٧١) بن عبدالله الذى قصد غزو جزيرة سردينيا^(٧٢) وكانت جزيرة كبيرة تابعة للروم فبالرغم ما حققه من انتصارات بها من فتح معاقلها واستيلائه على معظمها، ونتيجة لعدم اهتمامه بتحذير أحد الملاحين له من مخاطر العواصف في إحدى مواني بسواحل الجزيرة، فتعرض أسطوله لرياح عنيفة عاتية أدت إلى قذف مراكب المسلمين لشدة ارتجاج البحر وأسفر عنها وقوع الجنود والبحارة بين غرقى وقتلى أو أسرى في أيدي الروم، فاضطر الأمير مجاهد الرجوع بما تبقى معه من المراكب إلى الأندلس ودون تحقيق هدفه بفتح جزيرة سردينيا وسميت بجزيرة الشهداء وذلك سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م^(٧٣).

وأجبرت العواصف أيضاً تراجع الجيوش الإسلامية وعدم مواصلة الفتوحات الإسلامية نتيجة ما تسببه من خسائر فادحة في الأرواح والأموال، فيفضل القائد التراجع وعدم المواصلة حفاظاً على مقدورات الجيش الإسلامية من الدمار، كما فعل القائد عبدالملك^(٧٤) المظفر بالله حين خرج في غزوته الرابعة التي عرفت بغزوة "بنبلوثة" عاصمة نافار فبالرغم مما حققه من انتصارات بأرض العدو إلا إن الجيش الإسلامي انقضت عليه

عواصف شديدة صحبها الرعد والبرق والأمطار الغزيرة وتخللها البرد القارس مما اضطر القائد عبدالملك من الانسحاب بالجيش الإسلامي خشية من تأثير تلك العواصف من إلحاق الضرر بالجيش في الأرواح والمعدات فرجع بجيشه إلى قرطبة، دون أن تحقق هذه الغزوة أهدافها سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م^(٧٥).

ولعل أوقات العواصف الشديدة كانت من أنسب الظروف التي استهدف المهاجمون استغلالها في اقتحام المدن، نظراً لانشغال المدافعين عن المدينة بما تحدثه العواصف من دمار وخراب وما ينتج عنها من اضطرابات، فيتسلل المهاجمون في أثناءها ليتمكنوا من دخول المدينة بسهولة وبدون مقاومة كما نجح الأمير جرير بن عكاش في الاستيلاء على مدينة قرطبة حين أرسله ملك طليطلة يحيى بن ذي النون للاستيلاء على مدينة قرطبة، وكان بها الأمير الظافر بالله بن الملك المعتمد بالله أبو القاسم محمد بن عباد، فسار جرير إلى قرطبة وأقام محاصراً لها مدة ينتهز اللحظة المناسبة للهجوم عليها حتى سنحت تلك الفرصة عند هبوب رياح شديدة عاصفة تبعها الرعد والبرق والأمطار الغزيرة، فتمكن الأمير جرير في تلك الظروف من التسلل داخل المدينة حتى وصل إلى قصر الإمارة بدون مقاومة واستولى عليها وقتل الظافر سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م^(٧٦).

ومن الأخطار الجسيمة التي ألحقتها العواصف بالمعسكرات الحربية المحاصرة للمدن والحصون هو إيقاع الاضطرابات في صفوف الجيش نتيجة ما أحدثته من اقتلاع الأخبية، مما أجبر القائد من اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهتها والتخفيف من آثارها، كما حدث حين حاصر جيش الموحيين مدينة وبذة^(٧٧) في حربهم ضد القشتاليين إلا إنهم تعرضوا في أثناء حصار المدينة إلى ریح صيفية عاصفة تسببت في وقوع الاضطرابات في صفوف معسكر الموحيين حتى اقتلعت الأخبية وفاضت الغدور، واضطر الجند من الانشغال عن الحصار في الاحتراز واتخاذ التدابير اللازمة للوقاية من تلك العواصف في يوم ٢٠ ذي القعدة سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م^(٧٨).

وفي اليوم التالي، تعرض جيش الموحيين لعاصفة أخرى أشد من سابقتها ألحقت بالجيش خسائر فادحة حتى اقتلعت خيام الموحيين ومزقتها وازداد الأمر سوءاً حين عقبها وابل من الأمطار والرعد والبرق، فكان على الجانب الآخر فرصة للقشتاليين من الارتواء

من ماء الأمطار لتخفيف وطأة الحصار، وعندما عاود الموحدون في يوم ٢٢ ذي القعدة الهجوم على القشتاليين، ازداد الأمر سوءاً؛ نتيجة هبوب عاصفة شديدة حتى أظلمت السماء تخللها الرعد والبرق وتبعها سيل غزير أضرت بجيش الموحديين وعجزوا عن مواصلة القتال، واضطر الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى التراجع إدراجه خاصة عن اكتساح السيول، وكان لهذه العواصف والأهوال الجسام الدافع الأقوى لانسحاب جيش الموحديين وتوقف حصار المدينة، وذلك في غزوة وبذة سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م^(٧٩).

الخاتمة :

بعدما تقدم من عرض لموضوع " أثر العواصف على نتائج المعارك بدول حوض البحر المتوسط الإسلامية منذ القرن الأول وحتى القرن السابع الهجري"، فإن من المفيد والمتمم لذلك أن نذكر أبرز النتائج وهي:

- ١- أن العواصف كانت تحول دون الإغارة على سواحل دول البحر المتوسط الإسلامية، بل تتسبب في تدمير الأساطيل المعادية وقذفها بعيداً عن السواحل مما يؤدي إلى عرقلة تحقيق الأهداف التي خرجت من أجله تلك الأساطيل من الإغارة على سواحل البحر المتوسط وتكون كدرع حماية طبيعي لدول حوض البحر المتوسط الإسلامية.
- ٢- وسببت تلك العواصف عرقلة ومنع الإمدادات العسكرية للوصول إلى السواحل خاصة في المعارك البحرية مما يؤدي إلى تأخير خروج الأساطيل لحين تحسن الجو لمساعدة المدن الساحلية المنكوبة بالإغارة على سواحلها.
- ٣- وبينت الدراسة أن العواصف كانت أخطر من مواجهة الأعداء لقدرتها على إلحاق الهزيمة بالجيوش في المعارك البرية نتيجة لما تثيره من الأتربة الكثيفة التي تحجب الرؤية وتتسبب في انهزام الجنود نتيجة انتشار الفوضى في الصفوف وانعدام الرؤية.
- ٤- وظهر من خلال الدراسة أن العواصف من أشد العوامل قسوة، وأدت إلى استسلام المدن والحصون ولاسيما في حالات الحصار، حيث كانت العواصف تجبر المحاصرين المدافعين عن المدن إلى الاستسلام وطلب الأمان لعجزهم عن الدفاع وخاصة حين تزداد شدة تلك العواصف نتيجة ما يلحقها من هبوط الأمطار وغيرها.

٥- ومثلت العواصف أحد المعوقات التي قضت على جهود القادة في إعداد الأساطيل البحرية لما تحدثه من الدمار الشامل بالمراكب والسفن العسكرية أثناء استعداداتها للإقلاع مما يؤدي إلى إلحاق الهزيمة بالأسطول قبل إقلاعه.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر العربية:

- ابن الأثير: (ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري:
 - ١- الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط.١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
 - الأنطاكي: (ت: ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي:
 - ٢- تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتبخاء، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس (لبنان)، ١٩٩٠م.
 - ابن أبيك: (ت: ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) أبي بكر بن عبدالله بن أبيك الدواداري:
 - ٣- كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: د. سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م.
 - البكري: (ت: ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري الأندلسي:
 - ٤- المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م.
 - ابن الجزري: (ت: ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م) شمس الدين أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري القرشي:
 - ٥- تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزري)، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط.١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م.
 - ابن الجوزي: (ت: ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي:

- ٦- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- **الجوهري:** (ت: ٣٩٣هـ/١٠٠٣م) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي:
- ٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط.٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.
- **الحميري:** (ت: ٩٠٠هـ/١٤٩٥م) أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد المنعم الحميري:
- ٨- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط.٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٩- صفة جزيرة الأندلس، تحقيق: إ. لافي برفنصال، ط.٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
- **ابن خلدون:** (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد الحضرمي الإشبيلي:
- ١٠- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط.٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.
- **ابن خلكان:** (ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م) شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان:
- ١١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس دار صادر، بيروت، ج١، ١٩٩٤م.
- **الذهبي:** (ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي:
- ١٢- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط.٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣م.
- ١٣- سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- **الزركلي:** (ت: ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي:

- ١٤ - الأعلام، ط. ١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢ م.
- السيوطي: (ت: ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي:
- ١٥ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧ م.
- أبو شامة: (ت: ٦٦٥ هـ / ١٢٤٨ م) أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي دمشقي:
- ١٦ - عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. ١، ١٩٩٧ م.
- ابن شاهين: (ت: ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م) غرس الدين خليل، ابن شاهين:
- ١٧ - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: خليل المنصور، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م.
- ابن شداد: (ت: ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلّي، بهاء الدين ابن شداد:
- ١٨ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط. ٢، مكتبة الخارجي، القاهرة، ١٩٩٤ م.
- الصفدي: (ت: ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله صلاح الدين الصفدي:
- ١٩ - الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠ م.
- الطبري: (ت: ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) أبو جعفر محمد بن يزيد بن كثير بن غالب الأملّي الطبري:
- ٢٠ - تاريخ الرسل والملوك، ط. ٢، دار التراث، بيروت، ١٩٦٧ م.
- ابن عبدالحق: (ت: ٧٣٩ هـ / ١٣٣٩ م) عبد المؤمن بن عبدالحق ابن شمائل القطيعي البغدادي:
- ٢١ - مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط. ١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١ م.

- ابن عبد الحكم: (ت: ٢٥٧هـ/٨٧١م) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري:
٢٢ - فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- العصفري: (ت: ٢٤٠هـ/٨٥٤م) أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري:
٢٣ - طبقات خليفة بن خياط، تحقيق: د.سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م.
- العليمي: (ت: ٩٢٨هـ/١٥٢٢م) أبو اليمين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، مجير الدين:
٢٤ - التاريخ المعترف في أنباء من غبر، تحقيق: نور الدين طالب، ط.١، دار النوادر، سوريا، ٢٠١١.
- العيني: (ت: ٨٥٥هـ/١٤٥١م) بدر الدين محمود العيني:
٢٥ - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠.
- القزويني: (ت: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) زكريا بن محمد بن محمود القزويني:
٢٦ - آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت.).
- القلقشندي: (ت: ٨٢٠هـ/١٤١٧م) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي:
٢٧ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.).
- ابن كثير: (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي:
٢٨ - البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط.١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م.
- أبو المحاسن: (ت: ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي:
٢٩ - مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد،

- دار الكتب المصرية، القاهرة (د.ت).
- ابن المظفر: (ت: ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه، الأيوبي، أبو المعالي، ناصر الدين، المنصور ابن المظفر:
 - ٣٠ - مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، د.ت.
 - المقرئزي: (ت: ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئزي:
 - ٣١ - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
 - ٣٢ - اتعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخفاء، ج١، تحقيق: د.جمال الدين الشيال، ط.١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، (د.ت).
 - النويري: (ت: ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م) أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري:
 - ٣٣ - نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثامن والعشرون، ط.١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
 - عبدالواحد المراكشي (ت: ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م) محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي:
 - ٣٤ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: صلاح الدين الهواري، ط.١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م.
 - ابن واصل: (ت: ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) محمد بن سالم بن نصرالله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين:
 - ٣٥ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١، ٢، ٣، تحقيق: جمال الدين الشيال؛ ج ٤، ٥ تحقيق: حسنين محمد ربيع - سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م.
 - ابن الوردي: (ت: ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي:

- ٣٦- تاريخ ابن الوردي، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦ م.
- اليافعي: (ت: ٧٦٨هـ/ ٣٦٨م) أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي:
- ٣٧- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧ م.
- ياقوت الحموي: (ت: ٦٢٦هـ/ ٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي:
- ٣٨- معجم البلدان، ط. ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥ م.
- اليعقوبي: (ت: بعد ٢٩٢هـ/ بعد ٩٠٥م) أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي:
- ٣٩- البلدان، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١ م.
- ثانياً: المراجع العربية:-
- أحمد مختار العبادي:
- ١- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦ م.
- سعدون عباس نصر الله:
- ٢- رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥ م.
- محمد عبدالله عنان:
- ٣- دولة الإسلام في الأندلس، (ج ١) ط. ٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧ م (ج ٤) ط. ٢، ١٩٩٠.
- ثالثاً: المراجع العربية (المترجمة):
- دوزي:
- ١- رينهارت بيتر آن دوزي، (ت: ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)، تكملة المعاجم العربية (مترجم)، ترجمة وتعليق: ج ١-٨ محمد سليم الغنيمي؛ ج ٩-١٠ جمال الخياط، ط. ١، وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ٢٠٠٠ م.

- **وليم الصوري:**
- ٢- الحروب الصليبية، ترجمة وتحقيق: حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.
- رابعاً: الدوريات العربية:
- **عبدالله عبدالعزيز التقاز:**
- ١- البحرية الإسلامية في عهد الخليفة الناصر ودعم نفوذ الدولة الأموية بالأندلس، فكر وإبداع، القاهرة، ع ٨١، ديسمبر ٢٠١٣ م.
- **خزعل ياسين مصطفى:**
- ٢- الكوارث والظواهر الطبيعية بالأندلس وآثارها على المجتمع في عصري الإمارة والخلافة (١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٥-١٠٣٠م)، جامعة الموصل، كلية الآداب، ع ٥٤، ٢٠٠٩.
- **عبدالرازق الطنطاوى:**
- ٣- مع الأساطيل الإسلامية في قبرص، مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط، جامعة الأزهر، ع ٤، مايو ١٩٨٤ م.
- **عبدالعظيم رمضان:**
- ٤- تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور، ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة مع كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ٢٢-٢٣ أبريل ١٩٨٨ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١ م.
- **محمد ضيف بطانية:**
- ٥- الأسطول الإسلامى: نشأته وتطوره، الدارة، السعودية، ديسمبر ٢٠١٣.
- خامساً: الرسائل الجامعية:
- **نافذ محمد عبد ربه:**
- ١- الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكى (٦٤٨-٩٢٢/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، كلية الدراسات العليا، ٢٠١٢ م.
- **نصر الدين عبدالحفيظ محمد على:**

٢- البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس من القرن الأول الهجرى إلى القرن الرابع الهجرى، رسالة ماجستير، جامعة النيلين، كلية الآداب، الخرطوم، ٢٠١٨.
سادساً: المراجع الاجنبية:

1- **Setton (k.M.):** A history of the crusades Volume (1) (the first hundred years), Edited by Marshall w. Baldwin the university of Wisconsin press madison, London, 1969.

الهوامش

- (١) هو الإمبراطور قسطنطين الثالث ابن هرقل تولى الإمبراطورية خلفاً لوالده ولم يحكم سوى بعض شهور.. مات سنة ٦٥٦م.. انظر ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط. ٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٢، ص ٢٦٩.
- (٢) جزيرة صقلية: "جزيرة عظيمة من جزائر أهل المغرب مقابلة لإفريقية، وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية والأخرى مسيرة سبعة أيام، وهي حصينة كثيرة البلدان والقرى، كثيرة المواشي جداً من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والحيوانات الوحشية، وبها معدن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، ومعدن الزئبق، وكانت قليلة العمارة خاملة الذكر إلى أن فتح المسلمون بلاد إفريقية، فهرب أهل إفريقية إليها وعمروها حتى فتحت في أيام بني الأغلب في ولاية المأمون.. البكري: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج ١، ص ٤٨٢-٤٨٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط. ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج ٣، ص ٤١٦-٤١٨؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ٢١٦؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط. ٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣٦٦.
- (٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٢١٩؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ط. ٢، دار التراث، بيروت، ١٩٦٧م، ج ٤، ص ٤٤١؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٥، ص ٧٢؛ ابن الاثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تمري، ط. ١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٥٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط. ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٧، ص ٢٥٦؛ الحميري: الروض المعطار، ج ١، ص ٣٦٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج ١، ص ١٦٢.
- (٤) " هو الوزير عيسى بن نسطورس تولى الوزارة للخليفة العزيز بامر الله وتسلم سائر الدواوين، ونظر في جميعها وأمر ونهى، وخاطب سائر الكتاب عن العزيز، وخاطبه سائر الأولياء وكافة الناس في مهماتهم وتوقيعاتهم..." المقرئ: اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: د. جمال الدين الشيبان، ط. ١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، (د.ت)، ج ١، ص ٢٨٣.
- (٥) " هو أمير دمشق بنجوتكين التركي العزيزي مولى العزيز ولي إمرة دمشق سنة ٣٨١هـ وتوفي سنة ٣٨٧هـ وبقي على ذلك مدة إلى أن عزله الحاكم وأرسل عوضه سُلَيْمَان بن جَعْفَر بن فلاح..." الصفي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ٢٩، ص ٢٩.

(٦) طرسوس: "مدينة بين انطاكية وحلب.... عليها سوران بينهما فصيل وخنق، ويجري الماء حولها، وفي سنة سبعين ومائة بني سور طرسوس على يد أبي مُسلم فرج الخصي التركي، وجّهه موله هارون الرشيد لذلك، وأنزلها الناس عام ولي الخلافة، في جيش كثيف وعسكر ضخم إلى الثغور، وأمره أن يبني مدينة طرسوس في المرج الذي في سفح الجبل، ولم يكن هناك بناء قط، وأن يجعل النهر يشق وسطها، فابتدأ بناؤها في جمادى سنة سبعين ومائة...." (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٨؛ القزويني: المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٩؛ ابن عبدالحق: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط. ١، دار الجبل، بيروت، ١٩٩١م، ج ٢، ص ٨٨٢؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣٨٨).

(٧) الخليفة العزيز بالله (٣٤٤-٣٨٦هـ/٩٥٥-٩٩٦م): "هو نزار العزيز بالله بن معد المعز لدين الله بن منصور العبيدي الفاطمي أبو منصور: صاحب مصر والمغرب ولد في المهديّة ويبيع بعد وفاة أبيه (سنة ٣٦٥هـ) وكانت في أيامه فتن وقلقل وكان كريم الأخلاق حليماً يكره سفك الدماء..... وهو الذي اختط أساس الجامع فيها، مما يلي باب الفتوح، وبدأ بعمارتها (سنة ٣٨٠) وخطب له بمكة وطالت منته، إلى أن خرج يريد غزو الروم، فلما كان في مدينة بلبس أدركته الوفاة...." (ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م، ج ٥، ص ٣٧١-٣٧٢؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ج ١١، ص ٤٣١؛ ابو المحاسن: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة (د.ت)، ج ١، ص ٣٧٢؛ الزركلي: الأعلام، ط. ١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ٨، ص ١٥-١٦).

(٨) الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي المعروف بصلّة تاريخ أوتياخاء، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس (لبنان)، ١٩٩٠م، ص ٢٣٥.

(٩) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة وتحقيق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ج ٤، ص ١١٨.

(١٠) صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ/١١٣٧-١١٩٣م) "أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب بن شاذي، من أشهر ملوك الإسلام، ولد بتكريت وأبوه واليهما سنة اثنتين وثلاثين وخمسة مائة وأقام في الملك أربعاً وعشرين سنة، وتوفي بقلعة دمشق سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م.. انظر ترجمته في الصفي: المصدر السابق، ج ٢٩، ص ٤٨-٤٩؛ المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج ١، ص ١٤٨-١٤٩؛ الزركلي: المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٢٠.

- (١١) دمياط: " مدينة قديمة بين تنيس ومصر وهي من ثغور الإسلام" القزويني: المصدر السابق، ص ١٩٣؛ وهي على ساحل البحر وإليها ينتهي ماء النيل، ثم يفترق من دمياط فيخرج بعضه إلى بحيرة تنيس" انظر اليعقوبي: البلدان، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ١٧٦.
- (١٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط. ٢، مكتبة الخارجي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٨١-٨٢؛ عبدالعظيم رمضان: تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور، ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة مع كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ٢٢-٢٣ ابريل ١٩٨٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٩٨.
- (١٣) أبي شامة: أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزبيق، ط. ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ١٣٩؛ عبدالعظيم رمضان: المرجع السابق، ص ١٩٩.
- (١٤) وليم الصوري: المرجع السابق، ج ٤، ص ١٢٠.
- (4)Setton : A history of the crusades E, Edited by Marshall w. Baldwin the university of Wisconsin press madison, London, 1969, v.1, p. 557.**
- (١٦) أبي شامة: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٩-١٤٠؛ عبدالعظيم رمضان: المرجع السابق، ص ١٩٩.
- (١٧) وليم الصوري: المرجع السابق، ج ٤، ص ١٢٧.
- (١٨) البطسة: " سفينة بحرية كبيرة يصل شراعها إلى أربعين شراعاً وتحمل المجانيق والمقاتلة والأسلحة والذخيرة والمؤن وتستعمل لخدمة عامة الناس في أيام السلم..." محمد ضيف بطانية: الأسطول الإسلامي: نشأته وتطوره، الدارة، السعودية، ديسمبر ٢٠١٣، ص ٢٦.
- (١٩) "مدينة على البحر الشمالي، أما مملكة بوليه ويقال لها أنبولية وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادق من غربيه" انظر القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج ٣، ص ٢٤٥؛ الحميري: المصدر السابق، ص ١١٦.
- (٢٠) ابن المظفر: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، د.ت، ص ٦٧؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ج ٢، ص ١١٤.
- (٢١) عكا: "مدينة كبيرة، من ثغور الشام واسعة بينها وبين طبرية يومان.." الحميري: الروض المعطار، ص ٤١٠.
- (٢٢) " قرية بين يافا وحيفا.." انظر دوزي: تكملة المعاجم العربية (مترجم)، ترجمة: محمد سليم الغنيمي، ط. ١، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٠٠م، ج ٥، ص ٣٩٣.

- (٢٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ١٦٧؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ط.١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج٢٨، ص ٤٢٩.
- (٢٤) الميزة: "الطعام يمتاره الإنسان.." الجوهرى: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط.٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م، ج٢، ص ٨٢١.
- (٢٥) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط.١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ج١٢، ص ٤١٥.
- (٢٦) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٢-٢٣٣.
- (٢٧) يقال له " كند بنياط" انظر أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٥.
- (٢٨) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢١؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ١٥٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٣٠؛ النويري: المصدر السابق، ج٢٨، ص ٤٢٥.
- (٢٩) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٣٣-٢٣٢؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤٥؛ ابن الوردي: تاريخه، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ج٢، ص ١٠٠.
- (٣٠) قبرس: " جزيرة على البحر المتوسط كبيرة القطر مقدارها عشر يوماً، وبها قرى ومزارع وجبال وأشجار وزروع ومواش، وبها معدن الزاج المنسوب إليها، ويتجهز به منها الى سائر الأقطار وبها ثلاث مدن..." (انظر البكري: المصدر السابق، ج١، ص ٤٨١؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٤، ص ٣٠٥؛ ابن عبد الحق: المصدر السابق، ج٣، ص ١٠٦؛ الحميري: الروض المعطار، ج١، ص ٤٥٣).
- (٣١) أبو شامة: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٤٤؛ عبدالرازق الطنطاوى: مع الأساطيل الإسلامية في قبرص، مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط، جامعة الأزهر، ع ٤، مايو ١٩٨٤م، ص ٢٢٩.
- (٣٢) الملك العادل (٥٤٠- ٦١٥هـ/ ١١٤٥- ١٢١٨م): " هو الملك العادل محمد بن أيوب بن شادي، أبو بكر سيف الإسلام ، أخو السلطان صلاح الدين: من كبار سلاطين الدولة الأيوبية، كان نائب السلطنة بمصر عن أخيه صلاح الدين أثناء غيابه في الشام. ثم ولاه أخوه مدينة حلب سنة ٥٧٩هـ فرحل إليها وأقام قليلاً، وانتقل إلى (الكرك) وتقل في الولايات إلى أن استقل بملك الديار المصرية (سنة ٥٩٦) وضم إليها الديار الشامية.." انظر ترجمته في الزركلى: المصدر السابق، ج٦، ص ٧٤.
- (٣٣) شينى وشينية، وجمعها شوان وشواني: سفينة شراعية حربية.." نوزي: المرجع السابق، ج٦، ص ٣٩٩؛ محمد ضيف بطانية: المرجع السابق، ص ٢٦.
- (٣٤) طرابلس: " مدينة مشهورة على ساحل الشام بين اللاذقية وعكا، وزعم بعضهم أنها بغير همز ... " ياقوت: المصدر السابق، ج١، ص ٢١٦؛ "وهي تختلف عن طرابلس الغرب" ابن عبدالحق: المصدر السابق، ج١، ص ٩١.

- (٣٥) ابن أبيك: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: د. سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ج٧، ص ١٥٩.
- (٣٦) الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣م، ج٤٩، ص ٥٩؛ النويري: المصدر السابق، ج٣٠، ص ١٧٨؛ وذكر ابن كثير أن الحملة كانت مكونة من اثني عشر شينياً وتحطم من الحملة أربعة عشر مركباً، انظر ابن كثير: المصدر السابق، ج١٣، ص ٣٠١؛ المقرئ: المصدر السابق، ج٢، ص ٧١؛ أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٢٩.
- (٣٧) سيس: "سياسة وعامة أهلها يقولون سيس: بلد أعظم مدن الثغور الإسلامية بين أنطاكية وطرسوس على عين ذرية وبها مسكن ابن ليون سلطان تلك الناحية الأرمن" انظر ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٩٧-٢٩٨؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٤٥.
- (٣٨) النويري: المصدر السابق، ج٣٠، ص ٣٢٢؛ المقرئ: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٤؛ نافذ محمد عبد ربه: الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٢/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، كلية الدراسات العليا، ٢٠١٢م، ص ١٠٥.
- (٣٩) بيروت: "مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تعدّ من أعمال دمشق، بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ.. ياقوت: المصدر السابق، ج١، ص ٥٢٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص ١٢٢.
- (٤٠) صور: "كانت من ثغور المسلمين، وهي مشرفة على بحر الشام داخلية في البحر مثل الكف على الساحل يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها، وهي حصينة جداً.. ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٣٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣٦٩.
- (٤١) النويري: المصدر السابق، ج٣١، ص ٣٢٢؛ المقرئ: المصدر السابق، ج٢، ص ١٧٤؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م، ج٢، ص ٣٠٢؛ سعدون عباس نصر الله: رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١٢٧.
- (٤٢) بطنسة: "ضرب من السفن" دوزي: المرجع السابق، ج١، ص ٣٧٠.
- (٤٣) النويري: المصدر السابق، ج٣١، ص ٣٧٦؛ ابن الجزري: تاريخ ابن الجزري، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م، ج١، ص ٤٤٠-٤٤١؛ نافذ محمد عبد ربه: المرجع السابق، ص ١٠٥.
- (٤٤) المقرئ: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٦٣.

- (٤٥) قلعة كوكب: " اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتحه من البلاد ثم خربت بعد.. " ياقوت: المصدر السابق، ج٤، ص ٤٩٤.
- (٤٦) ابن واصل: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٧٣؛ اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ط. ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٣، ص ٣٤٦؛ العلمي: التاريخ المعتبر في أنباء من غير، تحقيق: نور الدين طالب، ط. ١، دار النوادر، سوريا، ٢٠١١، ج٢، ص ٩٦.
- (٤٧) النويري: المصدر السابق، ج٣١، ص ١٩٨؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج٥، ص ٤٦٣-٤٦٤؛ نافذ محمد عبد ربه: المرجع السابق، ص ١٠١.
- (٤٨) حَسَّان بن النُّعْمَان(ت: بعد ٨٦هـ/ بعد ٧٠٥م): " هو الأمير حسان بن النعمان بن عديّ الأزدي الغساني، من أولاد ملوك ولي إفريقية في زمن معاوية بن أبي سفيان، ثم كان عاملاً على مصر في أيام عبد الملك بن مروان. واضطربت إفريقية بعد مقتل زهير البلوي سنة ٧٦هـ فأمره عبد الملك بالتوجه إليها.. وبعد أن عمّ الإسلام إفريقية، أقام بالقيروان وتوفي بعد سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م". الزركلي: المصدر السابق، ج٢، ص ١٧٦-١٧٧.
- (٤٩) تونس: " مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم، عمّرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنة، وكان اسم تونس في القديم ترشيش... " ياقوت: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٠.
- (٥٠) نصر الدين عبدالحفيظ محمد علي: البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة النيلين، كلية الآداب، الخرطوم، ٢٠١٨، ص ٢٨.
- (٥١) عُبَيْدَةُ السُّلَمِي(ت: بعد ١١٤هـ/ بعد ٧٣٢م): " عبيدة ابن عبد الرحمن بن أبي الأغر السلمي من بني ثعلبة بن بهثة بن سليم والي إفريقية والأندلس. وهو ابن أخي " أبي الأعور السلمي " صاحب خيل معاوية بصفين، ولاء هشام بن عبد الملك على المغرب، بعد وفاة بشر بن صفوان، فدخل القيروان سنة ١١٠هـ ونظر في أمر المغرب والأندلس معاً، واستمر أربع سنين وستة أشهر.... " الزركلي: المصدر السابق، ج٤، ص ١٩٨-١٩٩.
- (٥٢) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص ٢٤٤.
- (٥٣) العصفري: طبقات خليفة بن خياط، تحقيق: د.سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٣٤١؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج٤، ص ٢١٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٧، ص ٣٠٣.

- (٥٤) المُعزُّ بن باديس (٣٩٨ - ٤٥٤ هـ / ١٠٠٨ - ١٠٦٢ م) هو الأمير المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية، ولد بالمنصورية (من أعمال إفريقية) وولي بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦ هـ وأقره الحاكم الفاطمي (صاحب مصر والمغرب) ولقبه بشرف الدولة، وكانت خطبته للفاطميين، فقطعها سنة ٤٤٠ هـ وجعلها للعباسيين... وتوفى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م الزركلي: المصدر السابق، ج٧، ص ٢٦٩-٢٧٠.
- (٥٥) قَلْوَرِيَّةُ: وهي جزيرة في شرقي صقلية وأهلها أفرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة" ياقوت: المصدر السابق، ج٤، ص ٣٩٢؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٤٧٠.
- (٥٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٧، ص ٦٨٩-٦٩٠.
- (٥٧) المهديّة: "مدينة بإفريقية بقرب القيروان، اختطها المهدي المتغلب على تلك البلاد في سنة ٣٠٠ هـ، قيل: إنه كان يرتاد موضعاً يبني فيه مدينة حصينة، خوفاً من خارجي يخرج عليه، حتى ظفر بهذا الموضع.. (البكري: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٨١؛ ياقوت: المصدر السابق، ج٥، ص ٢٢٩؛ القزويني: المصدر السابق، ص ٢٧٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٥٦١).
- (٥٨) ابن باديس الصنُّهاجي (٥٠٣-٥٦٣ هـ/١١٠٩-١١٦٨ م): "هو الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس الصنهاجي، آخر ملوك الدولة الصنهاجية في إفريقية الشمالية، ولد بالمهديّة وولي بعد وفاة أبيه سنة ٥١٥ هـ وعمره اثنا عشر عاماً، فقام بأمره أعيان الدولة، فاضطربت، وهاجمه روجار (Roger II) ملك صقلية، فأخرجه من المهديّة سنة ٥٤٣ هـ... توفى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٨ م.. انظر ترجمته في الصفي: المصدر السابق، ج١٢، ص ٧٤-٧٥؛ الزركلي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠٢-٢٠٣.
- (٥٩) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٩، ص ١٥٥-١٥٦؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ج٢، ص ٤٦.
- (٦٠) شلندي: "مركب حربي كبير مسطح، كان مخصصاً لنقل المقاتلة والسلاح" دوزي: المرجع السابق، ج٦، ص ٣٤٩؛ محمد ضيف بطانية: المرجع السابق، ص ٢٦.
- (٦١) طريدة: "وهي مخصصة لحمل الخيل وتنتسح لأربعين فارساً، وهي تفتح من الخلف، كما إنها تحمل المقاتلين والذخائر والمؤن وتستعمل لخدمة عامة الناس في أيام السلم... عبدالله عبدالعزيز النقا: البحرية الإسلامية في عهد الخليفة الناصر ودعم تفوذ الدولة الأموية بالأندلس، فكر وإبداع، القاهرة، ديسمبر ٢٠١٣ م، ج٨١، ص ٣١٤.
- (٦٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٩، ص ٢٥٧.
- (٦٣) المُظفَّرُ العامري(ت: ٣٩٩ هـ/١٠٠٨ م): "عبد الملك (المظفر) بن محمد (المنصور) بن عبد الله بن أبي عامر المعافري، أبو مروان ثاني أمراء الأندلس من الأسرة العامرية. كان في أيام أبيه (المنصور) ينوب عنه في الحجابة للمؤيد الأموي (هشام بن الحكم) بقرطبة فخلع عليه بولاية الحجابة مكان أبيه

- سنة ٣٩٢ هـ فقام بأمر الدولة كبيرها وصغيرها، وأسقط عن البلاد سدس الجباية، وتلقب بسيف الدولة " الملك المظفر بالله" الزركلي: المصدر السابق، ج٤، ص ١٦٤.
- (٦٤) خزعل ياسين مصطفى: الكوارث والظواهر الطبيعية بالأندلس وآثارها على المجتمع في عصري الإمارة والخلافة (١٣٨-٤٢٢ هـ/٧٥٥-١٠٣٠ م)، جامعة الموصل، كلية الآداب، ع٥٤٤، ٢٠٠٩، ص ٣١٥.
- (٦٥) المرية: " بالأندلس مدينة محدثة، أمر بنائها أمير المؤمنين، الناصر لدين الله عبد الرحمن ابن محمد سنة ٣٤٤" الحميري: صفة جزيرة الأندلس، تحقيق: إ. لافي برفنصال، ط. ٢، دار الجبل، بيروت، ١٩٨٨ م، ص ١٨٣.
- (٦٦) جبل القلال: " قريب من مدينة رومية في المغرب، وهو جبل يقال إنه لم يستطع أحد الوصول إلى قمته لشدة ارتفاعه، وفيه الصيد والخشب والحطب.. مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ترجمة: السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، ص ٣٩.
- (٦٧) خليل إبراهيم السامرائي & عبدالواحد ذنون & ناطق صالح مصلوب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط. ١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٤١١.
- (٦٨) الحسن الإدريسي (ت: ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م): " هو الأمير الحسن بن القاسم كنون الإدريسي، آخر أمراء الدولة الإدريسية الثانية في الريف المغربي وبعض أطراف فاس، ولي بعد أخيه (أحمد) سنة ٣٤٨ هـ وكان يدعو للناصر الأموي (ال خليفة بالأندلس) فوجه إليه المعز الفاطمي (صاحب مصر) جيشاً، فجعل الدعوة للفاطميين سنة ٣٤٩ هـ ثم خاف انتقام المروانيين منه، فخلع بيعة الفاطميين، وأعاد الدولة لهم فزحف عليه بلكين بن زيري من إفريقية (وكان من أشياع الفاطميين)، فخضع له الحسن، ولما عاد بلكين إلى إفريقية وجه الحكم المستنصر (صاحب الأندلس) جيشاً لقتال الحسن، فقاتله الحسن وقتل قائده، فغضب المستنصر وجرّد جيشاً آخر لإخضاعه، فاستسلم الحسن بعد وقائع ... توفي سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م.. " انظر ترجمته في الزركلي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠٩-٢١٠.
- (٦٩) المستنصر الأموي (٣٠٢-٣٦٦ هـ/٩١٤-٩٧٦ م): " هو الخليفة الأموي الأندلسي الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله ولد بقرطبة وولي الخلافة بعد أبيه سنة ٣٥٠ هـ فقوي وكثرت فتوحاته وخطب بدعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة... " انظر ترجمته الصفدي: المصدر السابق، ج١٣، ص ٧٤-٧٥؛ الزركلي: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٦٧.
- (٧٠) خليل إبراهيم السامرائي: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ٤١٣.
- (٧١) مجاهد العامري (ت: ٤٣٦ هـ/١٠٤٤ م) مجاهد بن يوسف (أو عبد الله) بن علي العامري، بالولاء، أبو الجيش: مؤسس الدولة العامرية في دانية Denia وميورقة Majorque وأطرافهما، رومي الأصل ولد بقرطبة ورياه المنصور بن أبي عامر مع مواليه، فنسب إليه، ولما كانت فتنة " البربر " خرج مجاهد من قرطبة، وتبعه جمع من موالى ابن أبي عامر، وبعض جيش الأندلس، فدخل بهم

طرطوشة، وانتقل إلى دانية (على ساحل البحر الرومي) فاستقل بها سنة ٤١٢ هـ واستولى على الجزائر القريبة منها، وتلقب بالموفق بالله، وغزا الإفرنج بالأساطيل في جزيرة سردانية، فغلب على كثير منها ودامت له الإمارة إلى أن توفي... انظر ترجمته في الزركلي: المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٧٢) جزيرة في بحر المغرب كبيرة ليس هناك بعد الأندلس وصقلية وأقريطش أكبر منها، وقد غزاها المسلمون وملكوها في سنة ٩٢ هـ في عسكر موسى بن نصير.. ثم صارت في يد الفرنج.. "ياقوت: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣١٤.

(٧٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٢٩، ص ٤٣٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٣١٤؛ خزعل ياسين مصطفى: المرجع السابق، ص ٣٢٩.

(٧٤) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ط.٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ج١، ص ٦١٢.

(٧٥) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ج١، ص ٦١٢.

(٧٦) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٧، ص ٦٣١.

(٧٧) ويذة: "مدينة من أعمال شنت برية بالأندلس" ياقوت: المصدر السابق، ج٥، ص ٣٥٩؛ ابن عبدالحق: المصدر السابق، ج٢، ص ١٤٢٤.

(٧٨) محمد عبدالله عنان المرجع السابق، ج٤، ص ٧٦-٨٠؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: صلاح الدين الهواري، ط.١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ١٨٤-١٨٥.

(٧٩) محمد عبدالله عنان: المرجع السابق، ج٤، ص ٧٦-٨٠.

القرصنة وأثرها في التواصل الحضاري. الفايكنج (النورمان)

أنموذجا (١٧٣-٥٩١هـ/٧٨٩-١١٩٤م).

د. يوسف عبدالحميد بن ناجي

أستاذ مساعد (تاريخ الحضارة العربية الإسلامية)
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي و التدريب -
كلية التربية الأساسية-قسم الدراسات الاجتماعية

الملخص:

تأتي أهمية هذه الدراسة في كون القرصنة إحدى مظاهر العلاقات بين الدول وبعضها البعض، وفي كونها أيضاً إحدى معابر التواصل بين الحضارات، ففي الوقت التي كانت فيه القرصنة قائمة على السرقة والنهب وقطع الطرق البحرية، والأعمال العدائية، ومن أبرز المشكلات التي واجهت البلدان، وكانت سبباً في قيام الحروب بينها، وقيام بعض الدول، وسقوط أخرى، كانت أيضاً معبراً من معابر الحضارات بين نفس الدول، لذا تأتي أهمية هذا الموضوع في التعرف على كافة جوانبه كأحد الموضوعات الهامة التي لم تلق اهتماماً من الباحثين على حد علمي.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على جمع المعلومات وتحليلها، ثم استخلاص النتائج.

أهداف الدراسة:

- التعرف على مفهوم القرصنة ونشأتها وتطور مفهومها، والدوافع المختلفة لها.
- إبراز أثر القرصنة في التواصل الحضاري بين الدول.

خطة الدراسة:

- سوف أتناول هذا البحث من خلال الآتي:
- التعرف على مفهوم القرصنة ونشأتها وتطور مفهومها.

- الفايكنج (النورمان) أنموذجًا للقرصنة والتواصل الحضاري.
- أولاً: نبذة تاريخية مختصرة عن الفايكنج (النورمان) من حيث الآتي:
 - أصلهم، موطنهم، الأسباب التي دفعتهم إلى الخروج من بلادهم.
 - الأدوار التي مرت بها علاقة الفايكنج بأوروبا.
- ثانياً: الفايكنج وغاراتهم على أوروبا (فرنسا، إنجلترا، أيرلندا، الأندلس، صقلية).
 - التواصل الحضاري للفايكنج (النورمان).
 - ١- مع أوروبا المسيحية.
 - ٢- مع المسلمين في الأندلس وصقلية.
 - نتائج البحث.

Research summary

1-Study Title

Piracy and its impact on civilizational communication during the Middle Ages. Vikings (Normans) as a model

2-Study problem

The importance of this study lies in the fact that piracy is one of the manifestations of relations between states and each other. Also one of the crossing points of communication between civilizations, at a time when piracy was based on theft, looting, cutting off sea routes and hostilities. It was the most prominent problems that faced countries, which was caused of the outbreak of wars between them, and the rise of some countries, and the fall of others, was a crossing point of civilizations between the countries themselves. The importance of this topic comes to identify all its aspects as one of the important topics that did not receive attention from researchers to the best of my knowledge. .

3-Study Approach:

The study relied on the analytical inductive approach based on collecting and analyzing information, and then drawing conclusions.

4-Objectives of the study:

Learn about the concept of piracy, its origins, the evolution of its concept, and the different motives behind it.

Highlighting the impact of piracy on cultural communication between countries.

Study plan:- 5-

I will address this research through the following:

Learn the concept of piracy, its origins and the evolution of its concept.

● Vikings (Normans) as a model for piracy and civilized communication.

First: A brief history of the Vikings (Normans) in terms of the following:

• Their origin, their homeland, the reasons that led them to leave their country.

• Roles in the relationship of the Vikings to Europe.

Second: The Vikings and their raids on Europe (France, England, Ireland, Andalusia, Sicily).

▪ Civilizational Communication of the Vikings (Normans).

▪ Christian Europe

▪ the Muslims in Andalusia and Sicily

- التعرف على مفهوم القرصنة ونشأتها وتطور مفهومها.

أولاً: مفهوم القرصنة.

القرصنة في اللغة:

القرصان لص البحر، والقرصنة لغة: السطو على سفن البحار^(١).
واصطلاحاً: هي اعتداء مسلح يقوم به طاقم سفينة في أعالي البحار على سفينة أخرى بقصد النهب والسلب^(٢).

يقصد بالقرصنة في هذه الدراسة: قيام مجموعة من البحارة الفاكينج (النورمان) بأعمال العنف غير المشروع الموجه ضد بعض الدول الإسلامية وغير الإسلامية في أوروبا خلال العصور الوسطى، لتحقيق منفعة اقتصادية أو سياسية.

ثانياً: نشأة القرصنة البحرية.

مرت نشأة القرصنة بعده مراحل:

المرحلة الأولى: تشير بعض الوثائق إلى أن استخدام اسم القرصنة لأول مرة كان منذ حوالي (١٤٠) سنة قبل الميلاد^(٣).

وقد تزايدت أعمال القرصنة البحرية، وحدثت غارات متكررة من القرصنة على السفن التجارية اليونانية في القرنين السادس والسابع قبل الميلاد، وأصبحت تدفع فدية مقابل إطلاق سراح بعض التجار اليونانيين، وفي حوالي القرن الثالث قبل الميلاد لجأ بعض حكام المدن الساحلية على البحر الأبيض

(١) إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط: تحقيق المجمع اللغوي - تركيا - المكتبة الإسلامية الطبعة الثانية ٢١٣٩ هـ ج ٢ ص ٧٢٦.

(٢) أحمد عطية الله: القاموس السياسي: دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٨ م ص ٩١٨.

(٣) كرزسيتوف ويلزينسكي: تاريخ القرصنة، الموقع على شبكة الإنترنت: بعنوان

<http://www.Pitatesinf.com/detaif-phparliele-id>

المتوسط إلى التعاون مع القراصنة اتقاءً لشرهم ولتوفير شيء من الحماية لسفنهم وموانئهم، ولم يكن هناك نية جادة للتخلص من القراصنة؛ لأنهم كانوا يمدون الأسواق بالعبيد وتجري التعاملات التجارية بما يغتصبونه من البضائع التي توفر لهم الملاذ، ويمكن أن نعتبر تلك الفترات مرحلة أولى من تاريخ القرصنة البحرية^(١).

المرحلة الثانية:

مع بداية القرن الثاني قبل الميلاد ظهرت مرحلة أخرى وهي مرحلة انتشار هجمات القراصنة بشكل واسع، وظهر لهم نمط وأعراف، وملابس تميزهم عن غيرهم، نتيجة لرضا روما عن هذه الأعمال حيث سمع للقراصنة بالانتشار؛ لأنها تحقق مصالح وأهداف حكومتها في ذلك الوقت وأصبح للقراصنة قوة كبيرة تهدد التجارة في مناطق مختلفة^(٢).

المرحلة الثالثة: بعد الميلاد:

استمرت أعمال القرصنة بعد الميلاد على نحو قريب من أوضاعها قبله من حيث الانتشار في البحر الأبيض المتوسط رغم استمرار الحملات الرومانية التي تعمل على محاربة القراصنة، وفي هذه الفترة وجد أقدم تعريف للقرصنة البحرية من المؤرخ الروماني (بلوتارش) والذي كتب تعريف القرصنة في العام (١٠٠) ميلادي حيث وصف القراصنة "بأنهم أولئك الذين يهاجمون دون وضع قانوني ليس فقط السفن، ولكن أيضاً المدن البحرية"^(٣).

(1) Souza, Philip De, Ancient Rome and the Pirates (2000). P.105.

(٢) ويلزبنسكي: تاريخ القرصنة، الموقع على شبكة الإنترنت: بعنوان:

<http://www.Piratesinf.com/detaif-phparliele-id>

(٣) ويلزبنسكي: نفس المرجع. نقلاً عن بلوتارش

المرحلة الرابعة:

بدأت هذه المرحلة الرابعة حوالي عام (١٧٣هـ/٧٨٩م)، حيث ظهر في شمال أوروبا أشهر القراصنة في هذه الحقبة، وهم ممن يسمون بالفايكنج من شعوب شمال أوروبا دول الدانمارك والسويد والنرويج حاليًا والذين اكتسحوا معظم دول أوربا وأسسوا مدنًا بين عام (١٨٣هـ/٨٠٠م) و (٤٩٣هـ/١١٠٠م)، وقد اشتهروا بالعنف، والقسوة، والنهب، والاعتصاب، وبحلول القرن الحادي عشر أسسوا إمبراطورية في بحر الشمال مكونة من السويد والدانمارك والنرويج^(١).

ثالثًا: تطور مفهوم القرصنة:

تطور مفهوم القرصنة عبر العصور إلى نوعين متميزين: أولهما القرصنة القائمة على السلب والنهب. والثاني: القرصنة التي تعتبر نوعًا من الحروب البحرية سواء أكانت دفاعية أم هجومية وهدفها ضرب اقتصاديات العدو أو الاستيلاء على بعض المدن الساحلية، أو محاولة إقامة دول لهؤلاء القراصنة، وقد شهدت الحروب الصليبية في المشرق النوعين معًا^(٢).

• الفايكنج (النورمان) أنموذجًا للقرصنة والتواصل الحضاري.

أولًا: نبذة تاريخية مختصرة عن الفايكنج (النورمان):

١ - اسم الفايكنج (النورمان) وأصلهم وموطنهم.

(١) كافين رايلي: العنف والانتقام: ترجمة/ عبد الوهاب محمد وآخرون - بحث منشور بمجلة عالم المعرفة - مجلس الثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٤٠٥هـ ص١٨٨-١٩١، سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ١٩٧٦م ص١٧٥ وما بعدها.

(٢) بسام العسلي: سلسلة جهاد شعب الجزائر: دار النفائس - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ج ١ ص ٧٧.

يعرف الفايكنج (النورمان) في بعض المصادر العربية باسم الأردمانيين أو المجوس^(١).

أما في المراجع الأوروبية فيعرفون باسم الفايكنج (vikings) وقد اختلفت الآراء حول أصل كلمة فايكنج (Viking)، وأيضاً المسميات التي أطلقت على هؤلاء الغزاة؛ فأصلها مجهول غير أنه ظهرت اجتهادات من الباحثين حول مصدر الكلمة؛ فهناك من يرى أنها كلمة مشتقة من لفظ (vik) أي الخليج أو

(١) ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: تحقيق/ إحسان عباس - دار العربية للكتاب - ليبيا، تونس الطبعة: الأولى ١٩٨١م ج ٥ ص ١٨١، ابن عذاري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت. نحو ٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال - دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبعة: الثالثة ١٩٨٣م ج ٢ ص ٢٤١، ولا يقصد بهم عبده النار في إيران، فأما التسمية الأولى فواضحة الدلالة فالأردمانيون هم النورمانيين أي أهل الشمال، وقلب النون إلى همزة في أوائل أسماء الأعلام ليس بغريب في لسان أهل الأندلس، فهم يقولون مثلاً أربونة في نربونة، وأما تسميتهم بالمجوس؛ فلم يكن ذلك لأنهم كانوا مجوساً، وإن كان معظمهم في ذلك الحين وثنيين فيهم من يعبد النجوم ومظاهر الطبيعة، ولعل العرب قد أطلقوا عليهم هذه التسمية؛ لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يمرون به، وكانوا إذا نزلوا بمكان وعسكروا فيه أشعلوا ناراً ضخمة في معسكرهم، وإذا فاجئوا بلدًا، أشعلوا النار في مبانيه، ونهبوا ما فيه (ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧هـ): تاريخ افتتاح الأندلس: تحقيق/ إبراهيم الإيباري - دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/١٩٨٩م ص ٧٨، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٧٤، عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي: دار القلم - دمشق - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨١م ص ٢٢٧).

"الفيورد أو ممر بحري، ويراد بذلك عادة أولئك القراصنة الملاحين الذين يُؤوون إلى الخلجان ويستخدمونها كمراكز يشنون منها الغارات على ما يجاورها"^(١). وهناك من يرى أنها اشتقت من الكلمة الأيسلندية القديمة vika وتعني رجال المجداف^(٢).

ويرجع أصل الفاينج إلى العنصر الجرمانى: وهم قوم من البدو الرحل الذين كانوا يعشقون الحرب ويزدادون شغفاً بالصيد ويجوسون خلال الغابات والمستنقعات وهم دائماً على أهبة الرحيل من مكان إلى مكان وليس لهم دخل سوى ما يمكن أن يحصلوا عليه بطريق الحرب والعنف وجرمانيا الموطن الأصلي للعناصر الجرمانية والتي يرجع إليهم النورمان كما وصفها تاكيتوس: كانت منطقة يكتنفها الغابات وتغطيها المستنقعات انعكست وحشتها، وما كان يكتنفها من غموض على طباع سكانها^(٣)، والموطن الأصلي للجرمان: هو المناطق المحيطة بالبحر البلطى (البلطيق)^(٤) لكنهم انتشروا في القرنين الأول والثاني الميلاديين في أواسط أوروبا وشرقها، وأصبحوا أقرب الشعوب المتبريرة إلى حدود الإمبراطورية الرومانية^(٥).

(1) Allen Mawer : The Vikings .cam. med hist . iii p - 306

(٢) عمر عبد المنعم إبراهيم: الفاينج والإمبراطورية الكارولنجية: رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة عين شمس . (٢٠٠٩م) ص ١٠ .

(٣) محمد مرسى الشيخ : الممالك الجرمانية : دار الكتب الجامعية . الإسكندرية . ١٩٧٥م ص ٦، ٧، ٢٥٨. نقلا عن تاكيتوس.

(٤) البحر البلطى، بحر البلطيك، بحر البلطيق: هو بحر في أوروبا الشمالية محاط بالدانمرك والسويد وفنلندا وروسيا وبولندا وألمانيا، ويصب فيه عدد كبير من الأنهار (أينهارد: سيرة شارلمان : ترجمة / عادل زيتون - دار حسان - دمشق - الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م ص ٨٧).

(٥) محمد مرسى الشيخ : الممالك الجرمانية : ص ٦.

أما بالنسبة لموطن الفايكنج (النورمان): فهو شبه الجزيرة الإسكندنافية؛ حيث البيئة القاسية، والظروف المعيشية الفقيرة، وصراع القوى بين الحكام المتنافسين على السلطة، واليوم تضم إسكندنافية كل من: الدانمارك Denmark، والنرويج Norway، والسويد Sweden، كما تضم فنلندا Finland، كما إن الطبيعة الجغرافية للممالك الإسكندنافية كان لها تأثير كبير على اتجاهات حركة الفايكنج (النورمان)، فقد اتجه النرويجيون إلى الغرب، بينما اتجه الدانمركيون صوب الجنوب الغربي، في حين اتجه السويديون ناحية الشرق^(١).

وقد بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوربي الجنوبي مما جعل بعض الكتاب يقول بأن الفايكنج هم الذين استكشفوا أوروبا وليست أوربا هي التي كشفت عن الفايكنج، ولم يختلف الفايكنج عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية في نظمهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم، إلا إن طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات لم تترك لهم مجالاً يعيشون فيه سوى السهول الساحلية، وهكذا دفعت الطبيعة الفايكنج نحو البحر، فبرعوا في بناء السفن الصغيرة المكشوفة التي اتصفت بطولها وقلة عرضها وسارت بالمجداف أو الشراع وجابوا بها شواطئ أوروبا من البحر البلطي حتى البحر المتوسط، بل قاموا برحلات في المحيط الأطلسي حتى أصبحوا أعظم شعوب البحرية التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى، لذلك اتخذت غاراتهم شكلاً بحرياً أقرب إلى القرصنة منه إلى الزحف البري الذي اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية^(٢).

٢- الأسباب التي دفعت الفايكنج للخروج من بلادهم:

يمكن تقسيم الأسباب التي دفعت الفايكنج (النورمان) إلى الخروج من بلادهم والقيام بهذه الحركة التوسعية إلى نفسية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية:

(١) عمر إبراهيم : مرجع سابق : ص ١٥.

(٢) سعيد عاشور: مرجع سابق: ص ١٧٥.

١ - الناحية النفسية:

أثبت التاريخ دائماً أن بعض الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع في البلاد المتحضرة القريبة منها، والرغبة في الإغارة عليها لنهب ثروتها أو على الأقل مشاركتها في حضارتها، وهذا الشعور كان أحد العوامل التي حركت القبائل المتبريرة كالفايكنج نحو أوربا والجرمان نحو أراضي الإمبراطورية الرومانية من قبل^(١).

٢ - الناحية الاقتصادية:

فقد اهتر الفايكنج (النورمان) عندما قام الفرنجة بغزو فريزيا (frisias)^(٢)؛ نظراً لما ترتب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجاري وبالتالي مضايقتهم اقتصادياً^(٣)؛ وذلك لأن الفايكنج أو النورمان كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا. كما إن الفريزيين كانوا يمثلون قوة بحرية، وتجارية عظيمة في شمال أوربا، بل كانوا بمثابة حاجز بين الفايكنج والقارة الأوربية، فلما تحطمت هذه القوة أصبح الطريق ممهداً^(٤) أمام الفايكنج لغزو أوروبا^(٥)، وكان قضاء الفرنجة على قوة الفريزيين الذين مارس الفايكنج معهم بعض التجارة أثره في تعرض تجارة الفايكنج لأضرار جسيمة؛ فأدى هذا بالفايكنج إلى محاولة الحصول على أسواق جديدة وعملاء جدد لاستمرار تجارتهم^(٦).

(١) سعيد عاشور: مرجع سابق: ص ١٧٥.

(٢) فريزيا منطقة تقع في غربي أوستفالية بين نهري أيمز والراين والاسم الحديث لمنطقة فريزيا هو نوترلانديس الواقعة في شمال ألمانيا الاتحادية، ونسب إلى منطقة فريزيا القبائل المعروفة باسم الفريزيين الذين ينتمون إلى الجرمان والمعروف أن هذه القبائل كانت قد شكلت خطراً على الفرنجة وكان رؤساء البلاط الفرنجي قد تصدوا للفريزيين (أينهارد: سيرة شارلمان: ص ١١٤).

(٣) سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى: ص ١٧٥.

(٤) محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوربا في العصور الوسطى: دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٩٠م ص ٢٩٦.

(٥) محمد مرسى الشيخ: الممالك الجرمانية: ص ٢١٦.

(6) Oman : the Dark ages : London 1962 , P . 45 .

٣- الناحية الاجتماعية:

يقال إن أعداد الفايكنج تزايدت في القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطئ إسكنديناوه ودانمارك، مما دفعهم إلى الهجرة والإغارة على البلاد القريبة بغية الحصول على ما يسد رمقهم ويكفي حاجتهم، ويقول بعض الباحثين: "هذا وإن كانت لا توجد في الواقع أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سبباً أساسياً لهجرة الفايكنج في القرن التاسع"^(١).

٤- ومن الناحية السياسية :

حاول المؤرخ هاسكنز Haskins تفسير غزو الفايكنج لأوروبا في ظل مفاهيم العصر، وكذلك المفاهيم الحديثة، فذهب إلى القول بأنه حين ظهرت ملكيات مستقلة وحكومات مركزية اتجهت إلى محاولة جمع الفايكنج على فكرة الولاء لنظم الحكم الجديدة، وربطهم بقوانين وقوالب مستحدثة^(٢) حين بزغت الملكية في النرويج في القرن التاسع، وحينما ظهرت أيضاً هذه الملكيات في كل من السويد والدانمارك في القرن التاسع^(٣).

غير أن طبيعة هذه الشعوب وانطلاقها وحبها للمغامرة لم يترك فرصة للاستجابة لهذه الأمور فاندفع أغلبهم في إغارات متتالية على سواحل أوروبا لإشباع نهمهم للحرب والقرصنة والمغامرة^(٤).

ويقول محمد مرسى الشيخ: " والأرجح ما ذهب إليه هاسكنز من أن التغيرات السياسية التي طرأت على المجتمع الفيكنجي كان لها دخل كبير في تلك الهجرة التوسعية الكبرى"^(٥).

(١) سعيد عاشور : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى : ص ١٧٦ .

(2) The Normans in European History , New york 1959 , P. 29

(٣) محمد مرسى الشيخ : الممالك الجرمانية: ص ٢٦٠

(4) Haskins: The Normans in European History: P. 29 -30 .

(٥) تاريخ أوروبا: ص ٢٩٦، ٢٩٧، الممالك الجرمانية: ص ٢٦١.

غير أن المؤرخ فيشر: يرى أن أسباب حركة الشماليين هو حب الغنيمة والاسترشاد بالنجوم في الرحلات الطويلة إلى غير ذلك من المغريات يضاف إلى ذلك ما أظهره الفايكنج من تعصب ديني شديد تجلى في هجومهم على الأديرة واستباحتها ونهب ما حوته الكنائس من تحف ونفائس^(١).

ولا شك أن هذه الأسباب مجتمعة كانت الدافع لخروج الفايكنج من بلادهم متجهين إلى أوروبا لتحقيق أهدافهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

٣- الأدوار التي مرت بها علاقة الفايكنج بأوروبا.

مرت غزوات الفايكنج (النورمان) في أوروبا بعدة أدوار يمكن تقسيمها على النحو التالي:

الدور الأول: دور الهجوم:

بدأ هذا الدور في أواخر القرن الثامن أي منذ سنة (١٧٣هـ/٧٨٩م) عندما أخذ الفايكنج يهددون شواطئ إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا، وفي ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض إمبراطوريته لهجمات الفايكنج، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلاً خطيراً إلا بعد وفاة شارلمان، وقد تميزت غارات الفايكنج في دورها الأول بأنها كانت تهدف إلى السلب والنهب والقرصنة، وتتم في فصل الصيف، وتنتهي بالعودة قبل حلول فصل الشتاء كما كانت تضم جماعات صغيرة نسبياً تعمل غالباً لحساب أحد الأمراء^(٢).

الدور الثاني: دور الاستقرار:

لم تلبث الحركة التوسعية للفايكنج أن دخلت دور جديد عند منتصف القرن التاسع عندما أخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم في معسكرات حصينة أو في الجزر المنيعة الواقعة قرب شواطئ البلاد التي يغيرون عليها أو عند مصبات

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ترجمة / محمد مصطفى زيادة . السيد الباز العريني - دار المعارف . القاهرة - الطبعة السادسة - ج ١ ص ١١٨ وما بعدها، محمد مرسى الشيخ : الممالك الجرمانية: ص ٢٦٢.

(2) Oman : The Dark Ages : P . 415

أنهارها، وبعد أن كانوا في الدور الأول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا في هذا الدور يغيرون على بلاد غرب أوروبا في هيئة جموع ضخمة فتطورت حركتهم إلى حركة توسعية استيطانية تتم بجماعات كبيرة أو جيوش تعمل لحساب أمير أو مجموعة من الأمراء، حيث كان الفايكنج يحملون معهم نساءهم، وأطفالهم يبتغون الاستقرار بالبلاد التي يغزونها أو بقرب مصبات أنهارها أو في الجزر القريبة من شواطئ تلك البلاد^(١).

وقد استطاع الفايكنج أن يقيموا مستعمرة قصيرة العمر في أيرلندا عام (٨٤٣م) كما قضوا الشتاء لأول مرة في إنجلترا سنة (٨٥١م)، وكذلك أخذوا يستقرون ذلك الوقت في الجزء الغربي من فرنسا الذي عرف فيما بعد باسم نورمنديا، ولكنهم أخذوا يتوغلون تدريجياً داخل البلاد وكلما هجر الأهالي الأجزاء القريبة إلى الداخل تتبعهم الفايكنج^(٢).

الدور الثالث: دور الدفاع:

ويتميز بمقاومة أهل البلاد للفايكنج ونجاحهم في طردهم من أجزاء كثيرة^(٣) ويبدو أن قسوة الفايكنج المتزايدة والمذابح البشرية الرهيبة فضلاً عن الإغارة على الكنائس والأديرة، واستباحتها ونهب ثرواتها قد أوجد شعوراً طافحاً ضد هؤلاء الغزاة تبلور في مقاومة عنيفة قادها بعض أمراء القارة والجزر البريطانية؛ فنجحوا منذ أواخر القرن التاسع في وضع حد لجانب كبير من عبث هذه الشعوب المتبربرة، وليس هناك شك في أن غارات الفايكنج على أوروبا، إنما جاءت من أجل الهدم، وأنها كادت تؤدي بكل معالم الحضارة في غرب أوروبا إلى الهاوية^(٤).

(١) محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٩٩.

(٢) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٧٨ .

(٣) فيشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ج ١ ص ١٢١.

(٤) محمد مرسى الشيخ : الممالك الجرمانية: ص ٢٦٤.

إن الحضارة الأيرلندية التي أضاعت الأفق الأوروبي منذ قرون لم تستطع أن تعود إلى نورها القديم بسبب ما أنزله النورمان بأيرلندا من التخريب^(١). إضافة إلى ما أنزلوه من تدمير وخراب بإنجلترا والإمبراطورية الكارولنجية (فرنسا) وهولندا كما هاجموا سواحل الأندلس لكي يُنزلوا بها الخراب والدمار الذي اعتادوا عليه لولا يقظة أمرائها .

ثانياً: الفايكنج وغاراتهم على أوروبا (إنجلترا، أيرلندا، فرنسا، الأندلس، صقلية):
لقد كانت حركة القرصنة التي قام بها الفايكنج حركة توسعية كبيرة شملت العديد من دول أوروبا، فمخرت قواربهم الصغيرة المحيط الأطلنطي، فاكتشفوا جرينلاند وأميركا الشمالية، وأقاموا مملكة في دبلن بأيرلندا، واستولوا على إنجلترا وشمال فرنسا، وهبطوا إلى فريزيا وأغاروا على أسبانيا، وهاجموا بلاد المغرب الأقصى، ومواني الريفييرا وإيطاليا، ووصلوا إلى البحر الأبيض المتوسط، وبلغوا بحر قزوين والبحر الأسود، وأنشئوا مستعمرتين في نوفجورود وكيف، واتخذ منهم الأباطرة البيزنطيين حرساً لهم، واتصلوا باللاتينيين واليونانيين والعرب، كما اتخذوا لهم أوطاناً في صقلية وأيسلندا، ويرى البعض أنه من الخطأ اعتبار الفايكنج مجرد قرصنة محترفين، فالواقع أنهم نزعوا إلى ممارسة التجارة؛ إذ كانت لهم علاقات تجارية مع الفريزيين والسكسون قبل أن يتعرضوا لغزو الفرنجة الأمر الذي كان له أثر سيئ في تجارة الفايكنج مع هؤلاء الأقوام^(٢).

ففي إنجلترا، فقد بدأت غارات الفايكنج عليها منذ أواخر القرن الثامن الميلادي وبالتحديد عام (٧٨٧م) فرست سفنهم قرب دورشستر في هذا العام، ونهبوا أسقفية لندسفرين عام (٧٩٣م) ثم توقفت حملاتهم حتى عام (٨٣٥م) واستطاعوا منذ ذلك الوقت أن يقيموا لهم ملكاً وجعلوا دبلن عاصمة لهم، ثم انساحوا في معظم المدن،

(١) فيشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ج ١ ص ١١٨ .

(٢) السيد الباز العربي: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ص ٣٥٢

وجعلوا من إنجلترا موطنًا لهم، كما أنهم فرضوا إتاحة على بقية البلاد، وحصلوا على العديد من الغنائم، واستمر الفايكنج يهاجمون مدن إنجلترا حتى استطاع ألفريد العظيم ملك وسكس^(١) (٨٤٩-٨٩٩م) أن يطردهم من معظم الأراضي الإنجليزية التي احتلوها لكن بعد عدة حروب مريرة وطويلة، وبعد وفاة ألفريد عام (٨٩٩م)، أخذ خلفاؤه يغزون أراضي الفايكنج تدريجياً حتى انتهى الأمر بتوحيد إنجلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذي أصبح يستحق لقب ملك إنجلترا في التاريخ^(٢).

أما أيرلندا، فكانت الهدف الرئيس لغارات الفايكنج في السنوات الأولى من القرن التاسع، ففي عام (٨٣٤م)، أغاروا على الشطر الأكبر من الجزيرة فدمروا حضارتها، وأقاموا لهم قواعد على السواحل أخذوا يوجهون منها الحملات على إنجلترا، ثم أوغلوا في أيرلندا فاستباحوا الأديرة وأخذوا منها العديد من الأموال، ثم بعد ذلك تحولت حملات الفايكنج على أيرلندا إلى نوع من الاستقرار في البلاد التي نهبوها^(٣).

أما فرنسا، فقد بدأت غارات الفايكنج (النورمان) عليها في حياة شارلمان (٧٧١-٨١٣م) الذي أدى توسعه شمالاً إلى إيجاد حدود مشتركة بينه وبين الفايكنج،

(١) ألفريد العظيم هو ملك أنجلو سكسوني حكم مملكة وسكس من سنة ٨٧١ حتى سنة ٨٩٩م. اشتهر بدفاعه عن مملكة الأنجلو ساكسون في مواجهة الفايكنج ليصبح الملك الإنجليزي الوحيد الذي حصل على لقب "العظيم" (يقال أنه كان دنماركياً)، وكان أول الملوك الذي سموا بملوك الأنجلوساكسون. وكان مثقفاً ومشجعاً للتعليم كما قام بتحسين النظام القضائي والهيكلية العسكرية. توفي يوم ٢٦ أكتوبر ٨٩٩م، ومملكة وسكس تم تأسيسها في فترة العصور الوسطى بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، وهي إحدى الممالك السبعة لإنجلترا الأنجلو سكسونية في القرن الخامس وحتى توحيد مملكة إنجلترا في أوائل القرن العاشر، وكانت الأسرة التي تحكم الدولة أنجلو سكسونية هي أسرة وسكس (موقع الموسوعة الحرة).

(٢) موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ترجمة/ علي السيد علي - المجلس الأعلى للثقافة - الطبعة الأولى ٢٠٠٥م ص ٤٠، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٨٨-١٩١.

(٣) العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٦١، ٣٦٢، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٩٢.

ولم تلبث أن ساءت العلاقات بين الطرفين بسبب حماية الفايكنج للسكسون الهاريين من وجه شارلمان، ومنذ ذلك الوقت، لم تتقطع غارات الفايكنج على شواطئ الإمبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يداهموا إحدى القرى أو المراكز السياحية، وفي عهد لويس التقي^(١) خليفة شارلمان استغل الفايكنج الخلافات الداخلية حول تقسيم الإمبراطورية وأنزلوا قواتهم على شاطئ فيزييا عام (٨٣٥م) وفي عام (٨٣٧م) وصلوا عند مصب نهر الراين، وبعد وفاة لويس التقي عام (٨٤٠م) اشتدت حملات الفايكنج على فرنسا، فأوغلوا في نهر السين، واستولوا على روان، وتوغلوا في نهر الألب ونهبوا سكسونيا و فيزييا التي أصبحت شواطئها قلاعاً للفايكنج، ثم استولوا على بعض المدن الجنوبية، فاستولوا على بورديو كبرى مدن الجنوب ونهبوها عام (٨٤٧م) وظلت بأيديهم عدة سنوات، ولا شك أن سيطرة الفايكنج على هذه المدن كان يعود عليهم بأرباح طائلة وغنائم وفيرة الأمر الذي شجعهم على مواصلة نشاطهم التدميري بأعداد كبيرة، ففي عام (٨٨٥م) حاصروا باريس بنحو ٧٠٠ سفينة وأربعين ألف رجل، وعلى الرغم من هذه الأعداد الضخمة، إلا أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، وفي عام (٩١١م) عقدت اتفاقية سانت كلير^(٢) بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفايكنج الإقليم الساحلي الذي نسب إليهم بعد ذلك فعرّف باسم نورمانديا^(٣).

(١) لويس الأول ويسمى أيضا لويس الورع أو التقي ملك الفرنجة ورأس الإمبراطورية الكارولنجية بين عامي ٨١٤ - ٨٤٠م. ملك أكيانيا من عام ٧٨١، إمبراطور (باسم لويس الأول) وملك الفرنجة بالاشتراك مع والده شارلمان من سنة ٨١٣. صار الحاكم الوحيد للفرنجة إثر وفاة والده عام ٨١٤. كُلف لويس خلال حكمه في أكيانيا بالدفاع عن حدود الإمبراطورية الشمالية. انتزع برشلونة من المسلمين سنة ٨٠١م وأعاد بسط سلطان توفى عام ٨٤٠م (موقع الموسوعة الحرة).

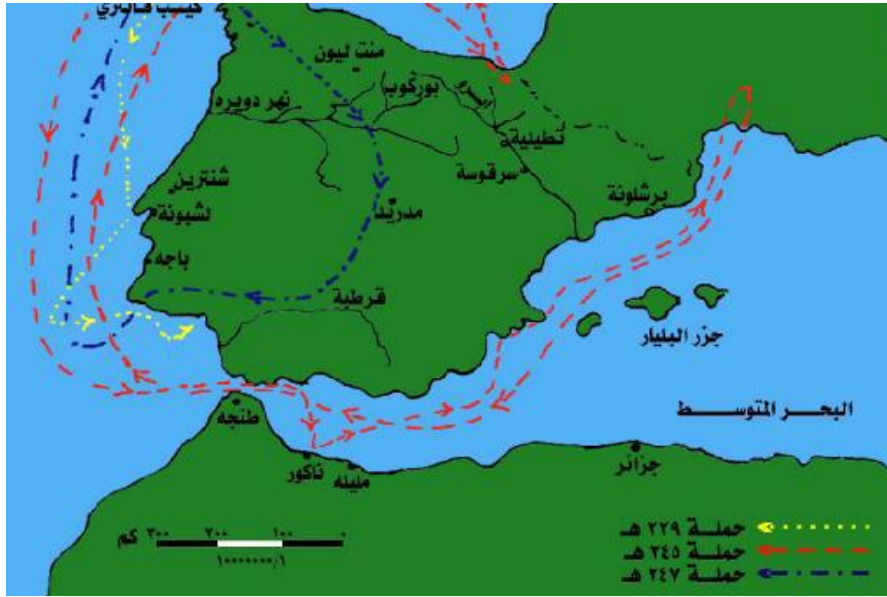
(٢) عقدت معاهدة سانت كلير عام ٩١١م بين الملك شارل الثالث ملك الفرنجة الغربيين ورولو، زعيم الفايكنج. وعلى إثرها تأسست دوقية نورماندي تلك الدوقية التي سميت نسبة لسكانها النورمان (موقع الموسوعة الحرة).

(٣) العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٦٣، سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ١٨٦، ١٨٧.

أما الأندلس (أسبانيا والبرتغال حاليًا)، فقد بدأت غارات الفايكنج عليها منذ عام (٢٣٠هـ/٨٤٤م) في عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٥٢-٨٢٢م)، حيث ظهروا فجأة أمام مدينة لشبونة في أربعة وخمسين مركبًا ومثلها أو أكثر قوارب وانحدروا بعدها إلى أشبيلية، ثم قرطبة، ثم عادوا إلى أشبيلية بعد عدة أحداث ومعارك، وقد ارتكبوا خلال ذلك فظائع وفضائح من القتل والنهب والتخريب، ثم غادروا الأندلس إلى عرض البحر^(١). وعلى الرغم من المقاومة التي أظهرها أهل الأندلس في صد أولئك الغزاة، إلا إنه يبدو أن غاراتهم استمرت بشكل خطير مما دفع الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى إرسال سفارة إلى ملك الفايكنج، وقد انتدب الأمير عبد الرحمن أحد الرجال البارزين في بلاطه للقيام بسفارة إلى بلاد النورمان، وهو الشاعر يحيى بن حكم الغزال، ويبدو أن ما توصلت إليه هذه السفارة لم تكن إلا اتفاقاً مرحلياً؛ لأن النورمان عادوا هجومهم على الأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وذلك في سنة (٢٤٥هـ/٨٥٩م) وسنة (٢٤٧هـ/٨٦١م)، ولكن لم يستطع النورمان أن يحققوا في هذين الهجومين انتصاراً يذكر، بل على العكس دُحروا، وردوا على أعقابهم دون أن يتمكنوا من إلحاق أذى كبير بالمسلمين؛ ويعود السبب في ذلك إلى أن جهود الأمير عبد الرحمن الأوسط كانت قد أُنعت في عهد ولده الأمير محمد، فكان للاحتياطات الدفاعية التي اتخذها في تقوية الأسطول والمحارس والرباطات التي أقامها على طول الساحل الغربي للأندلس، أثر كبير في رد الغزاة والتقليل من شأن هجومه^(٢).

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس: ص ٨٠.

(٢) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠٠، خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: دار الكتاب المتحدة - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى ٢٠٠٠م ص ١٣٢.



عبد الرحمن الحجي: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وغرب أوروبا ص ١٧١.

وفي عام (٢٥٤هـ/٨٦٨م)، وخلال عصر الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) ظهرت مراكب المجوس (الفايكنج) في البحر الكبير (المحيط الأطلسي) وأفسدوا بسائط أشبونة، وناشبهم الناس القتال، فرجعوا إلى مراكبهم، وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الأسطول، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل^(١).

وفي عامي (٣٦٠هـ/٨٧٣م) و (٣٦١هـ/٨٧٤م)، عاد النورمان لغزو سواحل الأندلس الغربية في فلم يكديمضى على رحيلهم من الأندلس سوى خمس سنوات حتى عاودوا هجومهم مرة أخرى، فأزعج السلطان قائد البحر بالخروج إليهم^(٢).

وفي عصر ملوك الطوائف^(٣) وبالتحديد عام (٤٥٦هـ/١٠٦٤م) : "عاود الفايكنج هجومهم على الأندلس ونزلوا على مدينة"

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت ٨٠٨هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: المحقق: خليل شحادة - دار الفكر - بيروت - الطبعة: الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ج ٤ ص ١٨٦.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب: ج ٢ ص ٢٤١.

(٢) في عام (٤٠٠هـ/١٠٠٩م) بدأ ظهور عصر الطوائف في الأندلس، الذي دام حتى عام (٤٨٤هـ/١٠٩١م)؛ وكان ذلك بسبب سقوط الخلافة الأموية التي نخرتها الأطماع والأحقاد والصراعات الداخلية على الحكم، وسعي بعض الشخصيات للمجد الشخصي متناسياً في ذلك مصالح الأمة وضرورة وحدتها لنقف صفاً واحداً أمام أعدائها وانقسمت الأندلس إلى دويلات، واتخذ حكامها ألقابهم تبعاً لحجم دويلاتهم فأحدهم: ملك أو أمير، أو والٍ أو قاض؛ ونظراً لاختلاف القوى والرياسات، فقد أخذ القوى يبيتش بالأضعف، والأضعف يدرأ الخطر بالتحالف مع جاره القوي، وأحياناً يستجد بأمراء النصراري مقابل ثمن باهظ، وقد عرف هذا العصر باسم عصر ملوك الطوائف أو عصر الفرق (محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس: مكتبة الخانجي، القاهرة - الجزء الثاني الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م صفحات متفرقة بتصريف).

بريشتر^(١) فحاصروها أربعين يوماً حتى دخلوها عنوة، فقتلوا عامّة رجالها وسبوا فيها من ذراري المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة، ويذكر أنّهم اختاروا من أبنكار جوارى المسلمين وأهل الحسن منهم خمسة آلاف جارية وأهدوهنّ إلى صاحب القسطنطينية وأصابوا فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه^(٢).

وبالمقارنة بين غارات الفايكنج (النورمان) على أوروبا المسيحية والأندلس الإسلامية، نجد أن غاراتها على دول أوروبا المسيحية حققت ما تصبو إليه، فاستولوا على المدن، وأخذوا الكثير من الغنائم بل استقروا في بعض المناطق وأنشئوا فيها حكماً ذاتياً لهم مثل نورمنديا، وهذا يرجع من وجهة نظري إلى ما كانت تعانيه أوروبا في ذلك الوقت من ظلام دامس، ومن صراع وتناحر على السلطة بين أفراد البيت الواحد، الأمر الذي ساعد الفايكنج في نجاح حملاتهم على أوروبا المسيحية، أما الأندلس، فقد كانت هي البقعة المضيئة في أوروبا في ذلك الوقت وتحت حكم الدولة الأموية القوية التي اهتمت بكل شيء من علوم وفنون، إضافة إلى يقظة حكام الأندلس واهتمامهم بالجيش وبالبحرية الإسلامية، ولذلك لم يحقق الفايكنج من حملاتهم عليها سوى بعض الغنائم التي استولوا عليها، لكن في عصر الطوائف عندما انقسمت الأندلس إلى ممالك وطوائف ودب الصراع بين أمرائها نجح الفايكنج في الاستيلاء على بعض المدن وهي مدينة بريشتر، وعلى الرغم من أنهم لم يمكثوا فيها طويلاً، إلا إن ضعف ملوك الطوائف وتناحرهم هو الذي مكنهم من ذلك.

(١) بريشتر : مدينة في شرقي الأندلس من أمهات مدن الثغر الفاتكة في الحصانة والامتناع (ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان: دار صادر - بيروت - الطبعة: الثانية ١٩٩٥م ج ١ ص ٣٧٠).

(٢) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ): المسالك والممالك: دار الغرب الإسلامي - ١٩٩٢م ج ٢ ص ٩١٠.

أما صقلية، فقد ظل النورمان لمدة ثلاثين عامًا يرسلون حملاتهم عليها، حتى تم لهم الاستيلاء على الجزيرة وانتزاعها من أيدي المسلمين عام (٤٨٤هـ/١٠٩١م) وأقاموا فيها دولة استمرت حتى عام (٥٩١هـ/١١٩٤م) عندما استولى عليها هنري السادس إمبراطور ألمانيا^(١).

- التواصل الحضاري للقراصنة الفايكنج (النورمان):

يرى البعض أن الفايكنج لم يكونوا برابرة بمعنى الكلمة؛ وذلك لأنهم أظهروا مزيجًا عجيبًا من البدائية والنزعة الحضارية، إذ ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية من جهة، في حين فاقوا كثيرًا من شعوب أوربا المجاورة في بعض نواحي النشاط البشري، وبصفة خاصة الحروب والتجارة والتنظيم الاجتماعي من جهة أخرى^(٢).

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة: ترجمة/ زكي نجيب محمود وآخرين - دار الجيل - بيروت - لبنان - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ج ١٥ ص ٢٥٩. وهنري السادس كان فردًا من أفراد سلالة آل هوهنشتاوفن، وملك ألمانيا (ملك الرومان) بين عامي ١١٦٩ - ١١٩٧، والإمبراطور الروماني المقدس من عام ١١٩١ حتى عام ١١٩٧، وملك صقلية من عام ١١٩٤ إلى حين وفاته في ٢٨ سبتمبر عام ١١٩٧م. كان الابن الثاني للإمبراطور فريديريك الأول ببروسا وزوجته بياتريس الأولى من بورغوندي، كان هنري شاعرًا ماهرًا وراعياً للشعراء. تزوج في عام ١١٨٦ من كونستانس ملكة صقلية، ابنة ملك النورمان روجر الثاني. احتل صقلية في عام ١١٩٤، هدد هنري باحتلال الإمبراطورية البيزنطية بعد عام ١١٩٤ ونجح في الحصول على فدية، أو الضريبة الألمانية من الإمبراطور ألكسيوس الثالث أنجيلوس مقابل إلغاء الغزو. ضم مملكة قبرص ومملكة أرمينيا الصغرى إلى إمبراطوريته بشكل رسمي وأجبر تونس وإقليم طرابلس على دفع ضريبة له، خطط لتغيير نظام حكم = الإمبراطورية الرومانية المقدسة من نظام انتخابي إلى ملكي، المشهورة باسم (erbreichsplan)، ولكنه قوبل برفض قاطع من قبل الأمير الناخب وتنازل عن خطته. تعهد هنري بإطلاق حملات صليبية في عام ١١٩٥، وبدأ بتجهيز الحملات. قُمع تمرد في مملكة صقلية عام ١١٩٧، رست سفن جنود الحملات الصليبية في نفس السنة على شواطئ الأراضي المقدسة، لكن قبل أن ينضم إليهم، مات هنري بسبب المرض في مدينة مسينة في ٢٨ سبتمبر عام ١١٩٧. أقحم موته الإمبراطورية في نزاعات العرش الألماني لمدة ١٧ عامًا (موقع الموسوعة الحرة).

(٢) Haskins: The Normans in European History: P. 36. سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى: ص ٢٠١.

ونتيجة لهذا الرأي: فإن الفايكنج كانوا أصحاب حضارة على الرغم من بداوتهم. بينما يرى البعض الآخر: أن الفايكنج على الرغم من أنهم كانوا رحالة عظام أنجزوا مغامرات بارزة في عالم الملاحة، وكانت مدنهم مراكز تجارية عظيمة، وكان فنههم أصيلاً مبدعاً ومؤثراً، وقد تباهوا بأدبهم الرفيع وثقافتهم المتطورة، إلا إنهم لم يكونوا أصحاب حضارة، ويعلل أصحاب هذا الرأي ذلك: بأن لمسة الإنسانية، والتي هي علامة الحضارة كانت غائبة عنهم تماماً، وأن الطفل الغربي عندما يذهب إلى المدرسة كان يلقب بإسهاب أن الشرق الأدنى هو مهد الحضارات، وأن أولى الحضارات قد برزت ونهضت في مصر وفيما بين النهرين يغذيها نهر النيل وأحواض نهري دجلة والفرات، ومن هنا انتشرت الحضارة إلى كريت واليونان، ومن ثم إلى روما وأخيراً إلى برابرة شمالي أوروبا^(١).

وفي رأيي: أنه يمكن التوفيق بين الرأيين، ففي البداية وقبل اتصال الفايكنج بأوروبا، فإنهم لم يكونوا أصحاب حضارة، فلم تعرف عنهم أوروبا سوى أنهم مجموعات متناثرة ومنغلقة من قراصنة البحار أتوا من إسكندنافيا بغرض التجارة أو القرصنة أو كليهما معاً.

أما بعد اتصالهم بأوروبا، فقد تغيرت بعض صفاتهم وتحولوا من قراصنة كان كل هدفهم الإغارة على المدن بقصد السلب والنهب إلى الاستيلاء عليها بقصد الاستقرار وإقامة حكم ذاتي لهم، ومنذ ذلك الوقت أصبح لهم دول يحكمونها كنورمانديا وصقلية، وبالتالي راحوا يتعرفون على الحضارات التي كانت قائمة في هذه الدول قبل قدومهم، فتهذبت طبائعهم وسلوكياتهم، وأصبحت لهم حضارة خاصة بهم راحوا يعملون على ازدهارها ونشرها. وبالتالي، فإن حضارتهم كانت مزيجاً من الحضارات الأخرى الإسلامية والأوربية، إضافة إلى احتفاظهم ببعض سماتهم الأولى كالحروب والتجارة والتنظيم الاجتماعي.

(١) مايكل كرايتون: أكلة الموتى عن مخطوطة ابن فضلان: دار الهلال - الطبعة الثانية ١٩٩٩م ص ١٢-١٤.

وفي النهاية يمكن القول: بأن الفايكنج أصبحوا أصحاب حضارة مستحدثة أثرت وتأثرت بغيرها من الحضارات الأخرى لاسيما الحضارة الأوربية المسيحية، والحضارة الإسلامية، وأصبح هناك تواصل حضاري مع هذه الحضارات.

١ - التواصل الحضاري للفايكنج مع أوروبا المسيحية:

- بين الوثنية والمسيحية:

تعددت الآلهة عند الفايكنج وكانوا مؤمنين بهذه العقائد الوثنية، وكان من ضمن آلهة الفايكنج: (أودن) وهو الأهم، لأنه يمثل إله الحرب، أما (ثور)، فهو الزعيم وكبير الآلهة، وهو إله الرعد، (بالدر) إله الضوء، و(فراي) إله الخصب، وغيرهم الكثير، ومن معتقداتهم أن الآلهة تحارب مجموعة من العمالقة ونهاية الكون ستكون بمعركة كبيرة. كما اعتقدوا أن الشمس فتاة والقمر هو الفتى بعكس كل الاعتقادات الأخرى في العالم، وأن ذئبًا عملاقًا يجري وراءهم كل يوم وهم يركبون على عربتهم التي تجرها الخيول، وفي كل شهر كان يقطع الذئب قطعة من القمر ويفلت بفعلته إلا إنه يتعافى، وقد ظل الفايكنج يدينون بهذه المعتقدات الوثنية الخرافية حتى اختلطوا ببلاد أوروبا واعتنقوا المسيحية، ويرى البعض أن أول معرفة الفايكنج بالمسيحية جاءت عن طريق علاقاتهم التجارية مع الفريزيين، وقد أخذت البعثات التبشيرية تترد على اسكنديناوة والدانمرك منذ أوائل القرن الثامن، وبعد ذلك عمل لويس النقي على نشر المسيحية بين الفايكنج بالطرق السلمية، فأغرى هارولد ملك الفايكنج على اعتناق المسيحية حتى تم تعميده مع عدد كبير من أتباعه عام (٨٢٦م)^(١).

وفي عام (٩١١م) عقد ملك فرنسا شارل البسيط معاهدة سانت كلير مع زعيم الفايكنج، حيث أعطاهم منطقة في شمال البلاد، واشترط عليهم أن يعتنقوا المسيحية، ويوقفوا غاراتهم على بقية أراضيهم، بل ويساعدوه في صد غارات الآخرين. وهذا ما حدث بالفعل، وسميت تلك المنطقة بالنورماندي، وصارت دوقية عظيمة الشأن في فرنسا^(٢).

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠٢.

(٢) موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٩.

أخذت بعد ذلك المسيحية تنتشر تدريجياً على حساب الوثنية بين الفايكنج، ليس في بلادهم الأصلية فحسب، بل في المواطن الجديدة التي هاجروا إليها واستقروا فيها سواء في غرب أوروبا أو شرقها، وليس هناك من شك في أن انتشار المسيحية بين هذه الشعوب ترك أثراً واضحاً في مستقبل أوروبا وتاريخها^(١).

إن تحول الفايكنج إلى المسيحية ديانة رسمية يعد أحد الأسباب الرئيسة لنهاية عصرهم، حيث أدانت الكنيسة غزوات الفايكنج المتكررة التي كان يذهب ضحيتها مسيحيون آخرون مما دفعهم للتوقف عن غزواتهم الدموية لأسباب دينية، بل إنهم صاروا حماة لهذا الدين، واعتبروا أنفسهم أتباعاً للكنيسة، وشغفوا ببناء الكنائس والأديرة، فلم تمض مائة عام على تملكهم نورمنديا حتى غدوا حماة أقوياء للمسيحية، فراحوا يدافعون عنها ويُسَيرون الحملات باسمها، فقد شاركوا في الحملة الصليبية الأولى^(٢)، ثم قاموا بحملاتهم الصليبية على شمال إفريقيا فيما بعد^(٣).

تأثير الفايكنج في أوروبا:

ترك الفايكنج أثراً حضارياً واضحاً في كل بلد استقروا فيه وبخاصة أيرلندا وإنجلترا وملحقاتهم الطبيعية، وإذا كانت العناصر الأولية لحضارة الفايكنج قد أخذت تتلاشى تدريجياً من البلاد التي نزحوا إليها واستقروا فيها، فإن هذه العناصر قدر لها البقاء في أقصى الغرب أي في أيسلاند وجرينلاند، حيث ازدهرت حضارة الفايكنج، وأصبح تراثهم مصدراً لتطور مبتكر يختلف عن أي تطور حضاري آخر في القارة الأوروبية، وقد بلغ التقدم الحضاري في جرينلاند بعد استقرار الفايكنج فيها أن أديرتها في جرينلاند بعد استقرار الشماليين فيها أن أديرتها في القرن الثاني عشر كانت تستخدم أنابيب

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠٢.

(٢) ستيفان رانسيومان: تاريخ الحروب الصليبية: ترجمة/ السيد الباز العريني - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ج ١ ص ٧، ٢٢٠.

(٣) العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٦٤، ممدوح حسين: الحملات الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري: دار عمار - عمان - الأردن - الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م صفحات متفرقة.

المياه الدافئة في التدفئة داخل الأديرة، في حين استمدت هذه الأنابيب مياهها من ينبوع دافئ طبيعي هذا فضلاً عن النشاط التجاري الواسع الذي قام به أهالي جرينلاند وأيلاند في الميدان الاقتصادي، إذ أخذوا يصدرون الأسماك والفراء والزيت إلى البلاد القريبة^(١).

وفي ميدان اللغة، فقد أثرت اللغة النوردية القديمة على اللغة الإنجليزية حيث كان التأثير اللغوي طويل الأجل لمستوطنات الفايكنج في إنجلترا تأثيراً ثلاثياً: حيث أصبحت أكثر من ألف كلمة نورديّة قديمة في النهاية جزءاً من اللغة الإنجليزية الرسمية؛ وتمتلك أماكن عديدة في شرق إنجلترا وشمالها الشرقي أسماء دانماركية، والعديد من الأسماء الشخصية الإنجليزية لها أصول إسكندنافية^(٢).

وفي ميدان الأدب: فإن المجموعة الضخمة من أساطير الساجا saga وأشعار الأدا تعتبر خير ما يدل على التقدم الأدبي وبخاصة في أيلاند أما الساجات، فهي أساطير نثرية تمتاز بطابعها الواقعي واتزانها واستقامة نظرتها إلى الحياة والطبيعة وإذا كانت هذه الأشعار تتطوي على شيء من الخشونة والبربرية، إلا إنها تعبر تعبيراً سامياً عن روح البطولة، كما تحرص على إبراز الغرض الأسمى الذي يسعى إليه البطل، وهكذا يرجع الفضل إلى الفايكنج عندما أنتجت جزر أوروبا الشمالية المقفرة حضارة طيبة وأدباً رفيعاً من أعظم ما أنتجه أوروبا في العصور الوسطى^(٣).

وفي النهاية، يمكن القول بأن حضارة الفايكنج أثرت وتأثرت بالحضارة الأوربية، فقد هذبت الحضارة الأوربية في شعوب الفايكنج، فغاراتهم على أوروبا لم تلبث أن تحولت من لصوصية إلى فتوحات، ومن فتوحات إلى استقرار، فالفايكنج الذين خربوا الأديرة في أيرلندا هم الذين أسسوا المدن التجارية فيها، والفايكنج الذين هدموا مدينة أرماخ الأيرلندية،

(١) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠٣.

(٢) موقع الموسوعة الحرة: تحت عنوان عصر الفايكنج.

(٣) سعيد عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٢٠٣.

هم الذين أشأوا مدن وترفور وديبلن ووكسفورد عوضاً عنها، أما في إنجلترا وفرنسا، فقد أثر الغالون والمغلوبون في بعضهم البعض تأثيراً باقياً، لا بسبب اختلافهم وتباينهم في الصفات بل بسبب تشابههم فيها، ولا سيما النجابة والمرونة والوعي، فالفايكنج في إنجلترا صاروا إنجليزاً، وفي نورمنديا صاروا فرنسيين وتقبل هؤلاء وأولئك المسيحية والثقافة اللاتينية التي أضحت جزءاً لا يتجزأ من المسيحية، ولم ينته القرن العاشر حتى صار الفايكنج جميعاً في دائرة الحضارة الرومانية اللاتينية^(١).

٢- التواصل مع المسلمين:

ظهر الإسلام في القرن السابع كقوة حضارية وروحية وإمبراطورية عازلة بين أوروبا وأفريقيا، وما تلى ذلك من أحداث امتدت فصولها عبر قرون بدأت بفتح الشام وياقتطاع جنوب المتوسط عن الإمبراطورية الرومانية والاستيلاء على الأندلس وفتح القسطنطينية، جعلت غاية الإسلام من هذا التواصل البحث عن نقاط الالتقاء عن طريق المنطق والعقل، والفهم للوصول إلى أرضية مشتركة تعتمد على المصالح المتبادلة. أما الغاية الأخرى، فهي المتأقفة والتلاقح الفكري الذي يسمح بالتأثير والتأثر بين الحضارات^(٢).

لقد أثرت الحضارة الإسلامية في الفايكنج كما أثرت وتأثرت بغيرها من الأمم الأخرى، وقد كان التواصل الحضاري بين المسلمين والفايكنج عند طريق عدة وسائل منها:

أ- السفارات:

لم يكن الإسلام غريباً عن أوروبا منذ بدء الفتوحات الإسلامية ونشأة إمارة الأندلس في جنوب أوروبا في شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم). لكن الدلائل على التواصل والاتصال العربي الإسلامي بشعوب الفايكنج شمال أوروبا له شواهد قوية.

(١) موريس بيشوب: تاريخ أوربا في العصور الوسطى: ص ١٢٠، ١٢١، ١٢٧.
(٢) مريم آيت احمد: مستويات الحوار الحضاري: نقلا عن: مجلة حراء، العدد: ٣٢، لسنة ٢٠١٢م ص ٣٥.

ومن الوثائق التاريخية الشيقة والنادرة عن علاقة العالم الإسلامي بالفايكنج، ما سجله الرحالة الإسلامي الكبير (أحمد بن فضلان العمري) في رحلته الشهيرة إلى بلاد الفايكنج، حيث ذهب إلى ملك الفايكنج بسفارة خاصة عام (٣١٠هـ/٩٢١م) من الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٤م) استجابة لوفد من طرف ملك الفايكنج وصل بغداد ملتصماً بإرسال سفارة إلى مملكته لشرح مبادئ الإسلام، وأموال لبناء مسجد وقلعة حصينة يحتمي بها من أعدائه^(١).

وقد حظيت هذه الرحلة باعتراف واسع من علماء التاريخ في العالم، وترجمت لعشرات اللغات، وصارت واحدة من أهم المراجع في تاريخ الفايكنج ومعرفة عاداتهم وسلوكياتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية والدينية، وقد بدأ الفايكنج في التفكير بتكرار تجربة إنجلترا الناجحة في العالم الإسلامي، وذلك من جهتين مختلفتين: من الشرق بالهجوم على ثغور الدولة العباسية، ومن الغرب بالهجوم على سواحل الدولة الأموية في الأندلس، وقد تباينت الاستفادة السياسية والإستراتيجية بين الدولة العباسية والأندلس تبايناً كبيراً يكشف الوعي الحضاري الذي كان عليه مسلمو الأندلس^(٢).

وصف ابن فضلان أجسام الفايكنج وصفاً تفصيلياً، بأن لهم أجساداً طويلة مثالية وصفها كأشجار النخيل، كما وصف نساءهم بأنهن يرتدين مربعات من الحديد أو الذهب أو الفضة فوق صدورهن، وتشير قيمة المربع إلى ثروة الزوج كما وصف طقوس الجنائز، بأن الميت يستمر لعدة أيام، ويتكون من طقوس مختلفة، حيث يتم إعداد الرجل المهم الميت من أجل إحراقه، جنباً إلى جنب مع بعض العبيد والفتيات اللاتي تطوعن للموت مع سيدهن^(٣).

(١) ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس (ت بعد ٣١٠هـ): رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك

والروس والصقالبة: دار السويدي - أبو ظبي الطبعة: الأولى ٢٠٠٣م ص ١٧، ٣٩.

(٢) شريف عبد العزيز: هجوم الفايكنج على العالم الإسلامي: مقال بموقع ملتقى الخطباء.

(٣) رحلة ابن فضلان: ص ١٠١، ١٠٢.

ويلاحظ أن ابن فضلان اختار وصف العادات والسلوكيات الغريبة التي تختلف عن الممارسات والقيم الإسلامية، ومن ذلك (النظافة والعادات الصحية، والنكاح)، فعلى النقيض من جمالهم الجسدي، فقد وصفهم بأنهم أقدر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة ينكح الواحد منهم جاريتة ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض، وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جاريتة، فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه، كما أنهم يستعملون وعاء واحد من الماء في اليوم يكاد لا يخلو من كل تلك القذارة، حيث تملئ الخادمة كل يوم قصعة لسيدها فيغتسل، ثم يبصق فيه أيضاً أو ينظف أنفه، ثم بعد أن ينتهي تقوم الخادمة بتمرير نفس الحوض بنفس الماء لباقي أفراد العائلة دون تغيير الماء^(١).

يعتبر هذا الوصف مشيناً ومقززاً بالنسبة لمسلم مثل (ابن فضلان) ومن الممكن أن دينه قد حثه على عدم استخدام مياه راكدة أو غير نظيفة لمجرد الوضوء. كما وصف (ابن فضلان) طبيعة ملك الفايكنج بأن له ٤٠٠ رجل في قصره، يجلسون حول عرشه المرصع بالأحجار الكريمة، وهم من أشجع الرجال، الذين يموتون مع الملك ويقتلون من أجله، ولكل منهم جاريتة من الرقيق تخدمهم وتعمل على راحتهم^(٢).

وفي الحقيقة كان (ابن فضلان) رجلاً مميزاً فضله الخليفة بسبب مؤهلاته الدينية والدراسية والأدبية مما جعله مرشحاً أساسياً لقيادة حملة سياسية ودينية عظيمة كهذه إلى بلاد الفايكنج، مما جعله أفضل من وصفهم وشعوبهم قديماً، ولاشك أن ابن فضلان قام برسالة الخليفة على أكمل وجه فعرفهم بالإسلام وحضارته فكانت هذه السفارة أول تواصل حضاري دبلوماسي بين المسلمين والفايكنج.

(١) رحلة ابن فضلان: ص ١٠٢، ١٠٣.

(٢) رحلة ابن فضلان: ص ١١٠، ١١١.

يتسأل بعض الباحثين ويقول: هل كان هناك اتصالات بين المسلمين والبلغار قبل رحلة ابن فضلان عام (٣١٠هـ/٩٢١م)؟. ثم يجيب قائلاً: لا بد من القول: إن الدين الإسلامي دين لجميع الناس، وإنه وصل إلى بقاع العالم من خلال الدعاة والتجار والجيوش والسفارات، وغير ذلك، وإن انتشار الإسلام إلى بلاد البلغار لا يشذ عن تلك القواعد، إلا إنه من المؤكد أنهم عرفوا الإسلام واعتنقوه قبل رحلة ابن فضلان، ولكن بفترة تبدو قصيرة؛ لأن الرحلة جاءت استجابة ورداً لملك الصقالبة (البلغار) إلى الخليفة العباسي المقتر بإرسال بعثة لتفقيهم بالدين الإسلامي، وهذا يعني أنهم حديثو عهد بالإسلام، وأن إيمانهم كان سطحيًا؛ لأن معرفتهم به ربما كانت على يد بعض التجار وليس دعاة أو فقهاء (١).

واتفق مع الباحث في أنهم كانوا حديث عهد بالإسلام، ولذلك طلبوا من خليفة المسلمين أعلى سلطة دينية وسياسية أن يرسل لهم من يفقههم في الدين، كما طلبوا منه بعض الأموال لبناء مسجد وقلعة حصينة يحتمون بها من أعدائهم، وهذا يعني أنهم أصبحوا يدينون بالولاء للخليفة وعليه حمايتهم لكونهم أصبحوا مسلمين.

إذن، كانت سفارة ابن فضلان وسيلة من وسائل التواصل الحضاري بين المسلمين والفايكنج.

ومن السفارات الأخرى إلى بلاد الفايكنج سفارة يحيى الغزال والتي أرسلها الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) إلى ملك الفايكنج بعد هجومهم على سواحل الأندلس عام (٢٣٠هـ/٨٤٤م)، فبعد أن هاجم أسطول الفايكنج شواطئ الأندلس، وعاث فسادًا في بعض المدن الأندلسية تصدى له الجيش الأندلسي، وقُتل قائد الفايكنج وأُحرق عدد كبير من سفنهم وهرب باقي الفايكنج عائدين إلى بلادهم بعد هزيمتهم النكراء، وبعد الهزيمة

(١) طه خضر عبيد: الحضارة العربية الإسلامية: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ص ٢٥٤.

سعى ملك الفايكنج هوريك خلال المدة (٨٢٧-٨٥٤م) إلى الصلح وعقد الهدنة مع الأندلس، فأرسل سفارة إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط لعقد معاهدة صلح بينهم فوافق الأمير عبد الرحمن وقام بإرسال يحيى الغزال سفيراً إلى بلاد الفايكنج بصحبة أحد وجهاء الأندلس وهو يحيى بن حبيب، فخرجا معاً إلى البحر المحيط في مركب خاص بهما مع مركب رسل الفايكنج، وقد وصف الغزال تلك الرحلة وما لقيه السفيران المسلمان من أهوال البحر وشدته، وكيف أنهما أوشكا على الهلاك، لكن في النهاية جازا تلك الشدائد سالمين ووصلا إلى بلاد المجوس (الدانمارك)، حيث كان مقر ملك الفايكنج بها، وتعتبر سفارة يحيى الغزال هي الأولى من نوعها من جانب المسلمين في الأندلس إلى الدانمارك وإسكندنافيا، التي يصفها بأنها بلاد المجوس وهي (جزيرة عظيمة في البحر المحيط)، وقبل دخوله على ملك الفايكنج اشترط الغزال عليه ألا يسجد له، فأجابهما إلى ذلك، وأراد الملك أن يخرج الغزال فأمر بالباب الذي يفضي إليه، فضيق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راکعاً، فلما وصل إليه الغزال جلس إلى الأرض وقدم رجليه وزحف على إلبته زحفاً، فلما جاز الباب استوى واقفاً والملك قد أعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة، فما هاله ذلك ولا ذعره، ولقي السفير المسلم من ملك الفايكنج كل ترحاب وعطف، وأفرد لإقامته وزملائه منزلاً حسناً، وقدم إليه الغزال كتاب أمير الأندلس عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية، ولقي الغزال في بلاط الفايكنج كثيراً من الإعجاب، واستقبلته (نود) ملكة الفايكنج، وقد أعجبت برجاحة عقل الغزال وفطنته، وله فيها شعر غزل في جمالها، عاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً^(١).

(١) ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (ت ٦٣٣هـ): المطرب من أشعار أهل المغرب: تحقيق/ الأستاذ إبراهيم الإيباري وآخرون - دار العلم للجميع - بيروت - لبنان - ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م ص ١٣٩-١٤٦، سالم بن عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس: الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م ج ١ ص ٢٤٣.

وتعتبر سفارة الغزال هي الأولى من نوعها التي تصل إلى الدول الاسكندنافية، وإن كانت قد سبقت هذه السفارة رحلة أحمد بن فضلان الذي مر بتلك البلاد أثناء سفارته إلى بلاد الصقالبة، لكن ابن فضلان أسهب كثيراً في وصف تلك البلاد ووصف جغرافيتها، وتحدث عن عادات سكانها وتقاليدها، لكن اهتمام الغزال كان بالجانب السياسي وتأدية سفارته فلم يشغل نفسه بأي جانب آخر، وبهذه السفارة نجح الأمير عبد الرحمن الأوسط بالأسلوب الدبلوماسي تجنيب بلاده هجمات أولئك القراصنة طيلة ما تبقى من حكمه، كما إنها تمثل أول تواصل حضارياً بين المسلمين في الأندلس والفايكنج.

ب - الاتصال التجاري بين بلاد الإسلام والفايكنج:

تعد التجارة من وسائل التواصل الحضاري بين الأمم في المقام الأول؛ ولأنها في هذه الفترة قد انتعشت وازدهرت بين الدولة العربية الإسلامية والدول المجاورة لها، ولازدهار النشاطات الاقتصادية الأخرى الزراعية والصناعية، وتأمين طرق التجارة الدولية، ومن الخطأ اعتبار الفايكنج مجرد قرصين محترفين، فالواقع أنهم نزعوا أيضاً إلى ممارسة التجارة، إذ كانت لهم علاقات تجارية مع الفريزيين والسكسون^(١).

ولعل التجارة الكبيرة مثل الفراء والعسل والجلود والعاج والأسماك وغيرها، كما كانت الفضة في ذلك الوقت ثمينة ومكلفة، كما حرص العرب المسلمين على الحصول على البضائع الاسكندنافية من الفايكنج مثل القبعات والمعاطف المصنوعة من فرو الثعالب، كما إن عالم الآثار لا يجد صعوبة في تمييز الأشياء الغربية الموجودة في مقابر الفايكنج مثل: عملة نقد من بغداد مثلاً، وبالمقابل، فإن تجار الفايكنج كانوا يتقايسون المسكوكات النقدية والمنسوجات والفواكه المجففة مثل التمور، وحقائقاً، فإن الفايكنج استعملوا عملات النقد من أوروبا الغربية والعالم العربي، كما إن هناك آثاراً إسلامية أخرى كالقناديل

(١) العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص ٣٥٢.

الإسلامية والكاسات بنقوش عربية، وعموماً تُعدُّ العملات الإسلامية (دراهم الفضة) هي أول ما ظهر من العناصر في بلاد الفايكنج نحو نهاية القرن التاسع، فجلب تجار الفايكنج الفضة العباسية (نسبة إلى الدولة العباسية) بكميات كبيرة إلى الدول الإسكندنافية، وقد تم العثور على آلاف القطع منها في مناطق بحر البلطيق وروسيا^(١).

إن هذا الكم الهائل الذي وجد في قبور الفايكنج له مدلولات ثلاثة:

١- حجم التجارة والعلاقات الوثيقة بين العالم الإسلامي وبين الفايكنج.

٢- كما إن هذا الحجم الهائل للتجارة المتبادلة بين الفايكنج والعرب، مع الصلات المستفيضة مع الحضارة الإسلامية لا بد من انعكاسه لغوياً في التأثير العربي في اللغة النرويجية والإسكندنافية (وهم أصل مهم من أصول اللغة الإنجليزية القديمة)، فقد دخلت الكلمات العربية إلى الإنجليزية عبر النرويجية القديمة أولاً، وعبر الوسط الفرنسي النورماندي ثانياً، والنورمانديون أصلاً هم بقايا الفايكنج الذين غزوا شمال فرنسا واستوطنوها، وبقايا الفايكنج هؤلاء صاروا الفرنسيين النورمان الذين احتلوا من بعد إنجلترا واحتلوا صقلية العربية، وشاركوا في قسم من الحروب الصليبية؛ واحتلوا الساحل المتوسط العربي كذلك، ومن خلالهم دخلت الكلمات العربية إلى اللاتينية ثم الفرنسية، ثم عبر الوسط الفرنسي دخلت الإنجليزية، لذا فالفرنسيون النورمان كانوا وسيطاً لعبور الكلمات العربية مرتين^(٢).

(١) مجهول: عندما التقى المسلمون بالفايكنج: مقال منشور بموقع عالم المعرفة .

<https://knowledge0world.blogspot.com/2017/01/vikings-and-islamic-civilization.html>

(٢) مهند الفلوجي: الفايكنج والإسلام: تاريخ منسيّ يوثقه معجم الفردوس: مقال منشور

بموقع فكر بتاريخ ٥/٦/٢٠١٥م

https://www.fikrmag.com/article_details.php?article_id=69

وفي النهاية يمكن القول: إن السفارات والتجارة كانتا من وسائل التواصل الحضاري بين المسلمين والفايكنج، وفي رأيي، إنها لم تقتصر على ذلك خلال هذه الفترة القصيرة، بل امتد هذا التواصل على أيدي العلماء والفقهاء الذين أقاموا هناك، ومن أسلم من أهل البلاد، إضافة إلى التجار المسلمين أيضًا الذين كانوا يترددون بتجارتهم على تلك البلاد.

التواصل الحضاري في صقلية:

كانت جزيرة صقلية في عهد النورمانيين مستفيدة أكبر الاستفادة من الحضارة العربية بمختلف تنوعاتها، فكيف كانت حضارة العرب في صقلية النورمانية؟

تعدُّ الحضارة العربية التي قامت في جزيرة صقلية حلقةً بالغة الأهمية في تاريخ الحضارات التي شهدتها هذه الجزيرة، مثل الحضارة الفينيقية والإغريقية والرومانية، ولا تأتي هذه الأهمية من أن هذه الحضارة استمرت قائمة ومزدهرة في صقلية بعد زوال الحكم العربي منها على يد النورمان فحسب، وإنما لأنها كانت أيضًا عاملاً مهمًا أسهم في النهضة الأوربية الحديثة، وكانت سياسة التسامح من العوامل الأساسية التي مكنت المسلمين في صقلية من إقامة هذه الحضارة التي مارسوها في حكم شعوب ذات أعراق وثقافات وديانات مختلفة، حيث سمح العرب لها بممارسة حريتها الدينية وعاداتها وقوانينها الخاصة بها، ويقول أحد رؤساء دير سانت كاترين في العاصمة الصقلية بالرمو: "إن رجال الدين المسيحيين كانوا أيام العرب أحرارًا في ممارسة واجباتهم الدينية ولم تُمس كنائسهم بسوء"^(١).

ولما دخل النورمان صقلية أدهشهم ما نقله المسلمون إليها من رقي وحضارة، وحقيقة، لقد بذلوا جهدًا في ترقيتها في كل جوانب الحياة حتى بدا

(١) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور بموقع مختارات من مجلة العربي الكويتية - يناير ٢٠١١ م

الفرق بينها وبين الدول التابعة لبيزنطة بعيداً جداً، شيدوا مبانٍ عظيمة، ونشطوا وسائل التجارة، وعملوا على استصلاح الأراضي وزرعها، وأدخلوا أنواعاً من النباتات ومن الحيوانات لم يكن للأوروبيين بها عهد ولا علم، إلى جانب ذلك كله، وجدوا فنوناً راقية وأدباً عالياً، وعديداً من المساجد بها حلقات التعليم، لدرجة أن ابن حوقل دهش لكثرة المساجد، في بلرم وحدها، وكانت هي العاصمة ومجتمع أهل الأدب ومنتجع طلاب العلم من سائر أنحاء صقلية، فنشاط الحركة التعليمية فيها كان سبباً في الاستكثار من المساجد يقول ابن حوقل عن كثرة المساجد: "وسألت عن ذلك فأخبرت أنّ القوم لشدة انفتاح رؤوسهم كان يحبّ كلّ واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يشركه فيه غير أهله وغاشيته وربما كانا أخواناً... وقد عمل كلّ واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه^(١).

وفي هذه المساجد وفي المكاتب، كثر المعلمون تبدأ بتعليم الكتابة العربية والقرآن الكريم، وتنتهي بدراسات عليا في علوم كثيرة دينية وغير دينية، وهكذا تقدم ورقي في كل شيء، وحقيقة لقد كان الفرق واسعاً جداً بين ما وجد العرب صقلية عليه بعد خروج البيزنطيين، وبين ما وجدها عليه النورمانديون بعد خروج المسلمين، وكان النورمان على قدر من الذكاء، وقد عرفوا به من قبل، لهذا لم يفعلوا بأثار المسلمين ما فعل بها الإسبان في الأندلس بعد صقلية - بزمن طويل - فقد أفتى القساوسة بأن المسلمين رجس وأثارهم نجس لا يطهره إلا إحراقه بالنار، حتى الجدران أفتوا بهدمها وإحراقها، وبهذا تأخرت حضارة إسبانيا، أما النورمان، فرعوا الإبقاء والمحافظة على حضارة العرب، وحاكوهم واستفادوا من كل ما تركوا إلا الدين الإسلامي، فقد كانت عداوة الإسلام، وعلى الأصح، كانت الصورة التي قرّرت في أذهانهم عنه مما يصعب محوه، ولكن

(١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلية (ت بعد ٣٦٧هـ): صورة

الأرض: دار صادر - أفسس ليدن - بيروت ١٩٣٨م ج ١ ص ١٢٠، ١٢١.

حضارة صقلية ظلت في تقدم لمدة طويلة بعد، وظلت مظاهر الحياة العربية بادية عليها، ولو تقبل النورمان الإسلام واتخذوه ديناً لكان عهد هذا الازدهار الحضاري أطول زمناً وأبقى^(١).

لكن ما هي العوامل التي جعلت النورمان يتخذون هذا الموقف الإيجابي من حضارة العرب في صقلية؟

يرى بعض الباحثين^(٢) أن الإجابة تكمن في الأسباب الآتية:

أولاً: سياسة التسامح الديني التي تبناها النورمان في حكمهم للجزيرة، فقد كان يسكن صقلية عندما استولى عليها الفايكنج (النورمان): العرب والإغريق واللاتين وغيرهم. وأدرك النورمان أن قيادة هذه الشعوب بنجاح وتحقيق التوازن بين مصالحها وتأمين سلامة الدولة، يقتضي تبني سياسة التسامح الديني ومراعاة عادات هذه الشعوب وتقاليدها.

ثانياً: تشجيع العلم والعلماء، حيث شغف الملوك النورمان بالعلم والمعرفة، وحظي العلماء باحترامهم وتشجيعهم، فهذا الإدريسي يقول عن روجر الثاني: "اخترع من المخترعات العجيبة وابتدع من الابتداعات الغربية ما لم يسبقه أحد من الملوك إليه، كما كان محباً لأهل العلم ويميل إلى مجالستهم، فكان الإدريسي يأتي إليه راكباً بغلة، فإذا صار عنده، تتحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معاً"^(٣).

ثالثاً: إن تفوق الحضارة العربية التي ورثها النورمان عن أسلافهم عرب صقلية من ناحية وضعف حضارة النورمان أنفسهم من ناحية أخرى شكل بدوره عاملاً مهماً

(١) إحسان عباس: العرب في صقلية (دراسة في التاريخ والأدب): دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى ١٩٧٥م صفحات متفرقة، عبد الجليل شلبي: حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوربية: مقال منشور بموقع رابطة العلماء السوريين بتاريخ ١/١٠/٢٠٠٩م.

https://islamsyria.com/site/show_articles/262

(٢) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور بموقع مختارات من مجلة العربي الكويتية.

(٣) الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله (ت ٥٦٠هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: عالم الكتب - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ج ١ ص ١، ٥.

شجع النورمان على احتضان حضارة العرب، فمن طبيعة الحضارة الأقوى أنها تفرض إنجازاتها، وبشكلٍ عفوي، على أصحاب الحضارة الأضعف، فحينما هاجر النورمان من نورمانديا إلى إيطاليا الجنوبية في أوائل القرن الحادي عشر، كانوا مجرد مرتزقة يخدمون بسيوفهم لمن يدفع لهم أكثر من القوى السياسية والدينية المتنازعة فيها، ولكن عندما فتحوا صقلية كان أمامهم إما الإبقاء على عقلية العصابات أو بناء دولة متحضرة، فأخذوا في الخيار الثاني، وتبنوا منجزات الحضارة الأكثر ازدهارًا وتقدمًا في الجزيرة وهي الحضارة العربية.

رابعًا: كانت العلاقات الودية التي قامت بين الملوك النورمان والعرب المسلمين في صقلية سهلت انتقال الكثير من مظاهر الحضارة العربية إلى أوساط النورمان، فالتسامح والعدل واحترام عادات العرب وتقاليدهم خلق لملوك النورمان الاحترام والمحبة بين عرب صقلية، فهذا ابن الأثير يقول عن الملك النورماني رجار الثاني^(١) (١١٣٠-١١٥٤م) إنه: "أكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج وأحبوه"^(٢).

ومن ثم لن نستغرب عندما نقرأ أن عرب صقلية أظهروا الحزن على وفاة أكبر أبناء رجار الثاني غليالم (وليم) الأول (١١٥٤-١١٦٦م) وأن النساء المسلمات في بلرم خرجن حين يلبسن الثياب الخشنة، وقد نشرهن شعورهن ومألن الفضاء بعويلهن، ورددن المرثي الشجية^(٣).

(١) رجار الثاني Roger II ولد سنة ١٠٩٥ م وتوفي سنة ١١٥٤ م أول ملوك النورمان بصقلية منذ سنة ١١٣٠ م. اشتهر بفتوحاته وتحويل بلاطه إلى مركز مشع للدراسات (محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار: تحقيق: علي الزواري، محمد محفوظ - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى، ١٩٨٨م ج ١ ص ٤١).

(٢) ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ج ٨ ص ٣٤٩.

(٣) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٤٩.

كما يظهر ابن جبير إعجابه الشديد بملكهم غليالم (وليم) الثاني (١١٦٦-١١٨٩م) من أنه حسن السيرة ويكثر استعمال المسلمين، كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين^(١).

إن هذه العلاقات الإنسانية بين الطرفين كانت إحدى القنوات المهمة في انتقال حضارة العرب إلى نورمان صقلية، كما أن العوامل السابقة مجتمعة، وغيرها، أسهمت في صياغة الموقف الإيجابي الذي اتخذته النورمان تجاه الحضارة التي ورثوها عن أسلافهم العرب. وبناءً على ما تقدم، فإنه يمكن أن نرصد بعضاً من مظاهر الحضارة العربية التي ظلت فاعلة في صقلية النورمانية في عدد من الميادين منها:

١ - الميدان الإداري:

كانت الصبغة الإسلامية الإدارية - خلا بعض الألقاب - وفقاً على المسلمين، إلا إن الصبغة الإسلامية عامة امتدت أيام النورمان إلى الكثير من نواحي الحياة؛ لأن الحضارة الإسلامية كانت غالبية على الجزيرة، وفي ظلها نشأ رجار وخلفاؤه، فوجدوا أنفسهم يقتبسوها ويفيدون منها، وقد وضحت هذه الصبغة في حياة البلاط نفسه، فتشبه رجار بملوك المسلمين في الاستكثار من الجنائب^(٢) والحجاب^(٣) والسلاحية^(٤) والجاندارية^(٥) وغير ذلك وخالف عادة

(١) ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ): رحلة ابن جبير: دار ومكتبة الهلال - بيروت - ص ٢٦٧.

(٢) الجنائب: قال ابن منظور: جناب الرجل: الذي يسير معه إلى جنبه، والجنائب هي الخيول التي تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها، (لسان العرب: ج ١ ص ٢٧٦، القلقشندي، صبح الأعشى ج ٤، ص ٣٨١).

(٣) الحجاب هو من يبلغ الأخبار من الرعية إلى الأمام، ويأخذ لهم الأذن منه (القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٤٩).

(٤) السلاحية: هم أولئك الذين يحملون سلاح الأمير أو السلطان (القلقشندي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٥٦).

(٥) الجاندار: هو الذي يستأذن على الأمراء في أيام المواقب عند الجلوس بدار العدل (المصدر السابق، ج ٥ ص ٤٦١).

الفرنج، فإنهم لا يعرفون شيئاً منها، وجعل له ديوان المظالم ترفع إليه شكوى المظلومين، فينصفهم^(١)، وتصفه الوثائق العربية ويلقبه الإدريسي بالملك المعظم المعتر بالله المقتر بقدرته^(٢).

كما إنه كان يتشبه بملوك المسلمين في تفخيم أبهة ملكه وزينته، وكان يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته " الحمد لله حق حمده"، وكانت الصبغة الإسلامية في الألقاب، فلقب الأمير يطلق على ناس من غير المسلمين، وأعلى لقب أمير الأمراء وأشيعها لقب القائد للمدنيين والعسكريين على السواء، وزاد هذه الصبغة وضوحاً أن اللغة العربية كانت إحدى اللغات الثلاثة التي أقرتها الدولة في سجلاتها، والأخريان هما اليونانية واللاتينية^(٣).

يتضح من ذلك أن ملك النورمان اتخذ الألقاب الإسلامية لنفسه ولدولته، كما إنه أنشأ ديوان المظالم الذي اقتبسه من المسلمين، وأبقى على الألقاب الإسلامية، وترك عادات الفرنج، وتشبه بملوك المسلمين في زينته وأبهته، وهذا دليل على انبهاره بحضارة المسلمين في صقلية.

٢ - الميدان الاقتصادي:

تذكر بعض المصادر: أن الكثير من النشاطات العربية ظلت قائمة ومزدهرة في العصر النورماني، فبالنسبة إلى الزراعة، فمع أن الحروب التي دارت بين النورمان وعرب صقلية قد ألحقت أبلغ الأضرار بالزراعة والفلاحين ووسائل الري، ولكن الزراعة استمرت في نهضتها التي شهدتها أيام الحكم العربي للجزيرة، فمن المعروف أن العرب أدخلوا إليها الكثير من المزروعات مثل: (الليمون والبرتقال والقصب والأرز والنخيل والقطن والبردي .. إلخ)، كما

(١) ابن الأثير: الكامل: ج ٨ ص ٣٤٩.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق: ج ١ ص ٤.

(٣) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٤٥.

أقام العرب شبكة واسعة من الترع والقنوات التي لا تزال آثارها باقية، ولم يغير النورمان كثيراً من النواحي الزراعية في صقلية^(١).

أما التجارة، فقد ظل معظمها بأيدي العرب أيام النورمان، ورغم أن تجار المدن الإيطالية، قد حصلوا على امتيازات تجارية في الجزيرة من قبل الملوك النورمان، إلا إن ذلك لم يقلل من نشاط التجار العرب في صقلية وعالم البحر المتوسط، وأكد ابن جبير ذلك بقوله إن "الأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها.." ^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن العملة التي أصدرها الملوك النورمان في صقلية كانت متأثرة بالعملة الفاطمية في شكلها وقيمتها، واشتملت على كتابات عربية ولاتينية وإغريقية وحملت رموزاً إسلامية ومسيحية^(٣).

وبالنسبة للصناعات، فكان هناك مصنع للحريز وآخر للتطريز بالقرب من القصر الملكي في بالرمو، وكان هذا المصنع يقوم بإعداد ملابس الملوك النورمان وتطريزها، ولاسيما الثياب الفاخرة التي توشى بالنقوش العربية واللاتينية، ومن الملابس التي صنعت في هذا المصنع عباءة الملك النورماني رجار الثاني (١١٣٠-١١٥٤م) التي ارتداها في حفل تنويجه ملكاً في بالرمو عام (١١٣٠م)، وكان قد صنعها نساخ عربي اسمه عبد الله، وهي مصنوعة من الحرير الثقيل القرمزي رسمت عليها شجرة نخيل تحمل ثماراً ذهبية، وعلى كل من جانبيها صورة أسد يضرب بمخلبه جملاً، وكانت الرسوم مطرزة بالذهب يحيط بها آلاف من اللآلئ وثلاث ياقوتات كبيرة، وقد كتب النساخ باللغة العربية على حافة العباءة عبارات تتضمن الدعاء للملك رجار الثاني أن يكون

(١) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ٧٣، عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور بموقع مختارات من مجلة العربي الكويتية.

(٢) ابن جبير: رحلته: ص ٢٧٣.

(٣) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية:

محبوبًا ويعيش في عزٍ ومجد وأن تتحقق آماله وتغمره السعادة طوال أيام حياته، كما كتب عليها مكان وزمان صنع العبادة في صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة^(١).

٣- ميدان العمارة:

ظل الفن المعماري في صقلية النورمانية يحمل الطابع العربي الإسلامي، فقد أقام الملوك النورمان في صقلية قصورًا بناها أسلافهم العرب، مثل قصر البحر العذب في بالرمو، كما شيّدوا قصورًا جديدة شيدها لهم المهندسون المعماريون العرب في بالرمو على هدي الطراز العربي الإسلامي مثل قصر العزيزة الذي شيّد في عهد وليام الأول وقصر القبة الذي شيّد في عهد وليام الثاني، وعندما زار ابن جبير صقلية رأى قصرين من قصور العرب، التي لا تزال قائمة، بالقرب من العاصمة، وهما قصر سعد وقصر جعفر^(٢).

كما استمرت المدن الصقلية تحوي المساجد والحمامات والفنادق والمباني الفخمة التي شيّدت على الطراز العربي وزينت بالرخام الثمين والفسيفساء الزاهرة. بل أسهم المعماريون العرب المسلمون في تشييد الكنائس والأديرة وزينوها بالفسيفساء العربية^(٣).

٤- الميدان الثقافي والعلمي:

استمرت ثقافة العرب وعلومهم في صقلية أيام النورمان، فعلى الرغم من أن المسجد قد تضاعف شأنه في العصر النورماني، وانهمزت الدراسات الدينية أمام الدراسات العلمية الأخرى، إلا إنه كان يقوم بدورٍ بالغ الأهمية في

(١) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٤٧، جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث: تراث الإسلام: ترجمة/ حسين مؤنس وآخرون - تحقيق/ شاكرا مصطفى - عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٥م ج ١ ص ٣٥٠، ٣٥١.

(٢) ابن جبير: رحلته: ص ٢٧٣، عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

(٣) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

الدراسات الدينية واللغوية والأدبية، ولما زار ابن جبير صقلية وجد المساجد فيها محاضر لمعلمي القرآن^(١).

وفي عهد النورمان أصبح القصر أو الأمير هو الكعبة الكبرى التي تحوم حولها العلوم كما تحوم الآداب كما إن اللغة العربية استمرت سائدة في الجزيرة في العهد النورماني إلى جانب اللاتينية والإغريقية، بل إن عددًا من الملوك النورمان، أمثال وليام الأول والثاني، كانوا يجيدون القراءة والكتابة والتحدث بالعربية، كما ازدهرت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وكان من أبرز المترجمين يوجين الأمير الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية بعض المؤلفات مثل كتاب (البصريات) لمؤلفه (بطليموس)، كما أسهم في ترجمة كتاب (كلىة ودمنة)، ودخلت صقلية في العصر النورماني كتب عربية كثيرة، فمثلًا استحضر الملك رجار الثاني عددًا كبيرًا من مؤلفات الجغرافيين العرب أمثال المسعودي وابن خرداذبة وابن العذري وابن حوقل واليعقوبي وغيرهم^(٢).

أما العلماء والشعراء العرب المسلمون الذين ظلوا في صقلية النورمانية، وغدا لهم شأن كبير لدى الملوك النورمان، فنذكر من العلماء: ابن ظفر الذي كان عالمًا في النحو واللغة والدين وشغل منصبًا رفيعًا في الدولة النورمانية، ومحمد بن عيسى، الذي كان عالمًا بالهندسة والنجوم، وابن المعلم الذي كان عالمًا باللغة وماهرًا بالطب وغيرهم. أما الشعراء الذين عاشوا في ظل النورمان ونظموا قصائد المديح لهم فنذكر منهم: عبد الرحمن الأطرابنشي وعبد الرحمن البثيري، وعمر بن حسن وسراج بن أحمد وابن بشرون وغيرهم، وتجدر الإشارة إلى أن الشعر الغنائي الذي ساد صقلية في العصر النورماني كان ممزوجًا بالأغاني العربية المنتشرة بين العرب المسلمين في بالرمو^(٣).

(١) ابن جبير: رحلته: ص ٢٧٣، إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٥٧.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق: ص ٤، ٥، إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٥٧،

١٥٩، ١٦٠، عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

(٣) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

أما علم الجغرافيا فكان من أبرز العلوم التي ازدهرت على أيدي العرب في صقلية النورمانية. فمن المعروف أن رجار الثاني كان قد دعا إلى بلاطه الجغرافي المغربي الشريف الإدريسي، وشمله بكل مظاهر التكريم، وأنجز الإدريسي برعاية هذا الملك وتشجيعه ثلاثة إنجازات علمية وهي:

أ- رسم صورة الأرض في دائرة من الفضة ووضع أقسام الأقاليم عليها.
ب- رسم مجموعة من الخرائط للعالم على الورق تفوق في دقتها ووضوحها خريطة بطليموس الشهيرة.

ج- ألّف كتابه المعروف وهو "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وهو الذي عرف بالكتاب الرجاري، وهو شرح لما ورد في المجسم الفضي الذي نحتت عليه خريطة العالم. كما وضع الإدريسي كتابًا آخر في الجغرافيا للملك وليام الأول بعنوان "روض الأانس ونزهة النفس"^(١).

كما حدث تطور كبير في تنظيم مهنة الطب في صقلية النورمانية بتأثير مباشر من الحضارة العربية، كما أن معظم أطباء الملوك النورمان كانوا من الأطباء العرب المشهورين ببراعتهم العلمية والتنظيمية، وقد أصدر رجار الثاني أمرًا يلزم فيه جميع الأطباء في المملكة بالحصول على إذن أو ترخيص خاص من موظف مختص وإلا تفرض عليهم عقوبات قاسية كالحبس ومصادرة الأموال، وقد أدخل هذا النظام من صقلية إلى الغرب الأوربي. وكان أساسًا صالحًا لإعداد طبقة من الأطباء الأكفاء^(٢).

كان هذا النظام الإصلاحي قد فعله قبل ذلك الخليفة العباسي المقتر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ / ٩٠٨-٩٣٤م) في مهنة الطب، فقد أصدر عام (٣١٧هـ / ٩٣١م) قانونًا بتحريم ممارسة مهنة الطب على أي طبيب ما لم يخضع لامتحان في

(١) إحسان عباس: العرب في صقلية: ص ١٦١، عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

(٢) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

الطب أمام لجنة من الأطباء برئاسة طبيبه الخاص سنان بن ثابت بن قرة، وكان من ينجح في هذا الامتحان يزود بترخيص أو إذن خطي يسمح له بممارسة المهنة، وكان سبب ذلك أن غلطا جرى على رجل من العامة من بعض المتطبيين فمات الرجل^(١).

ولا شك أن رجار الثاني قد علم بما فعله الخليفة من إصلاحات طبية عن طريق بعض المسلمين، فأراد أن يسلك مسلكه.

٥ - أثر المرأة العربية في العهد النورماني:

لعبت المرأة العربية دوراً حضارياً في المجتمع النورماني، فأزيائها انتشرت بين نساء النورمان، ويؤكد هذه الحقيقة ابن جبير بقوله: "وزي النصرانيات في هذه المدينة (بالرمو) زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن ملتحات منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور" (وكان ذلك عيد ميلاد السيد المسيح) وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائعة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن حاملات جميع زينة المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر^(٢).

كما إن الكثير من النساء المسيحيات في البلاط النورماني اعتنقن الإسلام بتأثير من المسلمات اللواتي يعملن في البلاط^(٣).

وفي النهاية يمكن القول: أن الحضارة الإسلامية في صقلية أثرت في النورمان أكثر مما تأثرت بحضارتهم، وكانت نواة وأساساً لحضارة النورمان التي

(١) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء: تحقيق/ نزار رضا - دار مكتبة الحياة - بيروت ص ٣٠٢.

(٢) ابن جبير: رحلته: ص ٢٧٤.

(٣) عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور.

قامت على أرضها، وقد كانت حضارة النورمان حضارة ضعيفة لم تستطع الصمود أمام الحضارة الإسلامية؛ وذلك لأنها حضارة إنسانية خالدة كخلود الرسالة السماوية، وقد أصبحت صقلية معبراً من المعابر التي انتقلت منها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

يقول مونتجمري اعترافاً بفضل الحضارة الإسلامية على أوروبا: " نحن - الأوروبيين - نجهل الفضل الذي تدين به ثقافتنا للإسلام، وفي بعض الأحيان، نستخف بمدى التأثير الإسلامي في تراثنا وأهميته، وفي أحيان أخرى نتجاهله كلياً، ولبناء علاقات جيدة مع العرب والمسلمين علينا الاعتراف بهذا الفضل كاملاً، فإنكاره ليس إلا كبرياء زائفاً"^(١).

أما عن التواصل بين النورمان وأوروبا، فقد أثر الغالبون والمغلوبون في بعضهم البعض تأثيراً باقياً، لا بسبب اختلافهم وتباينهم في الصفات بل بسبب تشابههم فيها.

(١) وليام مونتجمري وات: تأثير الإسلام في أوروبا العصور الوسطى: ترجمة/ سارة إبراهيم الذيب - جسور للترجمة والنشر - بيروت - الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م ص ١٤.

نتائج البحث

- بعد إلقاء الضوء عن هذا الموضوع: القرصنة وأثرها في التواصل الحضاري خلال العصور الوسطى الفايكنج (النورمان) أنموذجًا، فإن الباحث قد توصل إلى بعض النتائج منها:
- أن القرصنة هي اعتداء مسلح يقوم به بعض القراصنة على السفن بقصد النهب والسلب،
 - أو تحقيق منفعة اقتصادية أو سياسية.
 - تم استخدام اسم القرصنة لأول مرة كان منذ حوالي (١٤٠) سنة قبل الميلاد، ثم مرت بعد ذلك بعدة مراحل عبر العصور المختلفة.
 - كان الفايكنج (النورمان) من أبرز القراصنة في العصور الوسطى.
 - كانت هناك عدة دوافع نفسية، واقتصادية، واجتماعية، سياسية دفعت الفايكنج للقيام بأعمال القرصنة خلال العصور الوسطى.
 - هاجم الفايكنج (النورمان) سواحل أوروبا واعتدوا على بعض الدول الأوروبية كـ (فرنسا، إنجلترا، أيرلندا، وغيرهم)، وأحرزوا عليهم عدة انتصارات
 - أسس القراصنة الفايكنج (النورمان) لهم بعض المقاطعات في أوروبا كنورمنديا.
 - قام الفايكنج (النورمان) بعدة غارات على الأندلس الإسلامية منذ عام (٨٤٤م/٢٣٠هـ) خلال عصر الإمارة، وحتى عام (١٠٦٤م/٤٥٦هـ) خلال عصر ملوك الطوائف، وقاموا بتخريب بعض المدن والاستيلاء على بعض الغنائم والأسرى.
 - لم يحقق الفايكنج (النورمان) أهدافهم في الأندلس مثلما فعلوا في أوروبا؛ لأنها كانت البقعة المضيئة في أوروبا في ذلك الوقت وتحت حكم الدولة الأموية القوية التي اهتمت بكل شيء من علوم وفنون، إضافة إلى يقظة حكام الأندلس

واهتمامهم بالجيش وبالبحرية الإسلامية، ولذلك لم يحقق الفايكنج من حملاتهم عليها سوى بعض الغنائم التي استولوا عليها.

- استطاع الفايكنج (النورمان) الاستيلاء على صقلية الإسلامية عام (٤٨٤هـ/١٠٩١م) وأقاموا فيها دولة استمرت حتى عام (٥٩١هـ/١١٩٤م).

- أثبت البحث أن للقرصنة أثر كبير في التواصل الحضاري بين الدول وبين الحضارات المختلفة.

فمع أوروبا المسيحية:

- كان هناك تواصل حضاري بين الفايكنج (النورمان) ودول أوروبا، فقد أثرت حضارة الفايكنج وتأثرت بالحضارة الأوربية التي هذبت طبائعهم وعاداتهم، فاعتنقوا المسيحية وصاروا حماة لهذا الدين، واعتبروا أنفسهم أتباعاً للكنيسة، وشغفوا ببناء الكنائس والأديرة، كما شاركوا في الحروب الصليبية دفاعاً عن دينهم.

- تحول الفايكنج (النورمان) من قرصنة كل هدفهم السلب والنهب إلى الاستقرار وإقامة حكم ذاتي لهم، ومنذ ذلك الوقت أصبح لهم دول يحكمونها كنورمنديا وصقلية، وبالتالي راحوا يتعرفون على الحضارات التي كانت قائمة في هذه الدول قبل قدومهم إليها.
أما مع الدول الإسلامية:

- كان هناك تواصل حضاري بين المسلمين والفايكنج (النورمان) عن طريق بعض السفارات التي أرسلت بين الطرفين كسفارة ابن فضلان التي أرسلها الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٤م)، وسفارة يحيى الغزال التي أرسلها الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م).

- أكد البحث أنه بعد استيلاء الفايكنج (النورمان) على صقلية، فقد تأثروا بالحضارة الإسلامية في كل شيء، وحافظوا عليها في شتى الميادين الإدارية،

والاقتصادية، والمعمارية، والثقافية والعلمية. حتى أن المرأة العربية المسلمة أثرت في المرأة النورمانية.

- أكد البحث أن حضارة الفايكنج (النورمان) كانت ضعيفة أمام الحضارة الإسلامية؛ في صقلية، ولذلك فإنها أثرت في النورمان أكثر مما تأثرت بحضارتهم، وكانت نواة وأساساً لحضارة النورمان التي قامت على أرضها.

- أكد البحث أن صقلية كانت معبراً من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

- أثبت البحث أن حضارة الفايكنج (النورمان) لم تستطع الصمود أمام الحضارة الإسلامية وذلك لأنها حضارة إنسانية خالدة كخلود الرسالة السماوية، وقد أصبحت صقلية معبراً من المعابر التي انتقلت منها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

- أكد البحث أن الفايكنج (النورمان) أصبح لهم حضارة خاصة بهم كانت مزيجاً من الحضارات الأخرى الإسلامية والأوربية، ولذلك راحوا يعملون على ازدهارها ونشرها، مع احتفاظهم ببعض سماتهم الأولى كالحروب والتجارة والتنظيم الاجتماعي خاصة في أوروبا المسيحية.

- أظهر البحث أن الفايكنج (النورمان) أصبحوا أصحاب حضارة مستحدثة أثرت وتأثرت بغيرها من الحضارات الأخرى لاسيما الحضارة الأوربية المسيحية، والحضارة الإسلامية، وأصبح هناك تواصل حضاري مع هذه الحضارات.

وختاماً، فإني أسأل الله القبول وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧ م .
- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله (ت ٥٦٠هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: عالم الكتب - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء: تحقيق/ نزار رضا - دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: تحقيق/ إحسان عباس - دار العربية للكتاب - ليبيا ، تونس الطبعة: الأولى ١٩٨١ م.
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ): المسالك والممالك: دار الغرب الإسلامي - ١٩٩٢ م.
- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ): رحلة ابن جبير: دار ومكتبة الهلال - بيروت.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلية (ت بعد ٣٦٧هـ): صورة الأرض: دار صادر - أفست ليدن - بيروت ١٩٣٨ م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت ٨٠٨هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: المحقق: خليل شحادة - دار الفكر - بيروت - الطبعة: الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م .
- ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (ت ٦٣٣هـ): المطرب من أشعار أهل المغرب: تحقيق/ الأستاذ إبراهيم الإبياري وآخرون - دار العلم للجميع - بيروت - لبنان - ١٣٧٤هـ/١٩٥٥ م .
- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت. نحو ٦٩٥هـ):

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال - دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبعة: الثالثة ١٩٨٣ م.
- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس (ت بعد ٣١٠هـ):
رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة: دار السويدي - أبو ظبي الطبعة: الأولى ٢٠٠٣ م.
 - ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧هـ):
تاريخ افتتاح الأندلس: تحقيق/ إبراهيم الإيباري - دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/١٩٨٩ م
 - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ):
معجم البلدان: دار صادر - بيروت - الطبعة: الثانية ١٩٩٥ م .
ثانياً: المراجع العربية والمقالات:
• إبراهيم مصطفى وآخرون:
المعجم الوسيط: تحقيق المجمع اللغوي - تركيا - المكتبة الإسلامية الطبعة الثانية ٢١٣٩هـ.
 - إحسان عباس:
العرب في صقلية (دراسة في التاريخ والأدب): دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى ١٩٧٥ م.
 - أحمد عطية الله:
القاموس السياسي: دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٨ م.
 - أينهارد:
سيرة شارلمان: ترجمة/ عادل زيتون - دار حسان - دمشق - الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٨٩ م.
 - بسام العسلي:
سلسلة جهاد شعب الجزائر : دار النفائس - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦ م
 - جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث:

- تراث الإسلام: ترجمة/ حسين مؤنس وآخرون - تحقيق/ شاكِر مصطفى - عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٥ م.
- خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: دار الكتاب المتحدة - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى ٢٠٠٠ م.
 - سالم بن عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس: الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.
 - ستيفان رانسيما: تاريخ الحروب الصليبية: ترجمة/ السيد الباز العريني - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٩٣ م/ ١٤١٣ هـ.
 - سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ١٩٧٦ م.
 - السيد الباز العريني: تاريخ أوربا في العصور الوسطى: دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - شريف عبد العزيز: هجوم الفايكنج على العالم الإسلامي: مقال بموقع ملتقى الخطباء.
 - طه خضر عبيد: الحضارة العربية الإسلامية: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
 - عادل زيتون: الحضارة العربية في صقلية النورمانية: مقال منشور بموقع مختارات من مجلة العربي الكويتية - يناير ٢٠١١ م.
 - عبد الجليل شلبي: حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوربية: مقال منشور بموقع رابطة العلماء السوريين بتاريخ ١٠/١٠/٢٠٠٩ م.
 - عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسي: دار القلم - دمشق - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨١ م.

- عمر عبد المنعم إبراهيم:
الفايكنج والإمبراطورية الكارولنجية: رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة عين شمس - ٢٠٠٩ م.
- فيشر:
تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ترجمة / محمد مصطفى زيادة - السيد الباز العربي - دار المعارف - القاهرة - الطبعة السادسة.
- كافين رايلي:
بحث بعنوان العنف والانتقام: ترجمة/ عبد الوهاب محمد وآخرون - مجلة عالم المعرفة - مجلس الثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٤٠٥ هـ.
- كرزسيتوف ويلزيسكي:
تاريخ القرصنة، الموقع على شبكة الإنترنت: بعنوان
<http://www.Pitatesinf.com/detaif-phparliele-id>
- مايكل كرايتون:
أكلة الموتى عن مخطوطة ابن فضلان: دار الهلال - الطبعة الثانية ١٩٩٩ م.
- مجهول:
عندما التقى المسلمون بالفايكنج: مقال منشور بموقع عالم المعرفة.
- محمد مرسى الشيخ:
تاريخ أوروبا في العصور الوسطى : دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٩٠ م.
الممالك الجرمانية : دار الكتب الجامعية . الإسكندرية . ١٩٧٥ م.
- مريم آيت أحمد:
مستويات الحوار الحضاري: نقلا عن: مجلة حراء- العدد: ٣٢ لسنة ٢٠١٢ م.
- ممدوح حسين:
الحملات الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري: دار عمار - عمان - الأردن -
الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م.
- مهند الفلوجي:

- الفايكنغ والإسلام: تاريخ منسيّ يوثقه معجم الفردوس: مقال منشور بموقع فكر بتاريخ ٥/٦/٢٠١٥ م.
- موريس بيشوب:
تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ترجمة/ علي السيد علي - المجلس الأعلى للثقافة - الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م.
 - ول ديورانت:
قصة الحضارة: ترجمة/ زكي نجيب محمود وآخرين - دار الجيل - بيروت - لبنان - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
 - وليام مونجمري وات:
تأثير الإسلام في أوروبا العصور الوسطى: ترجمة/ سارة إبراهيم الذيب - جسور للترجمة والنشر - بيروت - الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م.
- المراجع الأجنبية
- Allen Mawer:
The Vikings camb. med hist .
 - Haskins:
The Normans in European History , New york 1959
 - Oman:
the Dark ages : London 1962.
 - Souza, Philip:
Ancient Rome and the Pirates (2000).

تخطيط الثغور الإسلامية وتحصينها في ساحل البحر المتوسط

مدينة المهديّة أنموذجاً ٣٠٨هـ / ٩٢٠م

د. مي السيد محمد

باحثة

الملخص:

مَنَّت البحار في تاريخ الحضارة أداة وصل حربياً وسلماً، وليس أدل على ذلك من حوض البحر المتوسط البؤرة الزاخرة للإشعاع الحضاري؛ فعلى جنباته نهضت العديد من الحضارات، ورغم اختلاف طبيعة الأقاليم المطلّة على حوض البحر المتوسط إلا أنه مثّل نقطة التقاء سواحل أوروبا الكثيرة الجزر وأشباه الجزر الجبلية الوعرة، وسواحل آسيا الجبلية الكثيرة التعاريج، وسواحل أفريقيا الرملية القليلة الغور والخلجان وأشباه الجزر وساهمت طبيعة سواحل البحر المتوسط في إنشاء مدن ثغرية وتحصينها بعد أن بدأ المجتمع الإسلامي الاشتراك في حياة وأحداث البحر المتوسط وأمتك القوة على الابتكار فيه.

وعُدّ نموذج مدينة المهديّة بموقعها الدفاعي حصناً بحرياً منتصباً وسط الساحل الإفريقي متحدياً الطبيعة والأساطيل البيزنطية والاموية ومتأهباً لصدّ كلّ تمرد بالمغرب وأفريقية؛ وقلما وجدنا في التاريخ الإسلامي مدينة قامت بدور مهم بحفاظها على دولة مؤسسها وتوجيهها لتاريخها كثغر المهديّة، وقد انعكست هذه الصبغة الحربية والثغرية على عمارة مدينة المهديّة وأمتزجت بملامح عقائدية بدت واضحة من خلال دراسة تخطيط المدينة والأليات المنتهجة لتحصينها في ٣٠٨هـ / ٩٢٠م.

تُلقي الدراسة الضوء على مدينة المهديّة كثغر بحري مهمته الدفاع عن حدود الدولة الفاطمية الشيعية التي نشأت في قلب الإمتداد السني وحمائتها من الأخطار الخارجية، وكعاصمة ملكية للفاطميين وخط الدفاع الثاني ومصدر إمداد الثغر، وبؤرة لإنطلاق الحملات العسكرية ومركزاً لجمع المعلومات والتفاصيل عن بلاد الإعداء، بالإضافة الي كونها ميدان للتأثير والتأثر في مجالات الحياة المتعددة، وتهدف إلي التعريف بالثغور وأهميتها،

وأظهار الأدوار التي أنتها الثغور من الناحية السياسية والعسكرية والأمنية ،وبيان دور الدولة الفاطمية لتعزيز الصبغة الدفاعية لمدينة المهديّة ومن ثمّ اتّسمها بصبغة وظيفية عملية .

ويتناول البحث هذه الدراسة في عدة مباحث ؛ يتعرض المبحث الأول : إلى أهمية ودواعي إنشاء الثغور عند المسلمين ،وأختيار موقع وتحديد موضع ثغر المهديّة في ضوء عدة اعتبارات أهمها تأثير طبيعة حوض البحر المتوسط و تضاريس قاعه على أختيار موقع مدينة المهديّة ،وتغير المفاهيم التي حكمت أختيار مواضع مدن الأمصار؛ بينما يستعرض المبحث الثاني: إنشاء المدينة الملكية وفق رؤية عمرانية ومعمارية عسكرية حربية أتضح في طريقة إقامة الأسوار وما يتخللها من أبواب وأبراج وأحاطتها بفصيل(خندق) زيادة في تأمينها ٣٣٣هـ/٩٤٤م ، أما المبحث الثالث : فيتناول منشآت مدينة المهديّة الدينية،والمدينة ذات الصبغة الدفاعية وأثر ذلك على تخطيط المدينة في ضوء أنماط مخططات المدن الإسلامية.

و يختم البحث بأهم النتائج والتوصيات ...

Summary:

In the history of civilization, the seas have represented a tool that connected war and peace, and the most evident of that is the Mediterranean basin, the abundant focus of civilization radiation. On its flanks many civilizations arose, and despite the different nature of the regions bordering the Mediterranean basin, it represented the meeting point of the coasts of Europe's many islands and rugged mountainous islands, and the mountainous coasts of Asia with many meanders, and Africa's sandy coasts with few gorges, bays and peninsulas. The nature of the Mediterranean coasts contributed In establishing and fortifying wealthy cities after the Islamic society began to participate in the life and events of the Mediterranean and

had the power to innovate in it. He considered the model of Mahdia, with its defensive location, a naval fortress in the middle of the African coast, defying nature and the

Byzantine and Umayyad fleets, and preparing to repel all rebellions in Morocco and Africa Rarely did we find in Islamic history a city that played an important role in preserving the state of its founder and directing it to its history, such as the gap of Mahdia, and this warlike character and loophole were reflected on the architecture of the city of Mahdia and mixed with ideological features that were clear through studying the city's planning and the mechanisms used to fortify it in 308 AH / 920 CE. The study sheds light on the city of Mahdia as a maritime outpost whose mission is to defend the borders of the Shiite Fatimid state that arose in the heart of the Sunni expansion and protect it from external dangers, and as the royal capital of the Fatimids and the second defense line and source of supply of the loophole, and a focal point for launching military campaigns and a center for collecting information and details on the countries of enemies, in addition to It is a field of influence and influence in the various fields of life, and aims to introduce the outposts and their importance, to show the roles played by the outposts in terms of politics, military and security, and to clarify the role of the Fatimid state to strengthen the defensive character of the city of Mahdia, and then characterized it with a

functional and practical nature. The research deals with this study in several sections: The first topic deals with the importance and reasons for establishing the stomata for Muslims, choosing a site and determining the location of the Mahdia gap in light of several considerations, the most important of which is the effect of the nature of the Mediterranean basin and the topography of its floor on the choice of the location of the city of Mahdia, and the change of concepts that governed the choice of locations for cities in the cities. While the second section reviews the establishment of the royal city according to an urban and military vision that became clear in the way the walls were erected and the doors and towers interspersed and surrounded by a (trench) faction, an increase in its security 333 AH / 944 CE, while the third section deals with the religious and civil facilities of the city of Mahdia of a defensive character and its impact on City planning in light of the patterns of Islamic city plans

تمهيد :

أدرك الفاطميون أهمية بلاد المغرب ، وتمكنوا من التغلب على الدويلات المستقلة عن الخلافة العباسية فيها ؛ وهم بنو مدرار في سجلماسة ١٤٠-٢٩٧ هـ / ٧٥٧ - ٩١٠ م^(١) ، والرستميون في تاهرت ١٦١-٢٩٦ هـ / ٧٧٩ - ٩٠٩ م^(٢) ، والأدراسة في المغرب الأقصى ١٧٢ - ٣٠٥ هـ / ٧٨٨ - ٩١٧ م^(٣) ، والأغالبة في تونس ١٨٤-٢٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩ م^(٤) ، وبتولي الخليفة عبيد الله المهدي^(٥) تخلت قبيلة كتامة عن تأييدها للفاطميين فضلاً عن تصدي فقهاء السنة في القيروان لمذهب وأفكار الفاطميين والتي كانت تخالف مذهبهم وأفكارهم . أقام الخليفة عبيد الله المهدي في بداية حكمه بمدينة رقادة^(٦) أولى حواضر الفاطميين في بلاد المغرب وجعل منها حصن يأوي إليه عندما يشعر بالخطر وهو بالفعل ماحدث

(١) عبد الحميد، سعد زغلول، ١٩٧٩، تاريخ المغرب العربي، ج٢، منشأة المعارف، الإسكندرية: ص ٤١١.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨٩.

(٣) تنسب دولة الأدراسة إلي إدريس بن عبد الله؛ الفار إلي المغرب الأقصى عقب موقعة فخ ١٦٩ هـ / ٧٨٧ م على بعد ثلاثة أميال من مدينة مكة المكرمة، للاستزادة راجع المسعودي (أبو الحسن بن الحسين بن علي ٢٨٣-٣٤٥ هـ / ٨٩٦ - ٩٥٦ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٣، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص ٣٣٦، ابن الأثير، (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، ٥٥٥-٦٣٠ هـ / ١٢٣٩ م) 1978م، الكامل في التاريخ، ج٥، دار الفكر، بيروت: ص ٧٠، ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي، ت. ٧٢٦ هـ)، ١٩٧٧ م، الأتيس المطرب بروض القرطاس، الرباط: ص ١٦.

(٤) تُنسب دولة الأغالبة إلي إبراهيم بن الأغلب الذي كان والياً على إقليم الزاب من قبل والي المغرب العباسي محمد بن مقاتل العكي، راجع؛ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، ت 732 هـ - ١٣٣٢ م) ١٩٧٩ م، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٤، بيروت: ص ١٩٥.

(٥) هو عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم وُلد بسليمه ٢٦٠ هـ / ٨٧٣-٨٧٤ م، ابن حماد (محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي القلعي أبو عبد الله ٦٢٨ هـ - ١٢٣٠ م) (د. ت)، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق عبد الحليم عويس وآخرين، دار العلوم، الرياض: ص ٣٥.

(٦) أسسها إبراهيم بن أحمد الأغلبي ٢٦١ هـ / ٨٧٤-٨٧٥ م تبعده عن القيروان أربعة أميال، البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن عمرو ٤٠٤ - ٤٨٧ هـ / ١٠١٤ - ١٠٩٤ م)، المغرب في ذكر بلاد =

أثناء ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد^(١)؛ والذي سبب متاعب كثيرة للدولة الفاطمية، مما دعى الخليفة المهدي إلي تأسيس ثغر المهدي لتصبح حاضرة لدولته لحصانة موضعها؛ ومن ثم حقق الخليفة أغراضه الدفاعية، الحربية، السياسية والدينية بإتخاذ ثغر المهدي مقر له، وعاصمة لملكه.

١ - أهمية ودواعي إنشاء الثغور عند المسلمين :

١-١ تعريف الثغور لغةً وأصطلاحاً :

الثغور لغة جمع مفرد ما ثغر، وهي كل فرجة في جبل أو بطن واد أو طريق مسلوكة^(٢)، والثغرة تعني الثلمة، يقال: ثغرناهم أي سددنا عليهم الثلم، والثغر هو المكان الذي يلي دار الحرب؛ أما الثغور اصطلاحاً فالثغر، بالفتح ثم بالسكون، وهو كل موقع قريب من

=إفريقيه والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ١٨٥٧، ص ٢٧، الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي ت ٥٧٤ - ٦٢٦ هـ) ١٩٧٩م، معجم البلدان، ج ٣، دار صادر، بيروت: ص ٥٥، مجهول (من أهل القرن السادس الهجري) ١٩٥٨ م، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية، ص ١١٦.

^(١) أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري من قبيلة زناته القاطنة في توزر، عمل والده في التجارة ببلاد السودان ورحل إلي تاهرت وسكن فيها، واشتغل بتعليم الصبيان في إحدى الكتاتيب وألّف حوله أتباع عظمه وفتح عدة مدن منها رقادة والقيروان، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣٠٢-٣٠٩، المقرئ، (أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئ، ت ٨٤٥ هـ) ١٩٤٧ م، أتعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ١، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة: ص ١٠٩-١٢٤.

^(٢) ابن منظور، (محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين الأتصاري الروبوعي الإفريقي، ت ٧١١ هـ) ١٤١٤ هـ، لسان العرب، ط. ٣، ج ٤، دار صادر، بيروت: ص ١٠٣، وأيضاً يوصف الفم بالثغر، كما جاءت بمعنى إنبات الأسنان أو سقوطها، فيقال: "أثغر الغلام إذا نبتت ثغره، وأثغر إذا ألقى أسنان"، وأيضاً يقال: "ثغر الصبي إذا سقطت أسنانه، وأثغر إذا نبتت بعد السقوط، ابن منظور، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٠٤، ابن دريد، (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ت ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط. ١، ج ١، دار العلم للملايين، بيروت: ص ٤١٢، ابن فارس، (أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين، ت ٣٩٥ هـ) ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، د. ط. ج ١، دار الفكر، ص ٣٧٩.

أرض العدو^(٣)، وهي موقع المخافة من فروج البلدان^(٤)، وهي المواضع الخطيرة من الحدود والتي يتسنى للعدو التسلل منها بسهولة إلى أرض عدوه، ولهذا تجب حارسيتها والعناية بها، بوضع حاميات بها؛ لتتغلل العدو ولتصدده من الولوج إليها^(١) أو هي المواضع التي تلي دار الحرب أو التي تكون حداً بين بلاد المسلمين وأعدائهم^(٢)، وتكون على الحدود المواجهة للعدو، وتشدن عادة بالمقاتلة وتخزن فيها المواد الغذائية والأسلحة، ويكون واجبها الأساس هو مواجهة الخطر الخارجي الموجه من قبل الأعداء^(٣)، كما يطلق على المدينة المقامة على شاطئ البحر ثغراً^(٤)؛ ويورد قدامة بن جعفر في كتابه "الخراج" تفصيلاً للثغور الإسلامية حيث جعلها ثلاثة أقسام: برية مواجهة لبلاد العدو من ناحية البر فقط، وبحرية تواجهه من ناحية البحر فحسب، والثالثة يجتمع فيها الأمران، فهي برية بحرية، يحارب المرابطون فيها الأعداء عن طريق البر والبحر^(٥).

٢-١ المقصود بالثغور:

ويُقصد بالثغور في هذا البحث هي مجموعة القلاع والحصون التي أقيمت على جبهات المواجهة مع الأعداء على طول حدود بلاد المغرب سواء كانت البرية أو البحرية وهي على

^(٣) الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي ت ٥٧٤ - ٦٢٦ هـ) ١٩٩٥ م، معجم البلدان، ط. ٢، ج ٢، دار صادر، بيروت: ص ٧٩.

^(٤) ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ت ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م) ٢٠٠٠ م، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندواوي ط. ١، ج ٥، دار الكتب العلمية، بيروت: ص ٤٨٣.

^(١) جواد علي (جواد) ٢٠٠١ م، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط. ٤، ج ٩، دار الساقي، ص ٣٢٣.

^(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ١٠٤.

^(٣) اليوزيكي، توفيق سلطان، (١٩٨٨ م)، الثغور ودورها العسكري والحضاري، وزارة التربية والتعليم العالي، بغداد، ط. ٣، ص ص ١٠-١١.

^(٤) معلوف، لويس معلوف، (د.ت)، المنجد في اللغة والأعلام، ط. ١٩، المطبعة الكاثوليكية، بيروت: ص ٧٠.

^(٥) قدامه، (قدامة بن جعفر بن قدامه بن زياد البغدادي، ت ٣٣٧ هـ) ١٩٨١ م الخراج وصناعة الكتابة، ط. ١، دار الرشيد للنشر، بغداد: ص ١٨٥.

هيئة خطوط دفاعية للتصدي للغارات المتكررة ، وتعتبر الثغور منطقة محفوفة بالمخاطر بسبب تعرضها الدائم للإغارة، واحتوائها على الدروب والمنافذ التي تسلكها الجيوش المحاربة من الطرفين، حيث كان يقام نطاق من التحصينات، على شكل حاميات عسكرية دائمة في المعازل الأمامية والممرات البحرية على تخوم السواحل ، والتي عرفت باسم الثغور^(١).

وكانت تلك المواقع تشحن بقوات تكون على أهبة الاستعداد، واجبها حماية الحدود والوقوف بوجه العدو، وتعطيل تقدمه حتى تصبح القوات الرئيسية جاهزة لمواجهة العدو بكل ثقلها، وقد زد من أهمية تلك المواقع سيطرة المسلمين على البحر المتوسط، فمنعوا بذلك البيزنطيين من تهديد برًا وبحرًا^(١).

٣-١ أهمية و دواعي إنشاء الثغور:

اعتاد حكام الدول منذ القدم أن يحموا حدود دولهم التي تفصل بينهم وبين غيرهم من الدول المجاورة، وأن يدافعوا عنها من خطر الاعتداء الخارجي، لاسيما إذا كانوا في حالة صراع مع جيرانهم أو كانوا عرضة لأطماعهم، ويلجأون في سبيل تحقيق ذلك إلى وسائل وأساليب متنوعة، مثل إقامة الموانع وبناء التحصينات وانشاء الثغور وتعزيزها وتطويرها^(٢).

(٦) البلاذري، (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ، ت ٢٧٩هـ - ١٩٢م) ١٩٨٨م ، فتوح البلدان ، دار الهلال ، بيروت : ص ١٨٤ .

(١) الطبري ، (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر الطبري ، ت ٣١٠ هـ) ١٣٨٧هـ ، تاريخ الرسل والملوك ، ط. ٢ ، ج ٣ ، دار التراث ، بيروت ، ص ٣٧٣ ، ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن يعقوب ، ت ٣٩٠ هـ) ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ، تجارب الأمم و تعاقب الهمم ، تحقيق: أبو القاسم إمامي ، ط. ٢ ، ج ١ ، سروش، طهران: ص ٢٩٠ ، العلي ، صالح أحمد، ١٩٨٣م، امتداد العرب في صدر الإسلام ، ط. ٢ ، مؤسسه الرسالة ، بيروت : ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) وقصة ذي القرنين الواردة في القرآن الكريم ليست ببعيدة عنّا، حيث أعان القوم الذين وصل إليهم وشكوا إليه من اعتداء يأجوج مأجوج، بإقامة سد وحاجز بين جبلين يمنع وصولهم إلى بلادهم ويمنع الاعتداء عليه والقصة مذكورة في أواخر سورة الكهف، راجع : الجعفري، أميرة بنت أحمد الجعفري ٢٠٠٦م، سياسة الدولة الأموية في إدارة الثغور الأندلسية ١٣٨هـ - ٤٢٢م، مجلة المؤرخ العربي، عدد ١٤ ، اتحاد المؤرخين العرب القاهرة ، ص - ٢٧٠

لقد اتخذت العلاقات الإسلامية البيزنطية طابعا عدائياً منذ بدأت المرحلة العالمية في تاريخ الدعوة الإسلامية، ذلك أن التوسع في الشام ومصر وبلاد المغرب تم على أنقاض النفوذ البيزنطي في تلك البلدان، وكان من الطبيعي أن تطمح السياسة الإسلامية إلى إسقاط الدولة البيزنطية لتؤول للمصير نفسه الذي آلت إليه الإمبراطورية الساسانية من قبل، ويدهي أيضاً أن تخطط ببيزنطة سياستها إزاء المسلمين على أساس استرداد ما فقدته من ولايات ثرية، والعودة إلى البلاد التي كانت تسيطر عليها قبل، وهذا ما تفسره مقولة الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حيث كان دائماً يردد ما ذكره الروم: "والله لو ددت أن درب جمرة بيننا وبينهم لنا مادونه وللروم ماوراءه"^(١)

وبناء على ذلك كان الصدام والصراع بين الطرفين لا مفر منه، حيث اتخذ أطوار من الصراع البري والبحري، فضلاً عن الصراع السياسي والدبلوماسي بالإضافة إلى التنافس الاقتصادي، ولطالما تبادل الطرفان الانتصارات والهزائم في هذا الصراع المرير الذي أسفر عن نتائج بعيدة المدى في تاريخ كل من الجانبين^(٢).

ولهذا حرص الطرفان على إحكام التحصينات على الحدود وإقامة معازل على طول الطرق الحربية وفي المواقع الحساسة ومناطق الاحتكاك، فنتج عن هذا الأمر نظام دفاعي دائم أطلق عليه المسلمون اسم الثغور، وأطلق عليه البيزنطيون اسم الثيمات^(٣).

هذا وقد شكلت الثغور خطوط الدفاع الأولى وأداة حجز ووقاية عن حدود العالم الإسلامي؛ وقد لعبت دوراً عسكرياً مهماً حيث كان يتم على أرضها الاستعدادات الحربية وتعبئة الجيوش والتهيؤ لملاقاة العدو، وكون أن الثغور هي أماكن ومعسكرات للرباط والجهاد والقتال ضد الأعداء، فكان لابد وأن تكون جاهزة ومستعدة على الدوام هي ومن

(١) الصلابي، علي محمد محمد ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م ، تاريخ الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار ، ط.٢ ، ج١ ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ص ٥٧ .

(٢) الغني، عبد الرحمن محمد العبد ، 1990، الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية ٣٣٩-٣٤٠ هـ / 660-٩٥٠م، حوليات كلية الأداب ، رقم ٧١ ، ص ١١ .

(٣) ليسترنج كي، د.ت. ، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس و كروكيس عواد (د. ط.) الكويت : مؤسسة الرسالة ، ص ١٦٠ .

يقطنها، الذين أتوها طمعا في أجر الجهاد فكانوا يشتغلون به وبما يعين عليه، لذلك اختلفت الحياة فيها عن غيرها من الأماكن، وكذلك اختلف النشاط اليومي فيها عن غيرها، ويتم منها تحرك وانطلاق الجيوش وقبل ذلك، كان يتم إرسال مجموعات مقاتلة للاستطلاع ونقصي الأخبار واستكشاف الدروب، وللإغارة على بلاد العدو القريبة منهم ويعود وينقل لهم المعلومات التي يبني عليها عمل الجيش في المستقبل، ولينصرف أولو الأمر من المسلمين على ماوصلهم من معلومات من أهل الثقة لديهم^(١)، فضلا عن حماية الجبهة الداخلية للثغور عقب مغادرة الجيوش حيث يقوم ولي الأمر بإغلاق باب المدينة كشكل احترازي ومن باب الاحتياطات الأمنية، خشية من قيام جواسيس العدو بالاطلاع على استعدادات المسلمين، ونقل صورة عن تجهيزاتهم وأعدادهم، ولمنعهم من القيام بعمليات إضعاف الجنود نفسياً وبث الإشاعات في صفوفهم، وقد كانت توصل الأبواب وتودع المفاتيح لدى صاحب الشرطة في الثغر.^(٢)، كذلك لعبت الثغور دوراً مهماً في الحرب النفسية مع العدو، نظراً لقربها من بلادهم، كونها البوابة التي يدخل منها الرسل والتجار والتي تنتشر فيها العيون، لذلك حرص المسلمون أن تبقى في حالة من الاستتار والجهاد الحقيقي في كل أوقاتها^(٣).

١-٤ اختيار موقع ثغر المهديّة :

تميز البحر المتوسط بشروط ملاحية محددة لكل قطاع جغرافي^(٤)؛ إذ ينقسم البحر ظاهرياً إلى قسمين غير متساويين في المساحة، بالإضافة لطبيعة البحر المتوسط من

(١) الهروي، (تقي الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي)، د. ت، التنكرة الهروية في الحيل الحربية، د. ط. (مكتبة الثقافة الدينية، ص ص ١٥ - ١٦ .

(٢) عباس، إحسان، ١٩٨٨م، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ . ط. 3، ج ٢٠، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ٢٥٣ .

(٣) ابن العديم، (عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، د. ت.) بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، د. ط. دارالفكر، ج ١، ص ١٩٨ .

(٤) David, Bramouille, Les Fatimides et la mer (909-1171), Islamic History and Civilization, Studies and Text, Editoriol Board, Seloastion Gunther, Brill I, P 23-24

حيث تضاريس سواحله وقاعه أذ أتسمت المنطقة بالضحلة قرب السواحل التونسية في الحيز الممتد حتى جزيرة صقلية^(٥) كذلك مناخه كنظام الرياح والتيارات الغير متطابقة تمامًا في كل الأحوال .

وفي منتصف القرن العاشر سيطر الفاطميون على شريط ساحلي كبير نسبيًا يمتد من محيط برقة إلى الساحل ومن الشرق إلى منطقة ناكور في الغرب يضاف إلى هذا صقلية التي كانت معظم موانئها تحت إشراف حكام باليرمو ومثل الفاطميون آنذاك قوة بحرية لا يمكن انكارها ؛ وهو ما وُضع بعين الاعتبار حينما قرر عبيد الله المهدي جريًا على عادة الدول الإسلامية في العصور الوسطى اختيار موضع حضرته وعاصمة ملكه ؛ فخرج ٣٠٠هـ/٩١٢ - ٩١٣ م يرتاد موضعًا على الشريط الساحلي في منطقة تونس وقرطاجة^(١) حتى ظفر ووقع اختياره على جزيرة الخلفاء^(٢) والتي ذُكرت في المصادر التاريخية بجزيرة القار^(٣)، وتقع المهديّة^(٤) على ساحل البحر المتوسط^(٥)، ومحاطة بالبحر

(٥) الجوهري ، يسري ، جغرافية البحر المتوسط ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ م ، ص ٩ .
(١) البكري ، المغرب ، ص ٣٠ ؛ الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٢٣ ابن عذاري (أبو عبدالله محمد المراكشي، ق. ٧٠ هـ.) البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق: ليفي بروفنسال، كولان، ليدن: ١٩٤٨م ، ج ١، ص ١٦٩ .

(٢) الحموي ، ج. ٥، ص ٢٣ ؛ إبراهيم ، حسن ، عبيد الله المهدي ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ م ، ص ٢٠٥ ؛ زبيس ، سليمان مصطفى، أثار المغرب العربي ، ط ١، تونس ١٩٥٨ م ، ص ٤٠ .
Creswell; The Muslim Architecture of Egypt, Oxford, P. 3.

(٣) ابن حماد ، أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم ، ص ٤١ .
(٤) عرفت المهديّة بالبيضاء أو ذات الهلالين على شبه جزيرة المزاق عبارة عن نتوء صخري داخل البحر ، النعمان ، (القاضي نعمان بن محمد، ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م)، أفتتاح الدعوة، تحقيق: فريحات الدشراوي ، تونس: ١٩٧٥م ، ص ٣٢٧ ، عرفت فترات تاريخية متعاقبة كشفت عنها الحفائر الأثرية وشيدت على أنقاض مدينة قديمة ومن أثارها الاغلبية قصر جمّة ، الحميري، (أبو عبدالله بن عبد المنعم ت ٩٠٠هـ/٤٩٤م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس ، ط. ٢، بيروت ١٩٨٤م ، ص ١٧٢ ويشير الجغرافي الفرنسي جون ديبوا أن البنية الجيومورفولوجية لولاية المهديّة تتراوح بين فترة العصر البليوساني والعصر البيولوجي الرابع .

(٥) الأضطخري، (أبو القاسم إبراهيم بن محمد، ٣٤٦هـ/٩٥٧م) المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحيني، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٣٣؛ المقدسي، (شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م)

من كافة الجوانب عدا الجانب الغربي^(١)، وتشكل هيئة كف على زند داخل البحر ويحدها شرقاً سوسه، تبعد عن القيروان ستين ميلاً^(٢) وعن تونس مائتين كيلومتر^(٣)؛ وأمتاز موقعها بشدة الحصانة^(٤) (شكل-١)

هذا وتعددت أسباب اختيار ثغر المهديّة حاضرة الدولة العبيدية نوردها لبيان أسباب تغير المفاهيم التي حكمت اختيار مواضع مدن الأمصار على مدار تاريخ الدولة الإسلامية؛ حيث دعت الضرورة بعد حروب الردة وبداية الفتوحات الإسلامية إلى الأقاليم إنشاء مدن بمثابة معسكرات للجيش ومراكز إدارية لإدارة الأقاليم المفتوحة كالبرصة ١٤هـ/٦٣٥م، الكوفة ١٧هـ/٦٣٨م، الفسطاط ٢١هـ/٦٤١م، القيروان ٥٠هـ/٦٦٥م، العسكر ١٣٣هـ/٧٥٠م. ثم تطورت هذه المدن وتحولت من مجرد معسكرات إلى مدن ذات معايير مدنية واضحة تمثلت فيها الحياة العربية وأرتبطت بأحداث التاريخ الإسلامي ارتباطاً وثيقاً في كل مراحلها، و مع تغير الظروف التاريخي، وأهتمام المسلمون بالبحرية^(٥)

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي خوربه، ليدن، ١٩٦٧م، ص ٢٣٦؛ الإبريسي، (أبو عبدالله محمد بن عبد العزيز ت ٥٦٤هـ/١١٦٨م) نزهة المشتاق في أختراق الأفاق، ج. ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص ١٢٨١؛ الحموي، معجم البلدان، ج. ٥، ص ٢٣٠؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦١؛ السراج، (محمد بن محمد الأندلسي ت ١١٤٩هـ)، الحلل السندسية في الأخبار Dark Hill التونسية، ج. ١، ق. ٤، تحقيق: محمد الحبيب الهيله، تونس ١٩٧٠م، ص ٨٩٧، Islamic Architecture in North Africa, London, P. 102

(٦) البكري، عبارة عن برزخ ممتد داخل البحر، راجع؛ المغرب، ص ٢٩.
(١) مجهول، الأستبصار ص ١١٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج. ١، ص ٢٠٧؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٦١؛ دياب، صابر محمد، سياسة الدولة الإسلامية، ط. ١، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٣م، ص ٩٥؛ الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف، تاريخ المغرب و الاندلس، مطبعة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ص ١٧٩.

(٢) Lezine, Mahdiya, Recherches D'Archeologie Islamique, Klimcksiech, 1965, P.13

(٣) الأضطخري، المسالك و الممالك، ص ٣٣؛ ابن حوقل (أبو القاسم أحمد النصيبي، ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) ١٩٧٩م، صورة الأرض، بيروت، ص ٧١.

(٤) Lezine, Mahdiya, P. 19.

تجلت النهضة الفاطمية بصورة واضحة في عنايتهم بالبحرية وكل ما يتصل بها، وقد بدعوا في ذلك منذ قيام دولتهم في المغرب، فقد عرفوا كيف يستفيدون من الإمكانيات البحرية الكبيرة التي تتيحها بلاد المغرب

تطلب الأمر إقامة مُدن ساحلية توفرت فيها عدة شروط لتأمينها وتحصينها "منها أن تكون متوعدة المسالك ، وحولها قبائل أو باستدارة بحر لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها ^(١)والجدير بالذكر، أن عبيد الله المهدي لم يحبذ فكرة الإقامة في رقادة أو القيروان إذ كانتا لا تصلحان في رأيه لتحقيق أغراضه السياسية ، الحربية والدينية فالمدينتان كانت تزخران بأنصار الأغلبية المعادين للفاطميين ^(٢)

فمدينة رقادة تقع في سهل فسيح جعلها عرضة للغزو من كل جانب ، والقيروان ضاعت وأستردت أكثر من مرة، ومن الضروري أن تُشير إلي حقيقة مهمة مؤداها أن اختيار عبيد الله المهدي لموقع ثغر المهديّة قام على فهم صادق لإوضاع وأحوال المغرب وأتجاهاته وتياراته المختفية ، فقد كان علم بإن دولته أقامها البرانس وأن البتر أعداءهم لن يركنوا إلي الهدوء بل سيرفعون لواء التمرد والمعارضة ^(٣)

لصاحب السلطان فيها، من السواحل الممتدة ذات المواقع الكثيرة الصالحة لإنشاء الموانئ وتوفر أخشاب السفن والحديد اللازم لصنعها، ثم وجود جماعات من أهل المهارة البحرية والقدرة على ركوب البحار على سواحل المغرب كلها من رقّة إلى طنجة؛ فمن الموانئ التي أنشئها العبيديون الفاطميون أو جندوا بناءها وأنشئوا دور الصناعة فيها: المهديّة وأصبحت من ذلك الحين حصن الفاطميين الأكبر، وتونس وسوسة وسفاس غنابة (بونة) وغيرها؛ ابن حيان (بن خلف بن حيان الأندلسي أبو مروان ٤٦٩هـ/١٠٧٦م)، المقتبس، من أخبار الأندلس، تحقيق؛ صلاح الدين الهوارى، ٣٥٣-٣٤٧ ابن الأثير، الكامل، ٨، ص ٢٨٤؛ فريجات الدشروي، الخلافة الفاطمية بالمغرب ٢٩٦-٣٦٥هـ/٩٠٩-٩٧٥م التاريخ السياسي والمؤسسي، السلسلة الجامعية، ترجمة حمادي الساحلي، ص ٢٧٤.

^(١) ابن خلدون، المقدمه، ص ٣٠٧، وما بعدها؛ ابن الأزرقي، (محمد بن علي بن محمد الأصبجي الأندلسي أبو عبدالله شمس الدين الغرناطي، ٨٩٦هـ/١٤٩١م)، ١٩٧٧م، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق؛ محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ج ٢، ص ٧٦٦-٧٦٧.

^(٢) إبراهيم، حسن، عبدالله المهدي، ص ٢٠٤-٢٠٥؛ إبراهيم، سنوسي يوسف، زناته والخلافة الفاطمية، ١٩٨٢م، ط ١، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ص ١٧٣؛ محمود، حسن أحمد، تاريخ المغرب والأندلس، ١٩٩٠م، مكتبة الثقافة، القاهرة، ص ٢٦٩.

^(٣) البكري، المغرب، ص ٣٠؛ محمود، حسن أحمد، مرجع سابق، ص ٢٠٧؛ Lezine, op Cit., P. 13

وقد كان الهدف الرئيس للمهدي تشيد حاضرة لتدعيم الوجود الفاطمي بالمغرب ولتصبح ملاًذا له ولإلهه يعتصمون فيها ضد أي ثورة^(٤) وهو الأمر الذي أوردته المصادر التاريخية بوضوح، وبالفعل أثبتت الحوادث صدق ظنون المهدي عقب ثورة ابن كيداد ٣٣٥هـ/٩٤٦م ولم يستطع أن ينال من المهديّة لمناعتها وحصانتها.

فضلاً عن اهتمام العبيديين الفاطميين العظيم بالأساطيل والقوة البحرية والجهاد البحري بهدف مواجهة البيزنطيين وردهم عن بلاد الشام، وقد قام الفاطميون بذلك ليظهروا أنهم حماة ثغور الإسلام دون العباسيين لهذا اهتم الخلفاء الفاطميون بالأسطول والجهاد البحري فأنشأوا ديوان الجهاد والعمائر ليضاهي بذلك خطة أشغال البحر، وأقاموا عليها قائداً يسمى صاحب أشغال البحر. واستطاع أسطول الفاطميين حماية سواحل مصر من عدوان الروم حتى زوال دولتهم، وكان أكبر معين للفاطميين على هذا النشاط البحري، أن سكان سواحل المغرب كانوا من المشتغلين بالبحر من قديم الزمان، ولهم دراية على ركوب البحر وجرأة عليه، وكانوا كذلك طوال تاريخهم، فأفاد الفاطميون منهم، وتنبهوا لأهمية السيطرة البحرية كوسيلة لحماية أرض الإسلام، وأساس للتجارة ومورد للمال، فإن نشاط الفاطميين في الإغارة على السواحل النصرانية كان مورداً من أكبر موارد المال عندهم، وقد اشتهرت أيام عبيد الله المهدي غارة قام بها أسطول فاطمي على وادي واري Oriá في كلابريا في إيطاليا عادت بغنائم وفيرة جداً، ومن ثم تحقق للثغر مركزاً تجارياً مهماً .

٢- إنشاء ثغر المهديّة^(١) :

(٤) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد، ص ٤٢-٤٣؛ ابن النعمان، أفتتاح الدعوة، ص ٣٢٨؛ ديباب، صابر محمد، مرجع سابق، ص ٩٨؛ Marcais, L'Art de L' Islam, Paris, 1946, P. 68.

(١) انعكست الصبغة الحربية والثغرية على عمارة المهديّة وامتزجت بملامح من العقيدة الفاطمية بدت واضحة من خلال دراسة تخطيط المدينة، وقد أطنب المؤرخون والآثاريون المعاصرون في استقراء هذه الظواهر إلا أن الإطلاع على بعض المصادر التي لم تنتشر إلا أخيراً كالمجالس والمسائرات للقاضي النعمان والجزء الخامس من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار للداعي أدريس ومقارنتها بما ورد في كتب الجغرافيين السابقين يسمح بالقيام ببعض الملاحظات الإضافية حول الموضوع .

٢-١ تاريخ بناء المهديّة ومساحتها :

أختلف المؤرخون في السنة التي وضع فيها المهدي أساس حاضرتة^(١)، بينما أكد التجاني إلي أن أنتقال المهدي لعاصمة ملكة عقب اتمام إنشاء القصور والصور وبعض مساكن حاشيته في ٣٠٨هـ/٩٢١-٩٢٢ م^(١) وبلغ موضع ثغر المهديّة والذي يتخذ شكل شبه جزيرة ١٥٠٠ متر طول فيما بلغ عرضها ٥٠٠ متر^(٢) بينما ذكر Creswell أن طول شبه الجزيرة حوالي ميل أي ١٥٨٠ مترًا والعرض ٤٠٠ متر^(٣)؛ ولم تشذ المصادر التاريخية إلي مساحة المهديّة، سوى ما أورده البكري حول الموضوع حيث ذكر أنه شرع المهدي في وضع حجر الأساس للمهديّة كان عرض المدخل من القبلة إلي الجوف مقدار غلوة تساوي ٤٠٠ ذراعًا أو ١٨٤.٤ متر وهذه المساحة تمثل منتصف العرض، وعندما نضيف الجزء الآخر يبلغ طول العرض ٨٠٠ ذراعًا أو ٣٦٩.٦ متر، ولكن عبيد الله وجد أن هذه المساحة لا تكفي لبناء كافة المرافق المخطط لها فدم من البحر مقدار غلوة وبالتالي يصبح عرض المهديّة ١٢٠٠ ذراعًا أو ٥٥٤ متر^(٤)

(٢) أكد البكري على ان البناء تم في ٣٠٠ هـ/٩١٢-٩١٣م ويتفق معه الحموي وابن عذاري؛ أما ابن الأثير فيرى ان البناء بدأ في ٣٠٣هـ/٩١٢م و يؤيده ابن الأبار، أبو الفداء، القلقشندي والمقريري للاستزادة راجع: البكري، المغرب ص ٣٠، الحموي، معجم البلدان، ج.٥، ص ٢٣٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ج.١، ص ١٦٩، Marçais, op cit P.121، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج.٦، ص ١٥١، ابن الأبار، الحلة السيرة، ج.١، ص ١٩٢، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٤٥، القلقشندي، صبح الأعشي، ج.٥، ص ١، المقريري، أتعاظ الحنفا، ج.١، ص ١٠١

(١) التجاني، (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) رحلة التجاني تونس طرابلس ٧٠٦ - ٧٠٨ هـ، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨١، ص ٣٢١.

(٢) مؤنس، حسين، تاريخ المغرب وحضارته، مج.١، ط.١، الدار السعودية للنشر، ١٩٩٠م، ص ٤٨١.

(٣) Creswell, Op cit, P.2; Marçais, Al Mahdiya Artile in the Encycloepadia of Islam, Tome III, P. 121.

(٤) "وعرض المدخل إلي المهديّة من القبلة إلي الجوف قدر غلوة ودم عبيد الله من البحر مثل ذلك وأدخله في المهديّة" البكري، المغرب، ص ٣٠؛ التجاني، الرحلة ص ٣٢٣ مشيرًا إلي قيام المهدي مباشرة الأعمال بنفسه؛ عبد الوهاب، حسن حسني، تاريخ تونس، ط. ٤، تونس: ١٩٦٨م، ص ٩٧؛ =

٢-٢ تحصينات المهديّة في المصادر التاريخية:

ذكرنا أنّاً أن موقع المهديّة ترك أثره الواضح في رؤية تحصينية دفاعية، وعمرانية ظهرت جلية في السور والأبراج والبوابات فأول ما شيد عبيد الله المهدي في حضرته السور؛ ولم يبن لها سور إلا في الجهة الغربية لارتباط الثغر بالبر من هذه الجهة حيث حُصن الموقع بإحاطة الماء له من ثلاث جهات الشرقية، الشمالية والجنوبية ولمناعة السور ومئاته وحصانته^(٥) ذكرته المصادر التاريخية في عدة أشارات

٢-٢-١ السور (لوحة-١)

بلغ طوله نحو ميلين وعرضه يتسع لفرسين يمشيان عليه^(١)، مُحصن ومُحكم البناء^(٢)، ويشبه سور (الرافقه) الرقة^(٣)، عقب أتمام بناء السور رمى عبيد الله المقمين بالبرج لإختبار ارتفاعه^(٤)؛ وما أشتمل عليه السور من أبراج وأبواب قدم مارمول كرخال وصفاً دقيقاً له حيث زار المهديّة قبيل أن يدمرها شارلكان ٩٦٠ هـ / ١٥٥٣ م^(٥).

شويار، رايح، المغرب العربي، ط.٢، الجزائر: ١٩٨١م، ص ١٨٦؛ صبحي، الصالح، النظم الإسلامية، ط.٤، دار العلم، بيروت: ١٩٨٧م، ٤١٦-٤١٧.

^(١)Lezine A.,Mahdia...,Paris, 1965. ;ROY,(Bernard),”Inscriptions arabes de Mahdia”, Revue Tunisienne,N°122, 1915, P. 29-34. ; Hannezo(C.), “Mahdia; notes historiques”, R.T.1907(P. 227-236,P.340-349, P.525-535) et1908 (P. 46-59,P.244-252, P. 412-421, P. 544)

^(١) البكري، المغرب، ص ٢٩؛ الإبريسي، نزهة المشتاق، ج ١، ص ٢٨٢.

^(٢) الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣١

^(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٣.

^(٤) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣٨.

^(٥) Marmol, 501 “ qui avançait de 40 pieds jusqu’ a la barbacane ...entre ces murailles et le viude des tours étaint les appartement du gouverneur et des Soldats”

شارل الخامس (1558 - 1500)، كان حاكم الامبراطورية الرومانية المقدسة من 1519 وللممالك الإسبانية [١٥١٦] حتى تنازله في 1556. قام بتوحيد عدة ممالك من ضمنها الإمبراطورية الرومانية المقدسة إسبانيا ناپولي و صقلية وهولندا البورغونية إضافة لمسعمرات إسبانيا في أمريكا ان الملك شارل الخامس محباً للآداب والفنون وراعياً لها، فقد أسس المكتبة الملكية، وجدّد بناء اللوفر، وشيّد قلعة الباستيل (التي صارت فيما بعد سجنًا)، وفرض ضرائب دائمة، وأعاد للنقد عافيته. وعندما =

٢-٢-٢ الأبواب والمداخل من خلال المصادر التاريخية :

دُعِم السور الغربي لثغر المهديّة بستة عشر برجًا، ثمانية منها ترجع لعصر الانشاء والثمانية الأخرى أُرخت بفترات متأخرة^(١)، ولها بابان ليس لهما شبيهاً ونظير على مثالهما عملا ومن شكلهما اتخذنا^(٢) ويقصد أبواب "الرقّة" من الحديد المصم، وجعل في كل مصراع من الأبواب مائة قنطار و لها أربع مصاريع^(٣) وزنة كل باب الف قنطار وطوله ثلاثون شبرا في كل مسمار من مساميره ستة أرتال^(٤)، ولكل باب منها دهليز يسع خمسمائة فارس، وزينت الأبواب بصور الحيوان بشكل الأسد^(٥)، نفذت بطريقة الصب من البرونز في أوضاع متقابلة، وهذه الأبواب حوافها الخارجية مقوسة ومدعمة بالحديد تدعيما يشبه الأبواب التي تنزلق من أعلى البرج^(٦)، أما الأبراج فعددها ستة أبراج برجان طرفيان مسقطهما مستدير و يمتازا بالارتفاع، بالإضافة إلي أربعة أبراج مربعة المسقط في منتصف السور^(٧) أما البرج الثاني من جهة الشرق^(٨) ويوجد أسفل هذا البرج قبو ضخم، وست بوابات على خط واحد هذه البوابات مغطاة بألواح سميكة من الحديد و البوابة الثانية بالترتيب من الخارج إلي الداخل صنّعت

=حصل الانشقاق عن الكنيسة الرومانية، وقف الملك شارل إلى جانب البابا كليمان السابع، و عن حملة شارل الخامس على تونس راجع ؛ جان لوي باكي جرامون ، أوج الأمبراطورية العثمانية ١٥١٢-١٦٠٦، تاريخ الدولة العثمانية، ج.١، ص ٢٣٢ .

(١) البكري ؛ ص ٢٩؛ الإدريسي ؛ ج.١، ص ٢٨٠؛ الحموي، ج. ٥، ص ٢٣٠-٢٣١ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٧٣ .

(٣) الحموي، معجم البلدان، ج. ٥، ص، ٢٣١ .

(٤) ابن خلدون ، العبر ، ج.٤ ، ص ٢٨ ؛ المقرئزي ، أتعاض الحنفاء ، ج.١، ص ١٠١

(٥) مجهول ، الاستبصار ، ص ١١٧ .

(٦) كَرِبْخَال ، مَارْمُول ؛ إفريقيا (١٩٨٨-١٩٨٩م) ، ج.٣ تعريب : محمد حجي وآخرون ، الجمعية المغربية

للتأليف والترجمة ، دار نشر المعرفة ، الرباط :، ص ص ٧٠-٩٣ ؛ إدريس عماد الدين

٨٧٢هـ/١٤٨٨م ، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، تحقيق: محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي

بيروت : ١٩٨٥، ص ٢٠٩ .

(٧) مَارْمُول ، إفريقيا، ص ص ٧٠-٩٣

(٨) صحح Creswell هذا الاتجاه على أنه جهة الغرب حيث لا يوجد مدخل اخر يربط الثغر بالبر .

من قضبان ضخمة من الحديد مثبتة في بعضها بدون أي استخدام للخشب وثبت في كل باب مصراعين^(٧)

٢-٣ تحصينات المهديّة إنشائيًا ومعماريًا من خلال الحفائر والدراسات الأثرية :

أمكنا رصد ما يلي من خلال تحليل ماورد في المصادر التاريخية ومطابقته بنتائج المسح والحفائر الأثرية ؛ تميز سور المهديّة الغربي بالسّمك (شكل-٢) وهو أمر متبع في إقامة أسوار المدن الكبرى كمدينة بغداد .

ويُبنى السور بحجر التلاتات^(١) المنحوت كتلته بهئية متوازي مستطيلات بقياسات محددة تم مراعاتها في البناء بحيث يختلف فيها الطول بينما يظل قياس عرض كتلة الحجر مساويا لارتفاعها مما أسهم في سهولة البناء ومثاقته وساعد على صغر حجم كتلة الحجر^(٢) ، علما بإنها نفس نوعية أحجار مئذنة جامع القيروان .

دُعم السور بالأبراج وعددها ثمانية موزعة على سور بطول ٤٠٠ متر أي أن المسافة بين كل برج حوالي ٥٠ متر وهي مسافة قصيرة تسمح بصد الهجمات من أعلى الأبراج ؛ بينما نُفذت تقنية وشكل وأرتفاع البوابة^(٣) في السور بتأثير مشرقى ولا عجب في الأمر كون ان عبيد الله المهدي نشأ في الشام .

(٧) مرمول ،ص ص ٧٠-٩٣ ؛ وقد طلب المهدي اختبار وزن مصراع الأبواب فاخبر ان لا سبيل إلي ذلك لإفراط ثقله فأمرهم أن يضعوا إحدى مصراعيه على ظهر سفينة ففعلوا ونظر إلي منتهى غوص السفينة في الماء ثم أنزل وشحنت السفينة بالرمل و الحجارة إلي أن وصل منها ما وصل أولا ، هو استخراج الرمل منها ، فوزن على كرات فكان وزن كل مصراع مائه قنطار ؛ راجع التجاني ، الرحلة ،ص ٢٢٣ .

(١) هي أحجار ذات حجم موحد من الحجر الرملي .

(٢) عبد الجواد ، توفيق أحمد ، معجم العمارة وإنشاء المباني ، القاهرة ، مؤسسة الأهرام ، ١٩٧٦م ، ص ١٢٥ .

(٣) تشير المصادر إلي أن أرتفاع المدخل الرئيس ٣٠ شبر ، والشبر حوالي ٢٣سم وهو أرتفاع موافق للتقاليد الإسلامية وقد جرى العرف بأن يحدد هذا الارتفاع بما يعادل ارتفاع فارس راكبًا فرسه ورافعًا رمحه ؛راجع؛ البكري ،المغرب ،ص ٢٩ ، ابن الرامي البناء (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللّخمي)، ١٩٩٩م، الإعلان بأحكام البنيان ، تحقيق: فريد بن سليمان ،مركز النشر الجامعي ، تونس ،ص ١٨٦؛ عثمان ، المدينة الإسلامية ، ص ١٧٤ .

أما على مستوى التخطيط فالمدخل الرئيس لثغر المهديّة كان من نوعية المداخل التي تخترق برجًا واحدًا ضخماً مثل باب بغداد في مدينة الرقة ويؤدي هذا المدخل إلي دهليز مقبى بطول حوالي ٤٥ مترًا رُكِب عليه ست بوابات متتالية لعرقلة العدو ويسع هذا الدهليز يسع ٥٠٠ فارس "سُمي بسقيفة الكحلة" (شكل-٣، لوحة-٢) من شدة إظلامه ويكتنف المدخل الرئيس برجان كلاهما بهيئة مضلع نصف مئمن بأرتفاع حوالي ٢٠مترًا وشُغِل الدهليز بست دخلات بلغ عرض الفتحة المحصورة بين البرجين ٣.٥٠ متر تتسع بشكل ملحوظ لوجود ارتدارين في البرج الجنوبي لتصل لحوالي ٤.٨٠سم تقريبًا وتنتهي ببروز في الجانبين في القطاع الأخير من الدهليز الذي يمثل فتحة بأتساع ٣ متر تقريبًا ، أما الدخالات الست على جانبي الدهليز متساوية الاتساع ٣.٥ متر بعمق ١ متر وأرتفاع ٦٥ سم من مستوى أرضية الدهليز ومعقودة بعقود نصف مستديرة^(١) ؛ والجدير بالتسجيل ان جانبي الدخلة الاولى والثالثة والخامسة والسادسة فتحاتها على هيئة معمارية تأخذ شكل فتحة البوابة وهو الأمر الذي يتوافق مع وصف مارمول كرخال حيث أورد أن القبو الذي يمر أسفل برج البوابة يشتمل على ست بوابات ذات مصاريع ،اما الدخلة الثانية مختلفة ونفذ بابها بقضبان حديدية ضخمة مثبتة إلي جانب بعضها بهيئة مقوسة من أعلى ومصاريع قوية ، والمؤكد استخدام الحديد استخدامًا أساسيًا دون غيره من المواد وصنع بهيئة طبقات ثبت بعضها مع بعض بمسامير البرشام .

٢-٤ الأهمية الوظيفية لتحصينات المهديّة :

نستطيع أن نجمل عدة أمور في ضوء ما قدم أنفًا حول نتائج المسح والحفائر الأثرية في ثغر المهديّة أهمها^(٢) :

^(١) Marçais (G.), Manuel D' Art Musulman , Tunisie , Algérie , Maroc , Espagne , Sicile . V.I.Paris,1926, P. 132 .

^(٢) Djelloul (Neji), Mahdia capital des Fatimides ,Sousse , Contraste Editions , 2003; "Histoire topographique de Mahdia a l' époque Ottomane " Actes du 2eme seminaire sur la mer .CERS, Tunis, 2001

- حرص المنشئ على سمك السور لإدائه وظيفة دفاعية أرتبطت بوسائل أساليب الدفاع عن المدن في العصور الوسطى حيث يمثل السور خطأً حسيباً من الرماة الذين يعتلون سطح السور كخط دفاع أعلى ؛ وتمكن سماكة السور من التغلب على الأعداء بالنقب ، كذلك أرتبط سمك السور بإرتفاعه الذي يعوق أي محاولة لتسلقها فكلما زاد الأرتفاع كلما زاد السمك .

- أستخدمت الروابط الرخامية في البناء وذلك بوضع أعمدة من الرخام بغرض بناء السور بحيث يبدو قطاع طرفي العمود في وجهي السور الخارجي والداخلي في هيئة قرص دائري يمنع سقوط السور الذي يعلوه بسهولة حيث يحمل البناء فوقه من حشو بناء السور كما يربط جيداً وجهي بناء السور وبذلك يضعف من عملية نقبه .

- حماية البوابة ببرج المدخل يؤدي إلي غرض الدفاع والحماية وفق تقدير يتوافق وأساليب الهجوم والدفاع في العصور الوسطى وأدواتها واسلحتها .

- تعدد البوابات على التوالي مهمة في التخطيط الدفاعي وهدفها عرقلة العدو في حالة نجاحه في اقتحام المدخل الرئيس .

- إظلام الدهليز (السقيفة الكحلاء)^(١) واعتماد الرؤية على الضوء الأتي من فتحات الدهليز أوله وأخره و فتحة ثالثة في منتصف سقف الدهليز على هيئة شخشيخة من الأساليب المهمة في التخطيط العسكري حيث ان المهاجم لبوابة مدينة ودهليز مدخلها لا تتوفر فيه رؤية جيدة بينما تتوفر للجنود المرابطين في الدخلات على جانبي الدهليز رؤية تكيفت أبصارهم عليها وتمكنهم من الأنقضاض على المهاجمين .

(١) زيبس، سليمان مصطفى ، بين الآثار الإسلامية في تونس ، منشورات ، تونس، ص ٦١ ؛ وللاستزادة حول هذا الموضوع راجع ؛ الرماح ، مراد ، ١٩٧٧ ، المواقع والمعالم بالبلاد التونسية ، شهادةالتمعق في البحث ، دراسة مقارنة بتونس؛ ١٩٩٦ ، ملاحظات حول تخطيط مدينة المهدية وعمارتها في العهد الإسلامي المبكر ، سلسلة مجلة إفريقية ، عدد ١٤ ، المعهد الوطني للتراث ، وزارة الثقافة التونسية ، ص ص ١ - ٢٧ .

- استخدام الحديد في الأبواب حتى تقوى على خطر تعرضها للحريق وهو ما يلجأ إليه المهاجمون لأبواب المدن في العصور الوسطى والتي تصنع من الأخشاب؛ كما أن الحديد يقوى على ضربات المناجنيق والآلات النقب .

- تقارب الأبراج المشتمل عليها السور من بعضها البعض يساعد على اماكن التغطية بسهام الرماة تغطية دفاعية كثيفة .

- ومن الجدير الإشارة إلي ما أوردته المصادر التاريخية عن وجود خندق خارج سور المهديّة حيث عُد من منظومة العناصر المعمارية الحربية لهذا الثغر وأنشي في عهد القائم ابن المهدي ٣٣٣هـ/٩٤٤م حول أرياض^(١) المهديّة وزويلة^(٢) .

٣- منشآت ثغر المهديّة : (لوحة -٣)

مازال هناك بعض شواهد ثغر المهديّة التي أسسها الفاطميون تتمثل في بعض العناصر المعمارية الباقية للمسجد الجامع وميناء المهديّة؛ أشارت المصادر التاريخية إلي البعض الآخر الذي اندرس ، ونوهت عن بعض ملامح تخطيط الثغر كقصر الخليفة عبيد الله المهدي ، وقصر أبنة ومساكن الجند والحاشية ، ودار الصناعة واهراء القمح ، والجباب ، ومصانع الماء ، دار المحاسبات، دار الطراز ، دار الضرب ، والأسواق والحمامات ؛ وأرياض ؛ وفي ضوء ما بقي من آثار يمكننا إعطاء لمحة عن تخطيط المدينة . (شكل - ٤)

٣-١ المنشآت الدينية :

٣-١-١ المسجد الجامع : (لوحة-٤)

كان إنشاء المساجد الجامعة من محاور التخطيط الرئيسة لأي مدينة إسلامية مبكرة لما للمسجد من دور مهم في تأكيد السلطة السياسية للدولة ؛ لذا حرص عبيد الله المهدي على ذلك من هذا المنطلق حيث ان دولته اختلفت مذهبها عن المذهب السني

(١) الرِّيْضُ: هو ما حول المدينة .

(٢) Creswell, op.Cit., P. 5.

للخلافة العباسية والخلافة الاموية في الاندلس ، وكشفت المصادر التاريخية^(٣) عن مدي حرص عبيد الله على اختيار موضع الجامع في ثغر المهديّة بدم جزء من البحر ، ولعلّ مدافعه إلي ذلك هو حصانة هذا الموضع الذي يحيط به البحر من ثلاث جهات . (شكل - ٥)

وقد وقع على عمارة المسجد الجامع تعديلات وأصلاحات وترميمات معمارية عديدة شملت معظم أروقته^(١) بالإضافة إلي الميضأة والمئذنة الحديثة ورغم تبدل معظم وحداته وعناصره إلا أنه مازال يشتمل على وحدات وعناصر معمارية فاطمية أصلية

الوصف المعماري للمسجد : (شكل - ٦)

تخطيط المسجد مستطيل يبلغ قياسه ٨٢ م X ٦٠ م واجهته الرئيسيّة هي الشماليّة وتضم هذه الواجهة العناصر الوحدات والعناصر الأصليّة في المسجد .

المدخل الرئيسي : (لوحة - ٥)

يتوسط المدخل الواجهة الشماليّة للجامع من النوع البارز عن سمت الواجهة عبارة عن كتلتين بارزتين على الجانبين مسقط كلاهما مستطيل قياسه ٨.٥ X ٣ X ٩ م ويربط الكتلتين من أعلى عقد حدوة فرس بإتساع ٤ م ويؤدي إلي دهليز (ممر) يغطيه قبة وينتهي بفتحة باب يعلوه عتب ثم عقد عاتق ويتوصل من هذا الباب لداخل الجامع .

يكتنف فتحة الباب المطلّة على الجامع دخلتان يعلو كلاهما عقد حدوة فرس يعلوهما دخلتان ثم عقد نصف دائري ، وفي طرفي الواجهة الشماليّة كتلتان بارزتان يبلغ طولهما ٧.٨ متر وهما عبارة عن جزعين باقيين من قاعدتي مئذنتين أصليتين ركنيتين ، أنشئت مع بناء الجامع لكنهما تهدمتا^(٢) .

(٣) " فرم في البحر مقدارها وأدخله في المدينة فأتسعت والجامع الأعظم الآن والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ما ردم في البحر " ؛ التجاني ، الرحلة ، ص ٣٢٣ .

(١) قدم Lezine في دراسته الوافية عن جامع المهديّة أربع مخططات للمسجد محدداً الإضافات في كل مرحلة

(٢) نجد لهما ما يماثلهما في الواجهة الغربية لجامع الحاكم بأمر الله في مدينة القاهرة .

المسجد من الداخل :

يؤدي الباب إلي الرواق الشمالي وهو عبارة عن سقيفة تغطيها أقبية متقاطعة وتطل على صحن الجامع ببائكة من ١٣ عقد ويبدو بوضوح عمق القطاع الشرقي على يمين الداخل من القطاع الغربي (من ضمن التعديلات حيث ان مخطط المسجد زمن عبيد الله يوضح انه يوجد حول الصحن من الجهات الشمالية والشرقية والغربية رواق مكون من بلاطة واحدة)

صحن الجامع :

تخطيطه مستطيل الشكل ،قياسه ٣٥x٥٠ م ،ويطل عليه من الجانب الغربي رواق ببائكة من ٩ عقود محمولة على دعائم حديث البناء ،ومغطى بأقبية متقاطعة .

مقدم الجامع :

أكبر الاروقة ويشغل مساحة مستطيلة قياسها ٢٣ x٣٠ م،ويكتنف الرواق من الجانبين فناءان مكشوفان ويتكون الرواق من تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة (١) (الرواق حديث) ، ويشتمل جدار القبلة على محراب تشير كتابات إلي تجديده ١٣٣٤هـ/١٩١٥م وخلفه جدار القبلة الأصلي والمحراب الأصلي للجامع .

المحراب : (شكل-٧)

قدم ليزين صورة للمحراب الأصلي للجامع ،وعقد كريسويل مقارنة بينه وبين محراب جامع صفاقص محاولة منهما للوصول لشكل المحراب الأصلي (٢) وهو عبارة عن حنية يبلغ أوسعها ٢ متر وعمقها متر زُحرف قطاعه السفلي بقنوات غائرة تتصل بينها ضلوع بارزة وتعلو هذه الضلوع طواقي صغيرة مفصصه في هيئة الصدفة تتكون من خمسة فصوص أو عشرة بالتناوب على التوالي ،ويوجد ركنان مرتدان يكتنفان حنية المحراب ،القطاع العلوي من المحراب عبارة عن نصف قبة .

(١) قدم البكري وصفاً يشير إلي ان الجامع يتكون من سبع بلاطات

(٢) Creswell, op.Cit., P. 7

وفي إطار الوصف نستطيع ان نحدد العناصر الفاطمية الأصلية في المسجد ونحصرها في: الواجهة الغربية، المدخل الرئيس البارز^(١)، جدار القبلة القديم، المحراب القديم.

٣-١-٢ مصلى العيد :

أوردت المصادر التاريخية عدة إشارات إلي مصلى العيدين بثغر المهديّة حيث ذكر التيجاني في خصوص أحداث الصراع بين القائم بن المهدي وأبي يزيد بن كيداد "وصل إلي مصلى المهديّة فلم يبق بينه وبين المهديّة إلا رمية سهم حسبما أنذر به المهدي عند بناء سورها"^(٢)؛ مما يعني أن بناء مصلى العيد في المهديّة كان خارج أسوارها على بعد رمية سهم وقد جرت العادة بإنشاء مصلى العيد عادة في المدن الإسلامية خارج أسوارها حتى لا تشغل جزءا من المدينة التي تحيط الأسوار و خاصة أنها لا تستخدم إلا مرتين في العام لصلاة عيد الفطر و عيد الأضحى وأحيانا لصلاة الأستسقاء .

٣-٢ المنشآت المدنية:

٣-٢-١ القصور: (شكل - ٨)

تابع عبيد الله المهدي إنشاء المنشآت وكانت قصور المهديّة نواة هذه المنشآت وتكونت تلك القصور من قصر عبيد الله المهدي وله باب غربي^(٣) ويطل على البحر^(١) وزينه بطيقيّن الذهب^(٢) وليّ عهده في الجهة الشرقية ،ويقع بين الميدان والجامع وكان يفصل بينهما ميدان للاستعراضات^(٣)، وذات التخطيط تكرر في مدينة القاهرة ،وقد أشار

(١) جرت العادة بإنشاء مداخل المساجد الجامعة قبل ذلك في مستوى سمت الواجهات وكان ظهور هذا المدخل البارز لأول مرة في عمارة هذا الجامع ثم ظهر في جامع الحاكم ٣٨٠-٤٠٣ هـ / ٩٩٠-١٠١٣ م، الأقمّر ٥١٩ هـ / ١٢٥ م ، الصالح طلائع ٥٥٥ هـ / ١١٤٠ م .

(٢) التيجاني ،الرحلة،ص ٣٢٣ .

(٣) عبد الحميد ، سعد زغول ،تاريخ المغرب ، ج ٣ ، ص ٩٦ .

(١) العمري ،امال، العمارة في العصر الفاطمي ،ص ٣؛ زبيس ،ص ٦١ ؛ Creswell; P. 3

(٢) ابن حماد ،أخبار ملوك بني عبيد ،ص ٤٢ .

(٣) عبد الوهاب ،حسن حسني ،ص ص ٢٠٥-٢٠٦

البكري إلي هذه المباني تتسم بالسرية أي أن فيها عناصر ووحدات أهتم بجعلها غير معروفة كالسرايب^(٤) كذلك نوه ابن حوقل لارتفاع المباني وأكد على الأمر ناصر خسرو .

٣-٢-٢ الدور:

بُنيت بالمهدية دُور للحاشية ورجال الدولة^(٥)، أكد ابن حوقل على نظافة و جمال بيوت المهديّة بقوله " نظيفة المنازل والدور"^(٦)، ونوه الإدريسي لحسن مبانيها بقوله "ولها حسن لطيفة نظيفة المنازل"^(٧)، ولم تقدم حتى الآن دراسة أثرية حول دور المهديّة وربما كانت تشبه منازل القاهرة^(٨) .

٣-٢-٣ دار الصناعة : (لوحة-٦)

حدد ابن الأثير والمقريزي موضعها^(٩) ونوه البكري لبعض ملامحها المعمارية^(١٠) وأظهر ابن عذاري إعجابه الشديد بصناعة السفن بدار الصناعة^(١١) وأكد التجاني على ما أورده البكري^(١٢) مما يفيد ان هذه الدار ظلت عامرة لعدة قرون، ويكشف وصف البكري مساحتها المتسعة^(١٣)، وضخامة حجم الأعمال التي كانت تتم فيها واشتملت الدار على مبنين لحفظ الآلات التي استخدمت في صناعة الاسطول الفاطمي وإصلاحه وكانا بتخطيط مستطيل يغطيها أقبية طولية مما يؤكد ضخامة إنتاج الدار لتكفي احتياجات

(٤) البكري ، المغرب، ص ٣٠ .

(٥) زيبس، الآثار الإسلامية في تونس ، ص ١٢ .

(٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٧١ .

(٧) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج.١، ص ٢٨١ .

(٨) Djelloul (Neji), Mahdia capital des Fatimides ,Sousse , Contraste Editions , 2003; "Histoire topographique de Mahdia a l' époque Ottomane " Actes du 2eme seminaire sur la mer .CERS, Tunis, 2001 .

(٩) ابن الأثير ، الكامل ، ج.٦، ص ١٥١ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا، ج.١، ص ١٠٢

(١٠) البكري ، المغرب ، ص ٣٠ ؛ زغلول ، ج.٣، ص ١٩٦ . ، Creswell, P., 3 , Gautier, P., 321 .

(١١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج.١، ص ١٥١ .

(١٢) ذكر التجاني ، أنها من عجائبي الدنيا ، الرحلة ، ص ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(١٣) راجع حاشية (١) ص ٤١ ، عثمان ، محمد الستار ، ٢٠٠٦م، العمارة الفاطمية ، ج.١، دار القاهرة .

الاسطول الذي صنّع في المهديّة وتكون من عدة قطع هي الشواني^(٣)، والحراقة^(٤)، والطريدة^(٥)؛ والجدير بالذكر في إطار اهتمام عبيد الله المهدي بالصناعات تشييده لدار الطراز لصناعة المنسوجات^(٦)، ودار الضرب لسك العملة^(٧)

٣-٢-٤ الميناء: (لوحة-٧)

على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة في نصفه الشرقي^(٨)، نقره عبيد الله المهدي في الصخرة المطلة على ساحل البحر بمساحة ٧٨١٢٦ متر ولا يزال باقياً إلى اليوم^(٩) ويحدثنا البكري والحموي في وصفهما لمرسى المهديّة بقولهما "مرساها منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً وعلى طرف المرسى بركان بينهما سلسلة فإذا أريد إدخال سفينة فيه أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مداها كما كانت بعد ذلك لئلا يطرقها مراكب الروم"^(١٠)، وأوضح التجاني الغرض الذي أنشأ المهدي المرسى من أجله بقوله "جعله حصناً لمراكبه الحربية"^(١١) وفي الوقت الحاضر لم يبق لنا من مخلفات البرجين إلا قاعدتهما ويتخللهما في صلب البناء على اسطوانات رخامية مطروحة أفقياً^(١٢)

وعن الرؤية المعمارية لأسلوب الإنشاء بالنقر فهو أسلوب عرفه المصريون القدماء ونفذوا به المعابد والمقابر لكن استخدامه في حفر مرسى للسفن استخدام مبتكر لأن الصخر

(٣) من السفن الحربية الكبيرة، وتجذب بمائة وأربعين مجدافاً و تشحن بالجنود؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مج. ٤، تحقيق: حسن محمد الشماخ، ط. ١، جامعة البصرة، ١٩٦٧م، ص ٨٣، حاشية ٢٥١.

(٤) تستخدم لحمل الأسلحة النارية؛ الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القسي، تحقيق: محمد محمود صبيح، القاهرة: ١٩٦٥، ص ٣٨٨.

(٥) تستخدم لحمل الفرسان والخيول وتسع الأربعة فرساً؛ ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٣٣٩.

(٦) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج. ٥، ص ١٠٢.

(٧) Lavoix, Catalogue Des Manmales Musulm T. II, Paris, PP 34- 36.

(٨) زغلول، تاريخ المغرب، ج. ٣، ص ٩٦.

(٩) العمري، آمال، العمارة في العصر الفاطمي، ص ٥.

(١٠) البكري، المغرب، ص ٣٠؛ الحموي، ج. ٥، ص ٢٣١؛ مجهول، الاستبصار، ص ١١٨.

(١١) التجاني، الرحلة، ص ٣٢٢.

(١٢) زبيس، الآثار الإسلامية في تونس، ص ٦١.

الطبيعي يقوى على الماء وأمواجه كونه نتاج البيئة الطبيعية للمكان ؛ أما البرجين الممتد بينهما سلسلة يتيح مراقبة البحر من جهة المرسى ويؤمن السفن وقد عرض بعض الباحثين آراء ترجع ميناء المهديّة لعصور سابقة على الإسلام^(٣).

٣-٢-٥ الأسواق :

انتعشت حركة التجارة بالمهديّة فحفلت بالأسواق^(٤) والدكاكين^(٥)، وكانت لكل طائفة من التجار سوق يمارسون فيها نشاطهم التجاري ولإرباب الحرف شوارع معلومة، وكان التجار يفدون ببضائعهم من سائر البلاد لبيعها بأسواق المهديّة وقد حدثنا الإدريسي عن الأمر بقوله "كانت فيما سلف المسافر إليها كثير والبضائع إليها مجلوبة من سائر البلاد والأقطار والأمتعة والمتاجر نافقة، وفيها بائعة"^(٦)

٣-٢-٦ المنشآت المائية :

كان من أهم محاور تخطيط المدن تزويد الحواضر بالماء لذا حرص عبيد الله المهدي على توفير مصادر الماء وتسهيل توصيله لثغر المهديّة وأكدت المصادر هذه الحقيقة "جلب الماء الجاري إلي مدينته من قرية مياثش وهي على مقربة من المهديّة في أدل وأقداس ويصب في المهديّة في صهريج داخل المدينة عند جامعها ، ويرفع من الصهريج إلي القصر بالدواليب (السواقي) ، وكذلك يسقي أيضاً من قرية مياثش من الآبار بالدواليب (النواعير) يصب في محبس تجري منه الماء إلي تلك القناة"^(٧) يتضح من وصف البكري ان الماء يرفع بواسطة السواقي ويجري في قناة تنتهي إلي مواجل وجباب وصهاريج لتخزينه وبلغ عدد المواجل في المهديّة^(٨) ٣٦٠ ماجل مما يشير إلي وجود منظومة من المنشآت المائية تمثل شبكة مياه متكاملة تبدأ من المصدر وتنتهي إلي المنشآت المعمارية في الثغر.

(٧) Guerin; P. 325.

(٤) الحموي ، معجم البلدان ، ج. ٥ ، ص ٢٣١ .

(٥) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج. ٢ ، ص ٢٨١ .

(٦) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج. ٢ ، ص ٢٨١-٢٨٢ .

(١) البكري، المغرب ، ص ٣١ ؛ الحموي ، معجم البلدان ، ج. ٥ ، ص ٢٣١ .

(٢) البكري ، ص ٣١ ؛ الحموي ، ج. ٥ ، ص ٢٣١ .

٣-٢-٧ الأرياض - زويله : (شكل - ٩)

كان للمهدية عدة أرياض من أهمها زويلة شيده عبيد الله المهدي يفصل بينه وبين المهديّة ميدان وأحاط زويله^(٣) سور وأبواب ونقل إلي زويله العامة للخصوصية الملكية لشجر المهديّة ، ونوه الحموي من الحكمة من وراء فصل سكن العامة في مدينة قائمة بذاتها عن المهديّة مقر الخلافة مبرراً ان المهدي أسكن العامة في زويله ، وكانت دكاكينهم وأموالهم في المهديّة وبزويله مساكنهم ، فكانوا يدخلون نهاراً للعمل ويخرجون ليلاً إلي أهاليهم فقليل للمهدي إن رعينك في عناء من هذا ، فقال لكن أنا في راحة ، لأنني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم ، وفي النهار أفرق بينهم وبين أهاليهم فأمن غائلتهم^(١) ، ولم يمنع هذا من أن ينشئ عبيد الله المهدي بزويلة أسواق تكفي حاجات زويلة وفنادق للتجار الغرباء^(٢) مما يؤكد على التكامل العمراني بين زويلة والمهدية وأن زويلة كانت كالريض للمهدية^(٣).

النتائج :

- كان عبيد الله المهدي ثاقب النظر في اختيار موضعاً حصيناً لشجره ومؤمن طبيعياً من ثلاث جهات .
- حُطت المهديّة على الرسم الملكي فجاء تخطيطها لحماية الحاكم الذي يتخذها مقراً له ولحاشيته بالأساس .
- حُسن استغلال المنشيء للطبيعة الساحلية للشجر وتكيفها لإنشاء مرسى ودار للصناعة أسهمت بظهور الفواطم كقوة بحرية على مسرح الأحداث في البحر المتوسط .
- وضع تخطيط وعمارة المهديّة أسس سمات تخطيطية ومعمارية ظهرت آثارها في تخطيط وعمارة مدينة القاهرة ، وبعض مدن المغرب لاحقاً .

^(٣) زويلة بلدان أحدهما زويلة السودان بين السودان وإفريقيه وزويلة طرابلس بين الغرب والقبلة ؛ الحموي ، معجم

البلدان ، ج.٣ ، ص ١٦٠ .

(١) الحموي ، ج.٥ ، ص ٢٣١ .

(٢) التجاني ، الرحلة ، ص ٣٢٤ .

(٣) الحموي ، ج.٥ ، ص ٢٣١ .

- وضوح الصبغة الدفاعية في عمارة المدينة وهندستها في صلاية البناء، مداخل الحصون، والأقبية الطولية والمتقاطعة من الاحجار و الدبش والمفتقدة للأغرية والسقوف الخشبية، ومن ثمة فإن لهندسة تخطيط ثغر المهديّة صبغة وظيفية عملية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- ابن الأبار، (أبي عبد الله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) الحلة السيرة، ج. ١، تحقيق: حسين مؤنس، ط. ١، القاهرة .
- ابن الأثير، (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري) (1978م ، الكامل في التاريخ ، ج٥، دار للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت .
- ابن الأزرقي، (محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي ، ت ٨٩٦هـ/١٤٩١م) ، بدائع السلك في طبائع الملك، ١٩٧٧م، ج. ٢، تحقيق: محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب .
- الأصبخري، (أبو القاسم إبراهيم بن محمد ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحيني، القاهرة .
- ابن زرع (أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي، ت. ٧٢٦هـ) ، ١٩٧٧م ، الأئيس المطرب بروض القرطاس ، الرباط
- ابن الرامي البناء (أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللّخمي)، ١٩٩٩م، الإعلان بأحكام البنين ، تحقيق: فريد بن سليمان ، مركز النشر الجامعي ، تونس .
- ابن العديم، (عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، د.ت.) بغية الطالب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، ج ١، د. ط . دارالفكر للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت .

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) ١٩٦٧ م ، تاريخ ابن الفرات ، د.ت.، مج.٤ ، تحقيق: حسن محمد الشماخ ، ط.١، جامعة البصرة .
- ابن حماد (محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي القلعي أبو عبد الله ٦٢٨ هـ - ١٢٣٠ م، د. ت) ، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق عبد الحلیم عويس وأخريين ، دار العلوم ، الرياض
- أبن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي الموصلی أحمد النصیبي ٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م)، صورة الأرض، بيروت .
- ابن حيان ، (بن خلف بن حيان الاندلسي أبو مروان ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م)، ٢٠٠٦ م ،المقتبس، من أخبار الاندلس ،تحقيق : صلاح الدين الهوارى، نشر المكتبة العصرية ،بيروت .
- ابن خلدون ،(عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، ت 732 هـ - ١٣٣٢ م) ١٩٧٩ م ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، ج٤ ، بيروت .
- ابن دريد ،(أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ت ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة ، تحقيق :رمزي منير بعلبكي ، ط.١، ج٤، دار العلم للملايين ، بيروت .
- ابن سيده ، (أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ت ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م) ٢٠٠٠ م ،المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ط.١، ج٥، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ابن عذاري (أبو عبدالله محمد المراكشي ،ق.٧ هـ) ١٩٤٨ م، البيان المغرب في أخبار المغرب، ج.١ ، تحقيق :ليفي بروفنسال، كولان ، ليدن .
- ابن فارس ، (أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبو الحسين ، ت ٣٩٥ هـ) ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، ج ١ ، د.ط. ، دار الفكر

- ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن يعقوب ، ت ٣٩٠ هـ) ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م ، تجارب الأمم و تعاقب الهمم ، تحقيق: أبو القاسم إمامي ، ط.٢ ، ج١ ، سروش ، طهران
- ابن مماتي، (الأسعد الخطير شرف الدين أبي المكارم أبي سعيد ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م) ، ١٩٤٣ م ، قوانين الدواوين ، تحقيق: عزيزسوريال عطيه ، الجمعية الملكية الزراعية ، القاهرة.
- ابن منظور ، (محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي، ت ٧١١ هـ) ١٤١ هـ ، لسان العرب ، ط.٣ ، ج٤ ، دار صادر ، بيروت.
- أبو الفدا، (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) ١٨٤٠ م ، تقويم البلدان ، باريس.
- إدريس (عماد الدين ٨٧٢ هـ/١٤٨٨ م) ، ١٩٨٥ ، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، تحقيق: محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .
- الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبد العزيز ت ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م) نزهة المشتاق في أختراق الأفاق ، ج١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة.
- البكري (أبو عبيد الله بن أبي مصعب بن عبد العزيز بن أبي زيد محمد ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) ، ١٨٥٧ م المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ، مكتبة المثنى ، بغداد.
- البلاذري ، (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ، ت ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م) ١٩٨٨ م ، فتوح البلدان ، دار الهلال ، بيروت .
- التجاني ، (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد ت ٧٠٦-٧٠٨ هـ) ، ١٩٨١ ، رحلة التجاني تونس طرابلس ، تقديم : حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس .
- الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي ت ٥٧٤ - ٦٢٦ هـ) ١٩٧٩ م ، معجم البلدان ، ج٣ ، دار صادر ، بيروت .
- الحميري، (أبو عبدالله بن عبد المنعم ت ٩٠٠ هـ/١٤٩٤ م) ١٩٨٤ م ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق: إحسان عباس ، ط.٢ ، بيروت .

- السراج، (محمد بن محمد الأندلسي ت ١١٤٩هـ)، ١٩٧٠م، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج.١، ق.٤، تحقيق: محمد الحبيب الهيله، تونس .
- الطبري، (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملّي أبو جعفر الطبري، ت ٣١٠ هـ) ١٣٨٧ هـ ، تاريخ الرسل والملوك ، ط. ٢ ، ج ٣ ، دار التراث ، بيروت
- العماد الأصفهاني، (عماد الدين) ٩٦٦م، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبيح، القاهرة
- الفلقشندي (شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ١٩١٩ م ، صبح الأعشي في صناعة الانشا ، ج.٥، دار الكتب المصرية ، القاهرة .
- المقدسي، (شمس الدين أبو عبد الله محمد ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م)، ١٩٦٧م أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،نشر دي خوريه ،ليدن .
- المقرئزي،(أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقرئزي ، ت ٨٤٥ هـ) ١٩٤٧ م، أتعاض الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخفاء، ج١، تحقيق: جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي، القاهرة.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن حسين بن علي ، ٢٨٣-٣٤٥ هـ / ٨٩٦-٩٥٦ م، د.ت) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٣، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الفكر ،بيروت
- النعمان (القاضي نعمان بن محمد ،ت ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م)، ١٩٧٥م أفتتاح الدعوة ،تحقيق: فرحات الدشراوي، تونس .
- الهروي، (تقي الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي، د. ت) التذكرة الهروية في الحيل الحربية (د. ط.)مكتبة الثقافة الدينية .
- قدامه ،(قدامه بن جعفر بن قدامه بن زياد البغدادي ، ت. ٣٣٧ هـ) ١٩٨١م الخراج وصناعة الكتابة ،ط. ١ ،دار الرشيد للنشر ، بغداد .
- مجهول ، (من أهل القرن السادس الهجري) ١٩٥٨ م، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد ، جامعة الإسكندرية .

ثانياً - المراجع الحديثة :

- الجعفري، أميرة بنت أحمد الجعفري، ٢٠٠٦م، سياسة الدولة الأموية في إدارة الشعوب الأندلسية ١٣٨هـ-٤٢٢، مجلة المؤرخ العربي، عدد ١٤، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة .
- الجوهري ، يسري ، ١٩٨٤ م، جغرافية البحر المتوسط ، منشأة المعارف ، الاسكندرية .
- الدشروي، فرحات، الخلافة الفاطمية بالمغرب ٢٩٦-٣٦٥هـ/٩٠٩-٩٧٥م، ١٩٩٤م، التاريخ السياسي والمؤسسات، السلسلة الجامعية، ترجمة حمادي الساطي، ط.١، دار الغرب الاسلامي، بيروت.
- الرماح ، مراد ، ١٩٧٧ ، المواقع والمعالم بالبلاد التونسية ، شهادة التعمق في البحث ، دراسة مقارنة ، تونس .
- ١٩٩٦ ملاحظات حول تخطيط مدينة المهديّة وعمارته في العهد الإسلامي المبكر ، سلسلة مجلة إفريقية ، عدد ١٤ ، المعهد الوطني للتراث ، وزارة الثقافة التونسية ، تونس .
- الصلابي، علي محمد محمد ، ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ ، تاريخ الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار ، ط.٢ ، ج١ ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .
- العبد الغني، عبد الرحمن محمد ، 1990، الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية ٤٠٩ - 339 هـ / 660 - ٩٥٠م، حوليات كلية الآداب ، مج. ١١ ، عدد ٧١ ، مجلس النشر العلمي ، ج. الكويت .
- العلي ، صالح أحمد ، ١٩٨٣م ، امتداد العرب في صدر الإسلام ، ط.٢ ، مؤسسه الرسالة ، بيروت .
- العمري ، امال ، ١٩٧٦ ، العمارة في العصر الفاطمي ، محاضرات قررت على طلاب كلية الآثار ، جامعة القاهرة .

- الفقي، عصام الدين عبد الروؤف، (د.ت.) تاريخ المغرب و الاندلس ،مطبعة نهضة الشرق،جامعة القاهرة .
- اليوزيكي،توفيق سلطان،١٩٨٨م،الثغور ودورها العسكري والحضاري،وزارة التربية والتعليم العالي،ط.٣،بغداد
- إبراهيم ،حسن؛ شرف، أحمد طه، ١٩٤٧م ،عبد الله المهدي ، النهضة المصرية، القاهرة .
- إبراهيم ، سنوسي يوسف، ١٩٨٢ م، زناته والخلافة الفاطمية ،ط.١، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة .
- جواد علي (جواد) ٢٠٠١م ،المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط. ٤ ، ج٩، دار الساقى .
- دياب ، صابر محمد، ١٩٧٣،سياسة الدولة الإسلامية ، ط.١ ، عالم الكتب، القاهرة .
- زبيس، سليمان مصطفى ، ١٩٦٣م ،بين الاثار الاسلامية في تونس ، منشورات دار الثقافة ، تونس .
- صبحي،الصالح ، ١٩٨٧ م ،النظم الإسلامية ، ط.٤، دار العلم ، بيروت .
- عبد الجواد ، توفيق أحمد ، ١٠٧٦م ،معجم العمارة وإنشاء المباني مؤسسة الأهرام ،القاهرة .
- عبد الحميد، سعد زغلول ، ١٩٧٩، تاريخ المغرب العربي ،ج٢، منشأة المعارف، الإسكندرية .
- عبد الوهاب، حسن حسني، ١٩٦٨م، تاريخ تونس ،ط. ٤، تونس .
- عباس،إحسان،١٩٨٨م، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ،ج.٢، ط 3 ،دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- عثمان ، محمد ؛الستار ، ٢٠٠٦م، موسوعة العمارة الفاطمية ، ج.١ ، دار القاهرة .

- محمود، حسن أحمد، ١٩٩٠ م، تاريخ المغرب والاندلس، مكتبة الثقافة، القاهرة
- معلوف، لؤيس معلوف، (د.ت)، المنجد في اللغة و الأعلام، ط. ١٩، المطبعة الكاثوليكية، بيروت
- مؤنس، حسين، ١٩٩٠ م، تاريخ المغرب وحضارته، مج. ١، ط. ١، الدار السعودية للنشر.
- نوبار، رايح، ١٩٨١ م، المغرب العربي، ط. ٢، الجزائر.

ثالثاً- المراجع المعربة :

- مأمول كَرِبْخَالْ؛ إفريقيا (١٩٨٨-١٩٨٩ م)، ج. ٣، تعريب : محمد حجي، محمد الأخضر، محمد زنيبر، أحمد التوفيق، أحمد نبجلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، دار نشر المعرفة، الرباط
- ليسترنج كي، د.ت.، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكروكيس عواد (د. ط.) الكويت :مؤسسة الرسالة

رابعاً- المراجع الاجنبية :

Creswell; (K.A.C.),1952, The Muslim Architecture of Egypt, Oxford.

-

-Dark Hill , Luven , Islamic Architecture in North Africa , London.

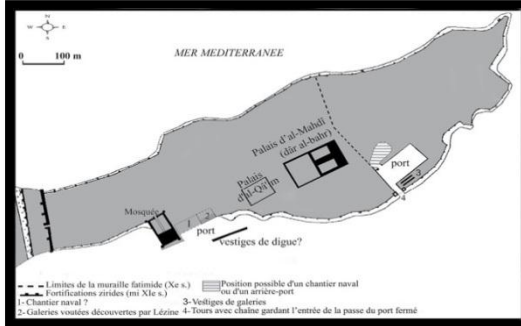
-David Bramouille,2019, Les Fatimides et la mer (909-

1171),Islamic History and Civilization, Studies and Text, Editoriol Board , Seloastion Gunther, Brill.

-Djelloul (Neji),٢٠٠١, Mahdia capital des Fatimides , Sousse , Contraste Editions , 2003; "Histoire topographique de Mahdia a l' époque Ottomane " Actes du 2eme seminaire sur la mer .CERS, Tunis.

- Gautier(E .F.),1927 ; Les Siecles Obscurs du Maghreb , Paris.
- Hannezo (C.), 1907 et 1908 "Mahdia; notes historiques", R.T.
- Lavoix , Catalogue Des Manmales Musulm T. II, Paris
- Lezine, Mahdiya , 1965, Recherches D'Archealogue Islamique, Klimcksiech.
- Marcais, Al Mahdiya Artile in the Encyclopeadia of Islam , Tome III, 19
- Marcais, 1946, L'Art de L'Islam , Paris.
- Marcais (G.), 1926 , Manuel D' Art Musulman , Tunisie , Algérie , Maroc , Espagne , Sicile, V.I. Paris.
- ROY , (Bernard)1915,"Inscriptions arabes de Mahdia" , Revue Tunisienne , N°122.

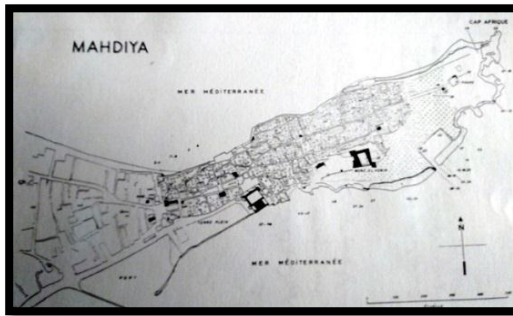
الاشكال:



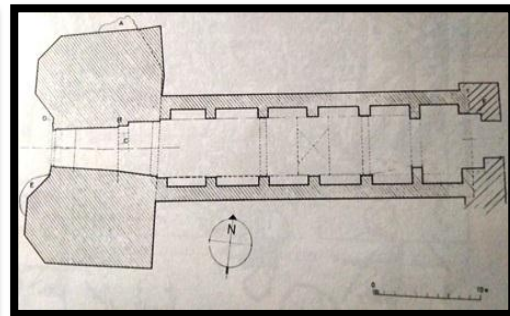
شكل - ٢



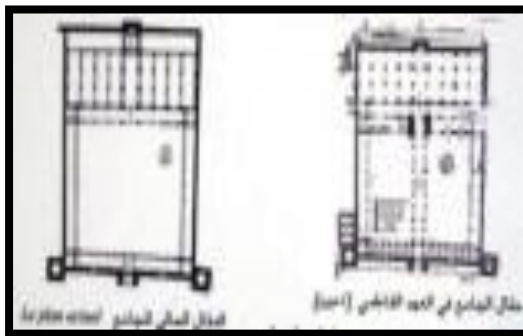
شكل - ١



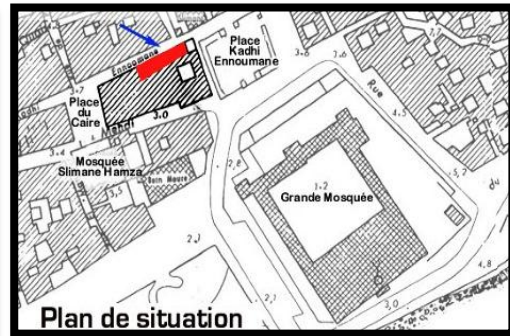
شكل - ٤



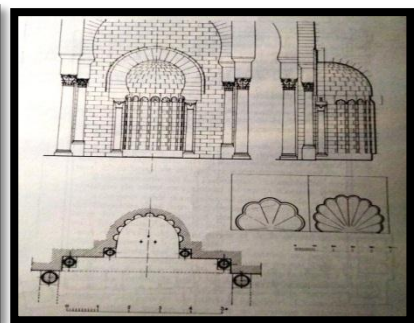
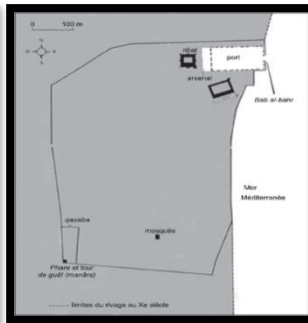
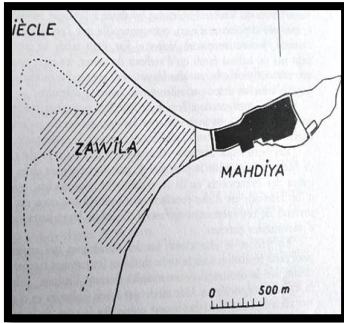
شكل - ٣



شكل - ٦



شكل - ٥



شكل - ٩

شكل - ٨

شكل - ٧

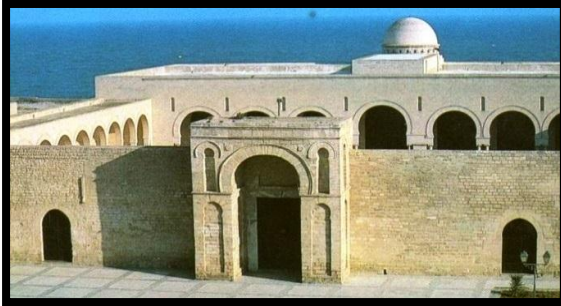
اللوحات:



لوحة - ٢ السقيفة الكحلاء



لوحة - ١ بقايا السور الغربي



لوحة - ٤ الجامع الكبير في المهديّة



لوحة - ٣ منشآت ثغر المهديّة



لوحة ٦ - بقايا دار الصناعة



لوحة ٥ - المدخل الرئيس للجامع



لوحة ٧ - ميناء المهديّة (الصور للباحثة)

موقف الدولة الإسلامية من الرعايا غير المسلمين في بعض بلاد المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي

أ.د. حصة بنت عبدالرحمن الجبر
أستاذة التاريخ الإسلامي - كلية الآداب
بجامعة الملك سعود - الرياض

تمثل التعامل الإيجابي من قبل المسلمين الفاتحين في بعض بلدان المشرق الإسلامي في صور من العفو والتسامح الديني واحترام الحريات والعقائد، والقيم والعادات الاجتماعية.

ويندرج تحت ذلك الحديث عن مبادئ الإسلام القويمة المتمثلة في: العدالة والسماحة والحرية والمساواة، وأثرها على الرعايا غير المسلمين في ربوع القارة الآسيوية في الدولة الإسلامية وخارجها في الإقبال على الدخول في الإسلام أفواجا طوعية واختياراً؛ لأن الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه تطبيقاً لقول رب العالمين سبحانه: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم). (١) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

ومن مظاهر معاملة الخلافة الإسلامية للرعايا غير المسلمين في المشرق الإسلامي علاوة على ترك الحرية الدينية، توفير الحماية لهؤلاء الرعايا مقابل دفع الجزية أو التعويض عنها بتقديم المساعدة للمسلمين، بالإضافة إلى ترك الحرية للرعايا غير المسلمين بالاحتفال بأعيادهم وأيامهم مثل عيد النوروز وعيد المهرجان ويوم السدق (٢) التي سوف يرد التعريف بها لاحقاً.

وسيتم تناول هذا الموضوع وفق المحاور التالية:

١. موقف أهل خراسان وبلاد ما وراء النهر وفارس من الفتح الإسلامي.
٢. موقف الإسلام من مخالفه.
٣. الضرائب المفروضة على الرؤوس والأراضي والشجر والكروم.
٤. أعياد غير المسلمين وأيامهم وموقف المسلمين منها.

موقف أهل خراسان وبلاد ما وراء النهر وفارس من الفتح الإسلامي:

تقبل أهل خراسان و بلاد ما وراء النهر و فارس الفتح الإسلامي قبولاً حسناً، إذ لم يلق المسلمون منهم مقاومة تذكر و خاصةً الشعب الفارسي الذي كان قد استبد بحكمه ولاة الدولة الساسانية في أواخر أيامها استبداداً اتسم بكثيرٍ من العنف و الفوضى مما أثار غضب الأهالي وبغضهم للحكام و فضلاً عن ذلك، فإن أولئك الحكام كانوا يناصرون ديانة زرادشت التي غدت الدين الرسمي للدولة، ويفسحون المجال لكهنتها حتى صار لهم نفوذ كبير في الدولة استغلوه في اضطهاد اتباع جميع الديانات المخالفة لهم كالنصارى و اليهود و الصابئة، و قد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهية لدى الشعب نحو ذلك الدين و تلك الدولة التي أباحت هذا الاضطهاد. ولما تم للمسلمين فتح فارس رحب بهم فريق من أهل فارس، إذ أتاح لهم ذلك أن يتخلصوا من ظلم حكامهم واستبدادهم، ثم إعفائهم من الخدمة العسكرية، وأملاً في تمتعهم بالحرية الدينية. (٣)

ولما دخل الإسلام إلى بلاد أوقاليم المشرق الإسلامي مثل: خراسان وبلاد ماوراء النهر وفارس، اعتنقه أغلب السكان لما يمتاز به من البساطة علاوةً على وضوح أفكاره و نظرتة الإنسانية و العالمية و استجابته لحاجات الناس (٤)، هذه المثل السامية التي وجدها أهالي البلاد في الإسلام جعلته ينتشر بينهم (٥) وخاصةً بين

الصناع و أصحاب الحرف و الطبقة العاملة الذين كان ينظر إليهم أمام القانون باحتقار وازدراء، فضلاً عن أن اعتناقهم الإسلام يتركهم أحراراً و يضمن لهم المساواة.(٦) و اختلط من أسلم من أهالي البلاد بالعرب، وأصبحوا عنصرًا إسلاميًا مهمًا(٧)، لاسيما و أن دخولهم في هذا الدين كان بمحض إرادتهم و اختيارهم و في جو يسوده الهدوء و السلام (٨) و لم تكن القوة أو العنف سبباً في كثرة إقبال الناس على الإسلام بدليل حسن المعاملة التي عامل بها المسلمون من ظل على دينه القديم(٩). إذ بقيت بعض الجماعات على دياناتها القديمة كاليهودية و المسيحية لدرجة أن عدد اليهود في مدينة سمرقند من بلاد ما وراء النهر بلغ ثلاثين ألفاً (١٠)، وكان يقيم في جزيرة قيس(١١) التابعة لإقليم فارس نحو خمسمائة يهودي (١٢) وكان عدد النصارى أقل من ذلك، وفي ظل الدول التي نشأت في بلاد المشرق الإسلامي لقي هؤلاء الناس عناية خاصة، فقد كان الأمراء الطاهريون في خراسان وبقية أقاليم المشرق يعطون أهل الذمة حرية إقامة طقوسهم الدينية دون تعرض لهم بل كان المسلمون يشاركون أهل الذمة أفراحهم و أعيادهم العامة (١٣).

وقد تمتع أهل هذه الأقاليم بالحرية الدينية؛ لأن الإسلام يبيح لغير المسلمين من يهود و نصارى و زرادشت و صابئة أن يمارسوا شعائر أديانهم إذا التزموا بدفع الجزية للمسلمين (١٤).

والجزية مبلغ معين من المال يفرض على الرجال و يسقط بالإسلام، ولا تفرض إلا على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء ذوي القدرة المالية من أهل الكتاب و المجوس و الصابئين و السامرة و كانت الجزية لا تؤخذ من المساكين و الذين ليس لديهم قدرة على العمل (العاجزين) و لا من الأعمى أو المقعد أو المجنون و لا من ذوي الاحتياجات الخاصة و لا من الرهبان و لا من النساء و الصبيان(١٥). و كانت الجزية في

الأساس ضريبة نقدية حددت على قدر الطاقة لمختلف فئات الناس ومقدرتهم المالية على الوجه الآتي:

- على الغني ٤٨ درهماً تدفع أقساطاً ٤ دراهم في كل شهر.
- وعلى متوسط الحال ٢٤ درهماً تدفع أقساطاً درهمن في كل شهر.
- وعلى الفقير ١٢ درهماً تدفع أقساطاً درهم في كل شهر. (١٦)

ولم تكن الجزية من مستحدثات الإسلام، بل هي قديمة فرضها الإغريق على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم من الفينقيين كما وضع الرومان والفرس الجزية على بعض رعايا الدول التي أخضعوها وكانت سبعة أمثال الجزية التي وضعها المسلمون، والظاهر أن العرب أخذوا هذا النظام من الفرس. (١٧)

وقد فرضت الجزية على الذميين في مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان؛ لأن الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة وينتفعون بمرافق الدولة بنسبة واحدة، لذا فرضت الجزية على الذميين نظير الدفاع عنهم وحمايتهم في الأقاليم الإسلامية التي يقيمون فيها ومقابل إعفائهم من القتال في جيوش المسلمين وحمايتهم من الأعداء والدفاع عنهم وعن أملاكهم ومنحهم حرية العبادة (١٨). وتؤخذ الجزية مرة واحدة في السنة القمرية مع إمكان التقسيط. (١٩)

موقف الإسلام من مخالفيه:

كان للإسلام مواقف مشرفة من مخالفيه وتساهله معهم، فقد وسع لهم تحت حكمه واحترمهم وقربهم، ولم يكره أحداً من المجوس على اعتناق الدين الإسلامي وعاملهم بالحسنى والتسامح ولم يتدخل في شؤونهم الدينية، (٢٠)

وكان الإسلام ينتصر حتى للمشرك، فقد تكفل بحمايته إذا استجار بالمسلم لقوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون). (٢١)

والدليل على حسن المعاملة التي عامل بها المسلمون من ظل من الفرس على دينه القديم ومنهم المجوس الذين ترك لهم المسلمون حريتهم في عبادتهم الزرادشتية التي كانت منتشرة في أنحاء فارس، ومن الأدلة على تسامح المسلمين حيال أصحاب الأديان الأخرى انتشار معابد النار التي ظلت قائمة في جميع أنحاء فارس واستمرارها في القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح الإسلامي ولم يتعرض لها المسلمون بأذى. (٢٢)

أما بالنسبة لتأثير العوامل البشرية، فإن تنوع السكان وطبقات المجتمع أتاح المجال لتنوع الأعمال والحرف والأنشطة، فالفلاحون عملوا بالزراعة، حيث ترك المسلمون الأراضي بعد فتحها بيد أهلها لزراعتها. (٢٣)

وعمل الأكراد بحرفة الرعي في الشتاء والصيف. (٢٤) ، وبقي الدهاقين أو أصحاب الأراضي نواباً للحكومة في المناطق الريفية، وكان عملهم الأساسي جمع الخراج من الفلاحين وتحويله إلى مركز بيت مال المسلمين، وكان على الدهاقين تحديد قيمة الخراج على الفلاحين الذين عليهم دفعه. (٢٥)

الضرائب المفروضة على الأراضي والشجر والكروم ومال التكملة وموقف المسلمين منها:

وتشمل الضرائب: ضريبة الخراج، مال التكملة وخراج الشجر والكروم.

١- **الخراج:** ضريبة تفرض على الأراضي المفتوحة صلحاً أو عنوةً ويختلف مقدارها باختلاف مساحة الأرض وغلثها وسقايتها (٢٦) وقد حددت ضريبة الأراضي

الزراعية بخمس المحصول منذ سنة ٢٠٤هـ-٨١٩م، (٢٧) وقد أقر نظام المساحة منذ فتح بلاد المشرق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. (٢٨)، وظل هذا النظام (نظام المساحة) معمولاً به حتى صدر العصر العباسي، (٢٩) وتكاد تجمع مصادرها على أن نظام المقاسمة قد أعيد العمل به منذ عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م). (٣٠)

أما ابن رجب، فقد ذكر أن الخراج على نظام المساحة استمر إلى دولة بني العباس ثم جعله الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٢-٧٧٤م). مقاسمة بسبب رخص الأسعار إذ لم تف الغلات بخراجها، وبسبب خراب منطقة السواد في العراق، ثم تبعه ابنه المهدي وجعله مقاسمة. (٣١)

ولعل تغيير نظام الخراج من المساحة إلى المقاسمة حدث في عهد المهدي على الأرجح، وأن المنصور كان قد فكر في العدول عن نظام المساحة إلى المقاسمة ضمن اهتماماته بالناحية الاقتصادية، كما ذكر الطبري (٣٢)

والمقصود بخراج المقاسمة أن تتقاسم الدولة والناس (المزارعون) ما ينتج من محصول بنسبة معينة: كالثلث مثلاً للدولة والثلثين للمزارعين أو الربع أو الخمس دون حساب للمساحة فيتغير الخراج بتغير مقدار المحصول الذي ينتج ونوعه. (٣٣)

نظام الجباية:

كانت جباية الخراج تتم بواسطة موظفين من أهل البلد الأصليين مباشرة كما هو الحال في بلاد فارس، حين استعانت الدولة الإسلامية بالدهاقين أو أصحاب الأراضي في تقدير الضرائب وجبايتها. (٣٤) تحت الإشراف المباشر من قبل العمال المسلمين الذين يبعثهم الخليفة أحياناً مع الوالي، و كانت تقديرات الضرائب تسجل في قوائم أو صحائف أو سجلات و ترسل إلى عاصمة الإقليم لتدقيقها قبل فرضها و جبايتها (٣٥) وكانت الطريقة المتبعة في جباية الخراج بأن تجمع المحاصيل و الغلال ثم يأخذ منها حصة

الحكومة (٣٦) ، إلا إنه يجوز أن تقدر الضريبة بالنقود أو بعدد من الأشجار لاستيفاء ضريبة البساتين و الكروم. (٣٧) ، فإذا اجتمع الخراج و الجزية لدى الدهاقين، دفعوا مجموعهما إلى الوالي أو العامل المسلم ،وهذا دورة يدفع منه رواتب من معه من القواد والجنود والموظفين وما يحتاج إليه إصلاح الري من إقامة الجسور والسدود ونفقات الولاية ،ويبعث بالباقي إلى بيت المال المركزي في عاصمة الخلافة. (٣٨).

ميعاد الجباية:

تختلف مواعيد الجباية حسب أسلوبها، فالضريبة المفروضة حسب نظام المساحة كانت تجبى عند انتهاء السنة الهجرية، وهي السنة القمرية (٣٩) .

وكان يؤخذ أيضاً بالسنة الشمسية (٤٠) ، التي لا تتناقض مع الضريبة النقدية الثابتة عند انتهاء الحول (السنة) (٤١)

والسنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً بالتقريب، وأولها بداية شهر محرم وأخرها نهاية شهر ذي الحجة (٤٢)

أما ضريبة المقاسمة، فتتم جبايتها عند إدراك الثمار والغلات وبعد حصاد المحصول (٤٣)، والسنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً بالتقريب، أولها نزول الشمس برج الحمل (٤٤) وكان افتتاح الخراج أو الجباية في عيد النيروز كما سيرد (٤٥).

والسنة الشمسية - كما هو معروف - تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوماً وربعاً إلا قليلاً (٤٦). وكان المسلمون يستعملون السنة الهلالية ،ولكنهم اضطروا فيما بعد إلى الأخذ بالسنة الشمسية ؛لأن جباية الخراج تكون عند إدراك الثمار والغلات، وهذه وقتها واحد في التقويم الشمسي ،مما جعل افتتاح الخراج في عيد النيروز (٤٧) أول أيام السنة حسب التقويم الفارسي القديم وهو اليوم الأول من شهر (افريدون ماه) الذي كان أول شهور السنة الفارسية - كما سيرد - (٤٨)، و كان الفرس يعملون

بنظام الكبس و هو كلما مضت ١١٦ سنة يلحقون بها شهراً تاماً، فتكون السنة الأخيرة كبيسة؛ لأنها ١٣ شهراً، فيتأخر موعد النيروز عن وقته الذي صار إليه ليعود إلى مواعده الأساسي في حزيران من السنة السريانية (الفارسية) وهو شهر يونيو من السنة الرومية، وهو وقت الانقلاب الصيفي، و إدراك الغلات و نضجها. (٤٩) فكلمة تقدم الميعاد إلى (أيار) وهو مايو رده إلى يونيو ثم أُغفل هذا الكبس بعد تأخر دولة الفرس وسقوطها بيد المسلمين، فتقدم ميعاد النيروز واستمر في عهد الإسلام حتى عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م). وحدث أنه بينما كان يتجول في بعض بساتينه، و كان الزرع لا يزال أخضر استأذنه وزيره في جباية الخراج، فعجب من ذلك و سأل عن ما كان يفعله ملوك الفرس، فأخبر بنظام الكبس في عهد الفرس و إهماله منذ مدة طويله، فأمر بحساب ذلك و إعادة ميعاد النيروز إلى مواعده القديم، و كان قد تقدم حتى صار في نيسان (أبريل) فقرر تأخيره إلى ١٧ حزيران و أصدر أمره بذلك سنة ٢٤٣هـ-٨٥٧م (٥٠). مراعاةً لمنفعة الناس، وفي رواية أخرى أن المتوكل أمر بتعيين النيروز، فولى منجماً لتلك المهمة، فقتل المتوكل قبل تنفيذ هذا الأمر (٥١). وبعد مقتل المتوكل أعاد خليفته المنتصر بالله (٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م). موعد النيروز وافتتاح الجباية إلى نيسان، واستمر ذلك حتى جاء الخليفة (المعتضد بالله) وأخبر بعمل (المتوكل) فاستحسنه وأمر بتأخير النيروز إلى اليوم الحادي عشر من حزيران (يونيو) فأخر ستين يوماً؛ وذلك للرفق بالناس، ومراعات لمنفعتهم وسمي ذلك (النيروز المعتضدي)، وطُبق ذلك من سنة (٢٨٢هـ/٨٩٥م) في جميع أقاليم الدولة الإسلامية (٥٢).

وعلق أحد الدراسين على ذلك بقوله: "وعلى كل، فإن الميعاد متى وقع في شهر يونيو (حزيران)، فإن ذلك كان نافعاً للناس لإدراك الغلات حول هذا الوقت" (٥٣).

٢- مال التكملة و خراج الشجر و الكروم : كان بفارس ضريبة تدعى مال التكملة وتعود هذه الضريبة إلى أيام الدولة الفارسية وهي التي كانت تُفرض على الأراضي التي يجلوها عنها أصحابها لسوء المعاملة ، و الضياع التي تخرب ، و يوزع ما كان يترتب عليها من خراج و هو من خراج المساحة على كاهل باقي المزارعين ، ثم أُبطلت بعد الإسلام، و لما استولى (بنو الصفار) (٥٤) على فارس ، هرب قوم من أرباب الخراج عنها ، لسوء المعاملة فقسم خراجهم على الباقين ، فأعادوا العمل بقانون فارس القديم (٥٥) ، و استمر عمال الخراج بجباية هذه الضريبة في بلاد فارس حتى عهد الوزير علي بن عيسى ابن الجراح في بداية وزارته الأولى (٣٠١-٣٠٤هـ/٩١٣م-٩١٧م) حيث عُقد الضمان (٥٦) على (عبدالرحمن بن جعفر الشيرازي) على فارس فأخر المال، واحتج بتظلم أهل فارس من التكملة المذكورة و امتناعهم من أدائها، فكتب الوزير علي بن عيسى إلى والي الأهواز و طلب منه التوجه إلى فارس و مطالبة عبدالرحمن بما حل عليه من المال و النظر في أمر التكملة و شرح أمرها (٥٧) وجاء الرد من فارس بشأن التكملة بأن العمال يستضعفون قوماً من أرباب الخراج فيلزمونهم التكملة أكثر مما يلزمهم، ويرهبون آخرين، فيحملونهم أقل مما يخصهم وأن مطالبة الناس بهذه التكملة ظلم، وأن بفارس ما هو أولى بالمطالبة وهو خراج الشجر والكروم؛ لأن فارس افتتحت عنوةً، وهي في أيدي المزارعين على سبيل الإجارة، ولا حجة لهم في دفعهم إلا دعواهم أن المهدي أسقطه عنهم. (٥٨)

وخراج الشجر هذا كان أهل فارس قد أعفوا منه منذ خلافة المهدي الذي كان قد قلد (خالد بن برمك) ولاية فارس فأناج عنه ابنه (بحيى) الذي قام بتقسيط الخراج على السكان، وأعفاهم من خراج الشجر الذي أرهقهم وجعلهم يتدمرون.

واستمر هذا الإعفاء حتى خلافة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م) (٥٩)، حين أعيد عليهم بعد أن أفتى الفقهاء بوجوب خراج الشجر وبطلان التكملة وتمكن

الوزير (علي بن عيسى) من إقناع الخليفة (المقتدر) بضرورة إلغاء التكملة وأمره بكتابة ذلك في حضرته. (٦٠) فكتب الوزير علي بن عيسى كتاباً يذاع في المساجد الجامعة بإلغاء هذا الرسم وهو ضريبة التكملة بفارس وإلغاء جبايتها، وبوجوب خراج الشجر سنة (٣٠١هـ-٩١٣م)، والمطالبة به في سائر كور فارس على استقبال سنة (٣٠٣هـ-٩١٥م) (٦١)

وبالعودة إلى أعياد غير المسلمين وأيامهم فقد كان المسلمون يشاركون أهل الذمة في أقاليم المشرق أفراحهم وأعيادهم العامة ومنهم أهل خراسان وما وراء النهر وفارس الذين كانوا يحتفلون ببعض الأعياد والأيام في المنطقة قبل الإسلام وبقي الاحتفال بها حتى القرنين الثالث والرابع الهجريين ومنها:

عيد النيروز وعيد المهرجان ويوم السدق (٦٢)

١- عيد النيروز (النيروز): وهو أعظم أعياد الفرس وأجلها (٦٣)

ونيروز معرب نوروز NOV-ROOZ ومعناه التركيبي اليوم الجديد، وهو اسم مكون من كلمتين فارسيتين هما نو بمعنى الجديد وروز بمعنى اليوم (أي اليوم الجديد) وهو عيد قومي يحتفل به جميع الفرس على اختلاف نحلهم

ولهم فيه تقاليد يحافظون عليها ومدته عندهم ستة أيام وسمي اليوم السادس النيروز الكبير أولها اليوم الأول من شهر (فروردين) (فروردينماه) أو (فريدونماه) أو (فريدون ماه) الذي يوافق أول شهور سنتهم، والنيروز اذن بدخول فصل الصيف، واليوم الأول يوافق أول شهور سنتهم الفارسية (وهو عيد رأس السنة الفارسية) وهو أول شهور الربيع في التقويم الفارسي ويوافق شهر يونيو (حزيران). (٦٤)

وقد جعله الفرس ميقاتاً للبدء في جباية الخراج، فاستمر ذلك التقليد في العصر الإسلامي.

ومن العادات التي كان الفرس يفعلونها في هذا اليوم: التهادي بالسكر، ويقال إن السبب في ذلك أن السكر اكتشف في إيران في يوم النوروز، لهذا كان الناس يتهادون به ويتبركون به في هذا اليوم، ومن عاداتهم أيضاً في هذا اليوم إيقاد النار ليلة هذا اليوم ورش الماء (يرش الناس بعضهم بعضاً بالماء في الصباح) لاعتقادهم أن إيقاد النار يطهر الجو من وخم الشتاء والماء يطهر الأجساد مما علق بها من أدران العام المنتهي أو الماضي وينظفها من دخان النيران التي أوقدت ليلة النيروز. بالإضافة إلى تولية العمال تقريب القربان وإشادة البنيان. (٦٥) ومن عاداتهم أيضاً تبادل الهدايا فيما بينهم وإرسالها إلى حكامهم كما كان يحدث في قرية نضير أباذ بقزوين كما كان أهل إصفهان يقبلون على شراء البضائع والهدايا في عيد النيروز بأثمان رخيصة، ويكثر اعتياد الناس للسوق والجميع في سعادة وابتهاج. (٦٦)

٢- عيد المهرجان (تيمروز):

وهو معرب مهر كان MEHR-GAN

على وزن ومعنى معربه مهرجان وهو في السادس عشر من شهر مهرماه من شهور الفرس وهو الشهر السابع من سنتهم ويوافق شهر ديسمبر (كانون الأول)، وهو أكبر أعياد الفرس بعد النيروز ومدته ستة أيام ويسمى اليوم السادس المهرجان الأكبر وكان يحتفل به أول الشتاء، وكان الناس يتبادلون الهدايا مثلما كانوا يفعلون في عيد النيروز. (٦٧) ومن مظاهر احتفال بعض رجال الحكم بإقليم الجبال اجتماع الشعراء عندهم في قصورهم لسماع القصائد في مديحهم. (٦٨)

وسبب تسمية المهرجان بهذا الاسم أنهم كانوا يسمون ملوكهم بأسماء شهورهم، فاتفق أن أحد ملوكهم كانوا يسمونه مهر وكان يتصف بالعنف والعسف، فمات في شهر مهرماه، فسمى الناس ذلك اليوم الذي مات فيه مهرجان ومعناه روح مهر ذهب أو نفس مهر ذهب وجعلوه يوماً يحتفل به. (٧٠)

وكانوا في خراسان وبلاد ماوراء النهر يزينون الأسواق في أعيادهم هذه ولا يجدون غضاضة في مشاركتهم المجوس أعيادهم مادامت لا تؤثر على عقيدتهم، كما اعتاد الناس في هذا اليوم قرع الطبول، والنفخ في الأبواق وتعليق الزينات وكان بعضهم يعتقد أن من أكل في هذا اليوم رمان وشم ماء الورد دُفعت عنه آفات كثيرة (٧١) وفيه يأكلون الدجاج المشوي والبيض المسلوق وبعض المحمرات والصميط، ويتناولون الطعام بأصابعهم (٧٢) ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة مهرجان دخلت إلى اللغة العربية وصارت تطلق على احتفال مهم أو اجتماع عظيم (٧٣)

عيد السدق (سدّه):

السدق تعريب سدّه وعيد (سدّه) يقع في العاشر من شهر بهمن (بهمن ما) من شهور الفرس (٣٠ كانون الثاني، يناير-فبراير) وهو من الأعياد الفارسية القديمة كانوا يلعبون فيه بالأسهم النارية. (٧٤) وكان أهم أعياد النار وكان الفرس في مسائه يتبخرون لطرد السوء ومن الرسوم في ليلة السدق إشعال النيران وإرسال الوحوش فيها وتطير الطيور في لهبها والتلهي حولها (٧٥) ويبدأ الاحتفال به ليلة الحادي عشر من شهر بهمن، وذلك اليوم الذي يسمى أيضاً أبان روز ويرجع سبب التسمية إلى فريساب أحد ملوك الفرس القدامى الذي سار إلى بابل وأكثر فيها الظلم والفساد وخرب العمران فخرج عليه رجل يدعى دق بن طهماسب وطرده عن مملكته إلى بلاد الترك في يوم أبان روز من شهر بهمن فاتخذ الفرس ذلك اليوم عيداً لهم وكانوا يوقدون النار في ليلته واحتفالهم به يشبه احتفالهم بيوم النيروز (٧٦) ولعل الاحتفال بهذه الأعياد والأيام لإيجاد نوع من الترابط والمودة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى وعادة للفرح والسرور غير مرتبطة بقضية عقيدة.

قائمة المصادر والمراجع و الهوامش

- ١- القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٢٥٦.
- ٢- حسنين: عبد المنعم، إيران في ظل الإسلام، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ، ص 25، ص 29.
- ٣- البلاذري: أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٣٧٨-٤٠٢، كريستسن: آرثر، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص 161, 157, 156, 107, 75, 55 حسن: علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص.23.
- ٤- ولير: دونالد، إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد المنعم حسنين، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص 51، أرنولد: توماس. و.، الدعوة إلى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص 237، فرج: محمد، الفتح العربي للعراق وفارس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٨٦ هـ، ص 278 - 275.
- ٥- الطبري: محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج ٢، ص 548, 549, 552.
- ٦- أرنولد، المرجع السابق، ص 237.
- ٧- علي إبراهيم: التاريخ الإسلامي، ص 23، Morgan, David: Medieval Persia, Singa, Porc, 1988, p.14-15.
- ٨- أرنولد، المرجع السابق، ٢٣٩-٢٤٠، Morgan, op.cit. p.15-16.
- ٩- الطبري، المصدر السابق، ج ٢، ص 548، أرنولد، Morgan, op.cit. p.15, ص 239.
- ١٠- الطاهر: عبد الباري محمد، خراسان وبلاد ما وراء النهر بلاد أضعاءت العالم بالإسلام، دون بيانات نشر، ص 108، ص 109.
- ١١- جزيرة قيس: ويكتبها الفرس (كيش) ويلفظ اسمها بصورة قيس وقيش وكيش وكيس (ابن خرداذبة: عبيد الله، المسالك والممالك مكتبة المثني، بغداد، د.ت.، ص 62.

- ١٢- بنيامين التطيلي: بنيامين بن يونه، رحلة بنيامين ترجمة عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد
١٣٦٤هـ، ١٩٤٥م، ص 164
- ١٣- عبد الباري الطاهر، المرجع السابق، ص 108 - 109
- ١٤- كريستسن، المرجع السابق، ص161، أرنولد، المرجع السابق، ص 235 - 237
- ١٥- أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، تحقيق محمد البناء، دار الإصلاح، د.م.،
١٤٠١هـ، ص 87 - 91 ، ٢٥٣، ابن زنجويه: حميد بن مخلد، كتاب الأموال، تحقيق
شاكر فياض، مركز الملك فيصل للبحوث، الرياض، ١٤٠٦هـ، ج ١ ص 156, 195, 368،
، البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار مطابع الشعب، د.م.د.ت.، ج ٤
ص117
- ١٦- أبو يوسف، المرجع السابق، ص٨٧، ٢٥٣، الشافعي: محمد بن ادريس، الأم، الدار
المصرية، بولاق، ١٣٢١هـ، ج٤، ص102 ، ابن سلام: أبو عبيد، الأموال، مؤسسة ناصر
للثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ج١، ص 25-24
- ١٧- علي حسن، المرجع السابق، ص 543-545
- ١٨- أبو يوسف، المصدر السابق، ص87 - 91 - 253 ، ابن قدامة: عبد الله بن أحمد،
المقنع، مطبعة مجلة المنار الإسلامية، مصر، ١٣٢٢هـ، ص 243
- ١٩- الشافعي، الأم، ج٤، ص 193 -192- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر، أحكام أهل
الذمة، دار العلم، بيروت، ١٩٨٣م، ص 39، الحسن: محمد، العلاقات الدولية، مكتبة النهضة
الإسلامية، الأردن، ١٤٠٠هـ، ص34
- ٢٠- ابن آدم: يحيى، كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ، ص 22، عريب: عريب بن
سعد القرطبي، صلة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م،
ص 89.، Frye, rn., iran, london, 1960, p.45.
- ٢١- القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية ٦.
- ٢٢- المسعودي: علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٨م،
ج٢، ص 249 - 243 - الإصطخري: إبراهيم بن محمد، مسالك الممالك، مطبعة بريل،
ليدن، ١٩٢٧م، ص 100، ص 118 - 119

- ٢٣- يحيى بن آدم، المصدر السابق، ص 22 زيدان: جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية، ج٢، ص 301 - 300، مصطفى: شاكر، دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣م، ج١، ص 576-575
- ٢٤- الإصطخري: إبراهيم بن محمد، مسالك الممالك، دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٢٧م. ص 99، ص 115 - 114 المقدسي: محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، ١٩٠٦م، ص 449
- ٢٥- يحيى بن آدم، المصدر السابق، ص 22، جرجي زيدان، المرجع السابق، ج٢، ص 301 - 300
- ٢٦- أبو يوسف، المصدر السابق، ص 110, 109, 91, 87, 73 - ابن زنجويه، المصدر السابق، ج١، ص 368, 365, 220, 218, 214, 209, 187
- ٢٧- الطبري، المصدر السابق، ج٥، ص 151، يونس: أحمد عبد الحلیم، تطور أنظمة استثمار الأرض الزراعية في العصر العباسي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٦م، ص 124
- ٢٨- أبو يوسف، المصدر السابق، ٧٣-٩١، ١٠٩، ابن زنجويه، المصدر السابق، ص 209, 212, 219 يحيى بن آدم، المصدر السابق، ص 21, 22
- ٢٩- ابن رجب الحنبلي: عبد الرحمن بن أحمد، الاستخراج لأحكام الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ، ص 9، 11؛ الماوردي، المصدر السابق، ص 198، حسن: حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص 257.
- ٣٠- البلاذري، المصدر السابق، ص 282-280 - ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، شركة طبع الكتب العربية، مصر ١٣١٧هـ، ص 164، الماوردي، المصدر السابق، ص 198، أبو يعلى: محمد بن الحسين الفراء، الأحكام السلطانية، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٦هـ، ص 185
- ٣١- الاستخراج لأحكام الخراج، ص 11.
- ٣٢- تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص 522.
- ٣٣- أبو يوسف، المصدر السابق، ص 112، الرحيبي: عبد العزيز بن محمد، فقه الملوك ومفتاح الرتاج، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٣م، الكتاب الثامن، ج١، ص 35, 347, 350، دينيت: دانيل، الجزية والإسلام، ترجمة فوزي فهيم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٠م، ص 58

- ٣٤- يحيى بن آدم، المصدر السابق، ص 22 جرجي زيدان، المصدر السابق، ج ٢، ص 300،
Morgan, OP, cit. p. 16, - 301
- ٣٥- شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج ١، ص 576, 577
- ٣٦- الصابي: هلال بن المحسن، الوزراء، تحقيق عبد الستار فراخ، دار إحياء الكتب العربية،
١٩٥٨م، د.م.، ص 12, 17 -، يونس، المرجع السابق، ص. 129
- ٣٧- التتوخي: المحسن بن علي، نشوار المحاضرة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر بيروت،
١٩٧٨م، د.ت.، ج ٨، ص 87، الجومرد: عبد الجبار، أبو جعفر المنصور، دار الطليعة،
بيروت، ١٩٦٣م، ص 337 .
- ٣٨- مسكويه: أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، مطبعة شركة التمدن الصناعية،
مصر، ١٩١٥م، ج ١، ص 18، 374 ، الدوري: عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية
المتأخرة، بغداد، ١٩٤٥م، د.ن، ص 190, 191 .
- ٣٩- مسكويه، المصدر السابق، ج ١، ص 359 ، الماوردي، المصدر السابق، ص 17 ، أبو
يعلى، المصدر السابق، ص. 168
- ٤٠- ابن مماتي: أسعد بن المهذب، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر،
القاهرة، ١٩٤٣م، د.م.، ص 358 .
- ٤١- احمد يونس، المرجع السابق، ص 71.
- ٤٢- البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقولة، مطبعة دائرة المعارف
العثمانية، الهند، ١٣٧٧هـ، ص 295 ، ابن مماتي، المصدر السابق، ص. 358
- ٤٣- أبو يوسف، المصدر السابق، ص 230 ، الماوردي، المصدر السابق، ١٧٠، أبو يعلى،
المصدر السابق، ص 168.
- ٤٤- البيروني، المصدر السابق، ص 295 ، ابن مماتي، المصدر السابق، ص 358.
- ٤٥- الجاحظ: عمرو بن بحر، كتاب التاج، تحقيق فوزي عطوى، دار صعب، بيروت، ١٩٧٠م،
ص 146، الزمخشري: محمود بن عمر، ربيع الأبرار، تحقيق سليم النعيمي، مطبعة العاني،
بغداد، ١٩٧٦م، ج ١، ص 85 .
- ٤٦- ابن مماتي، المصدر السابق، ص 358، الخضري: محمد بك، محاضرات تاريخ الأمم
الإسلامية - الدولة العباسية -، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٧٠م، ص 323.

- ٤٧- الطبري، المصدر السابق، ج٥، ص 61، الخضري بك، المرجع السابق، ص 323.
- ٤٨- المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص٣٤، ٣٥، النويري: أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.، ج١، ص 185,186 ، وانظر عيدي النيروز والمهرجان، ص 7,8 من هذا البحث.
- ٤٩- المسعودي، المصدر السابق، ج١، ص 34,35- ، البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، لايزج، ١٩٢٣م، د.م.، ص 44,47 - The encyclo paedia of islam .
leiden E.J. , Brill 1965.Vol. 11. P.460. لواسم الكاتب غير مذكور.
- ٥٠- البيروني: الآثار الباقية، ص 44,47- ، 70، المقرئزي: أبو العباس أحمد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت، د.ت.، ج١، ص 271,277- .
- ٥١- ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٥، هامش ص 149 ، الخضري بك، المرجع السابق، ص 324 ، جرجي زيدان، المرجع السابق، ج٢، ص 372.
- ٥٢- الطبري، المصدر السابق، ج٥، ص 610 ، ابن الجوزي، المصدر السابق، ج٥، ص 149 ، ابن الأثير: عزالدين علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج٧، ص 186, 4.
- ٥٣- الرئيس: محمد ضياء الدين، الخراج في الدولة الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، مصر، ١٩٥٧م، ص 514 .
- ٥٤- بنو الصفار: أو الدولة الصفارية: خضعت فارس للسيطرة الصفارية عندما تمكن يعقوب بن الليث من الاستيلاء عليها سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م، وبقيت فارس تحت السيطرة الصفارية حتى عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، وأبرز شخصيات الدولة الصفارية مؤسسها(يعقوب) ويلييه أخوه (عمرو) ثم خلفاء عمرو. (الطبري، المصدر السابق، ج٥، ص 427, 429
- ٥٥- الصابئ: الوزراء، ص 366، علي: محمد كرد، الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ج٢، ص 251.
- ٥٦- الضمان: وهو أن يجعل شخص قبيلاً أي ضامناً وكفيلاً بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه للدولة وعرف فيما بعد بنظام الالتزام. (ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، د.ت.، ج٣، ص 13، الخضري بك، المرجع السابق، ص 199، الرئيس، ص 261,507

- ٥٧- الصابي، الوزراء، ص 366، 371.
- ٥٨- الإصطخري، ص 158، الصابي، الوزراء، ص 367- 368، محمد كرد علي، المرجع السابق، ج ٢، ص 251.
- ٥٩- الجهشياري: محمد بن عبدوس، الوزراء و الكتاب، تحقيق مصطفى السقا و آخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م، ص 151، ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص 264- 265، الصابي، الوزراء، ص 368-373.
- ٦٠- الإصطخري، المصدر السابق، ص 158، الصابي، الوزراء، ص 368- 369.
- ٦١- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 264 - 265، الصابي، الوزراء، ص 369- 373، الهمداني: محمد بن عبدالمك، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٧/١٩٧٧م، ص 203.
- ٦٢- عبد الباري الطاهر، المرجع السابق، ص 128.
- ٦٣- الزمخشري محمود بن عمرو، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، تحقيق سليم النعيمي، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م، ج ١، ص 85، النويري، نهاية الأرب، ج ١، ص 185- 186، آل علي: نور الدين، التعريب، القاهرة، ١٩٧٩م، ص 162.
- ٦٤- الجاحظ، التاج، ص 146، الزمخشري، ربيع الأبرار، ج ١، ص 85، نور الدين آل علي، التعريب، ص 62، 142، 162.
- ٦٥- الجاحظ، التاج، ص 146، الزمخشري، المصدر السابق، ج ١، ص 85.
- ٦٦- الجاحظ: عمر بن بحر، كتاب التاج، تحقيق فوزي عطوا، دار صعب، بيروت ١٩٧٠م، ص 146. المافروخي، محاسن اصبهان، ص 93، القزويني، اثار البلاد، ص 469 .
- ٦٧- الجاحظ: المحاسن والاضداد، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٨م، ص 201، المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص 34- 35، النويري المصدر السابق، ج ١، ص 187، نور الدين آل علي، التعريب، ص 203، القلقشندي، المصدر السابق، ج ٢، ص 422، الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٤، ص 138.
- ٦٨- البيروني، الآثار الباقية، ص 23، الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٣، ص 163.
- ٦٩- الصياد: فؤاد عبد المعطي، النوروز وأثره في الأدب العربي، ص 25.

٧٠- التونجي: محمد، المعجم الذهبي، فارسي، عربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م، ص 338.

٧١- البيروني، الآثار الباقية، ص 232.

٧٢- البيهقي: ابو الفضل محمد بن حسين(ت٤٧٠) كتاب تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص 16.

٧٣- فؤاد الصياد، المرجع السابق، ص25، هامش ١.

٧٤- النويري، نهاية الأرب، ج١، ص 187 ، الفلفشندي: أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د.ت.، ج١، ص 421.

٧٥- البيهقي: ابو الفضل محمد بن حسين(ت٤٧٠) كتاب تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى خشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص 16.

٧٦- عبد الباري الطاهر، المرجع السابق، ص 129.

من جديد حول الإدريسي إشارات اجتماعية واقتصادية من كتاب نزهة المشتاق - الأندلس أنموذجاً -

أ.د. كمال السيد أبو مصطفى

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية التربية - جامعة الإسكندرية

مقدمة:

يعتبر الإدريسي^(١) (ت سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) من أبرز الجغرافيين المسلمين الذين أسهموا بقدر وافر في تطور علم الجغرافيا في العصر الإسلامي، وهو ينتسب إلى الإشراف الأدراسة الحسينيين الذي حكموا المغرب الأقصى منذ الربع الأخير من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، وكذلك في مالقة والجزيرة الخضراء على يد بني حمود الأدراسة في أعقاب الفتنة القرطبية وضعف الخلافة الأموية في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

وقد وَفَدَ الإدريسي على روجار الثاني النورماندي ملك صقلية، فأحاطه بالرعاية والتكريم، ورسم له خريطة للعالم المعروف في عصره، كما أَلَّفَ له كتاباً لوصف تلك الخريطة، وهو المسمى بالكتاب الروجاري أو "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وصف فيه بلاد المغرب والأندلس وآسيا الصغرى ومصر والشام وصقلية والعديد من البلدان الأخرى سواء الإسلامية أو المسيحية، وعلاوة على ذلك، هناك مؤلفات أخرى للإدريسي مثل كتاب "أنس المُهَج وروض الفرج"، (نشره وحققه جاسم عابد بمدرية سنة ١٩٨٩) وهو مختصر لكتابه "روض الأنس ونزهة النفس"، أو كتاب "المسالك والممالك" والأدوية المفردة" أو "كتاب الجامع لأشتات النبات" ولا يزال مخطوطاً كما يذكر أستاذنا د/مؤنس^(٢).

ويهمنا في هذا الصدد كتابه "نزهة المشتاق" وبالتحديد وصفه لبلاد الأندلس - موضوع الدراسة - حيث قَسَمَهَا المؤلف إلى أقاليم فذكر أسماءها، ثم بدأ في وصف كل مدينة أو قرية أو حصن، موضعاً الموقع ومدى تحصينه وكيفية السقيا سواء من مياه الأودية (الأنهار) أو الآبار والعيون أو الأمطار. ونلمس دقة ملاحظته في توضيح حالة تلك الأودية، وهل هي

دائمة الجريان طوال العام أم موسمية؟ وأيضاً مياه الآبار، وهل تمتاز بالعدوية أم غير صالحة للشرب؟، كما تعرض لما حول الموضوع أو المدنية من بوادٍ أي مناطق قروية زراعية، وما تشتهر به من محاصيل وثروة حيوانية أو معادن وصناعات ومتاجر.

ومن ناحية أخرى اهتم الإدريسي بالحديث عن المسافات بين كل مدينة وأخرى بالأميال والمراحل والأيام^(٣)، وكذلك الإشارة أحياناً لأحوال السكان الاقتصادية ومستواهم المعيشي وطبائعهم وأخلاقهم وبعض عاداتهم الاجتماعية، علاوة على مراكز استقرار بعض القبائل العربية والبربرية في جهات الأندلس المختلفة، ومظاهر العمران الحضري والقروي من دور ومساجد وحمامات وأسواق وفنادق وقصاب أو قلاع، كما ألمح إلى بعض المكابيل والموازن والمقاييس والعملية في عصره (القرن ٦هـ / ١٢م) أي عصر المرابطين وأوائل عصر دولة الموحدين.

وقد اعتمد الإدريسي في القسم الخاص بالأندلس من كتابه "نزهة المشتاق" على مصادر سابقة عليه لجغرافيين أندلسيين من أمثال الرازي والعنزي والبكري، علاوة على مشاهداته الشخصية واستفادته ممن التقى بهم من أهل الخبرة بالنواحي أو المواضيع الأندلسية المختلفة^(٤).

تمهيد:

يتضح لنا من خلال وصف الإدريسي لبلاد الأندلس أنه قسم المدن الأندلسية من ناحية الأهمية والمساحة والعمران الحضري إلى ثلاثة أنواع وهي: إما قواعد أو حواضر كبرى مثل قرطبة وطليطلة وسرقسطة وبلنسية وإشبيلية وقرطبة ومرسية^(٥)، أو مدن متوسطة القدر مثل شريش والمنكب ووادي آش وبسطة^(٦)، وأخيراً مدن صغيرة مثل مريلة وباغة ولقنت ولاردة^(٧).

كما قسمها من ناحية التأسيس إلى نوعين: وهي إما مدن قديمة أزلية أي سابقة على الفتح الإسلامي مثل طليطلة وقرطبة وماردة، وقرطاجنة الحلفاء ولبلة وسرقسطة^(٨)، أو مدن محدثة أي من تأسيس المسلمين بعد الفتح مثل مدينة سالم وقلعة أيوب ومرسية والمريّة ومجريط^(٩).

كذلك، لم يغفل الإدريسي الاهتمام بالعمران القروي، فألمح إلى وجود العديد من القرى الأندلسية التي تشبه المدن في عمرانها وكثافة سكانها، والتي يصفها في مواضع عديدة بأنها قرى "أهلة عامرة"^(١٠)، وأوضح أيضًا أن هناك بعض الحصون تماثل إلى حد كبير المدن في عمرانها، فيذكر أنها "عامرة ممدنة أهلة"^(١١).

ومن ناحية أخرى، أمدا الإدريسي بإشارات قيمة تتعلق بالتقسيمات الإدارية في الأندلس، وحدود الكور، ومن ذلك أن قنطرة لبلبة هي الحد لفاصل بين كورتي إشبيلية ولبلة، كما تعرض لأهم الطرق التجارية الداخلية، والمنازل أو المحطات الواقعة عليها، والتي تقدم خدماتها للتجار والمسافرين^(١٢).

أولاً: الإشارات الاجتماعية:

اهتم الإدريسي كثيراً في وصفه الجغرافي لبلاد الأندلس بمظاهر العمران الاجتماعي والاستقرار البشري في مختلف جهات الأندلس، فتعرض للدور ليس في الحواضر فحسب بل أيضًا في المجتمعات القروية، ومن أمثلة ذلك وصفه لمدينة سرقسطة بأنها "كبيرة القطر أهلة بالسكان واسعة الشوارع والرحاب وحسنة الديار...."^(١٣)، وسميت بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها ولطلاء واجهات دورها باللون الأبيض^(١٤)، أما شلب فهي مدينة حسنة، بديعة المباني^(١٥)، وبسطة تشتمل على ديار حسنة البناء^(١٦)، ومدينة يلبش (قرب بطليوس) بها عمارة وديار كثيرة^(١٧)، في حين أن قرى إشبيلية عامرة بالديار الحسنة^(١٨)، وكذلك قرى إقليم الشرف (غرب إشبيلية) والتي تبلغ ثمانية آلاف قرية "عامرة أهلة"^(١٩)، ورغم أن هذا العدد يتسم بالمبالغة من جانب الإدريسي إلا إن له دلالة على مدى اتساع العمران في تلك القرى وكثرة سكانها خاصة في ظل النشاط الفلاحي الواسع الذي يتميز به إقليم الشرف المشهور بزراعة الزيتون.

وألمح الإدريسي أيضًا إلى أرياص بعض المدن وعمرانها الحضري وكثافة سكانها مثل ريصن الحوض غرب المرية حيث يصفه بأنه عامر بالناس والديار والفنادق^(٢٠).

وفيما يختص بالعمران البشري والقروي، فقد زدنا بإشارات مهمة في هذا الصدد، ومن أمثلة ذلك ذكره العديد من أسماء القرى والحصون على طريق الوادي الكبير بين إشبيلية وقرطبة، مثل قرية أرحاء الزرادة وعطف منزل أبان وقطنيانة والقلعة ولورة وحصن

الجوف وشوشبيل وحصن المدور ووادي الرمان وأرجاء ناصح^(٢١)، ويضيف بأن الكثير من القرى والحصون تقع أيضاً على الطريق بين المرية وقرطبة مثل قرية بني عبدوس وحصن مندوجر ومرشانه وبلذوذ والرتبة وعبلة وغيرها^(٢٢).

ومن مظاهر العمران الاجتماعي هناك الحمامات التي أسهمت بدور كبير في الحياة الاجتماعية باعتبارها أحد المواضيع التي يجتمع فيها الناس للنظافة والطهارة والسمير ومجالس الأتس، وتعرض الإدريسي لكثرة الحمامات في بعض الحواضر مثل قرطبة والمرية ومالقة وغيرها، وكذلك في بعض المدن الصغيرة والقرى الكبيرة مثل طريف وقرى إقليم الشرف وقرية عذرة وبزليانة وحصن قيشاطة^(٢٣).

كما تحدث عن منشآت ذات طابع اجتماعي علاوة على دورها التجاري مثل الفنادق، فأوضح كثرتها في بعض الحواضر مثل قرطبة والمرية التي بلغ عدد فنادقها خلال عصر المرابطين (القرن ٤٦٠ هـ / ١٠٢٠ م) ٩٧٠ فندقاً^(٢٤)، وأشار إلى وجود فنادق في مدن أخرى مثل مالقة وطريف وحصن قيشاطة^(٢٥).

وقد وجّه الإدريسي اهتمامه أيضاً بمراكز استقرار بعض القبائل العربية والبربرية في الأندلس، فيذكر أن بعض القبائل العربية استقرت في مواضع تُسببت إليها مثل قبيلة غافق (من العرب العدنانية) ينسب إليهم حصن غافق^(٢٦) (شمال قرطبة)، وقبيلة مراد (من العرب اليمينية) التي استقرت في حصن مراد^(٢٧) (قرب حصن المدور بين إشبيلية وقرطبة)، وقبيلة صدف اليمينية التي تُنسب إليها قرية صدف (آخر حدود كورة إشبيلية من ناحية الشرق). كما نزلت جماعات من العرب القضاعيين (اليمينية) وعلى رأسهم بنو أسود - بساحل بجانة لحراسته، وتنسب إليهم رابطة القبطة أو قابطة بني أسود^(٢٨)، كذلك كان سكان مدينة شلب وقراها من اليمينية^(٢٩).

ويضيف بأن هناك بعض القبائل البربرية استقرت في مواضع معينة سواء في جنوب الأندلس أو في الثغور، كما في قرمونة التي كان معظم أهلها من البربر، واستقل بها بنو برزال (من بطون زناتة) وأقاموا إمارة بربرية أوائل عصر دويلات الطوائف (القرن ١٠٥٠ هـ / ١١٠٠ م)^(٣٠)، وكذلك شنت فيله (من أعمال كورة إشبيلية) التي يصفها بأنها "مقل البربر من قديم الزمان"^(٣١)، وفي مناطق الثغور حيث استقر بنو سالم (من بربر مصمودة) في

الموضع الذي عُرف بهم (مدينة سالم) وبنو رزين (من بربر هواره) أصحاب شنتمرية الشرق أو السهلة، التي تُسبت إليهم (سهلة بني رزين)، وبنو دانس (من بربر مصمودة) الذين نزلوا بموضع عُرف باسمهم وهو قصر أبي دانس بغرب الأندلس^(٣٢).

وألمح الأديسي أيضاً إلى بعض المدن التي سكنها اليهود منذ ما قبل الفتح وكانوا يمثلون أغلبية سكانها مثل طركونة التي يصفها بأنها "مدنية اليهود"^(٣٣)، وكذلك اليسانه وتسمي أيضاً بمدنية اليهود^(٣٤).

وجدير بالملاحظة؛ إن الإديسي أمدنا بإشارات قيمة - قلما نجدها في المصادر الأخرى - عن طبائع وأخلاق سكان بعض المدن والقرى والحصون، ومن ذلك أن سكان شلب وبواديها أو قراها يتكلمون العربية الفصحى؛ لأنهم من اليمنية - كما سبق الذكر - كما يمتازون بالفصاحة ونظم الشعر، وهم نبلاء سواء أفراد الخاصة أو العوام^(٣٥)، كما إن سكان بواديها يتصفون بالكرم الشديد لا يجاريهم في ذلك أحد من أهل الأندلس^(٣٦)، في حين أن سكان مدينة ترجاله (شمال مارده) يغلب عليهم الصوصية والخداع^(٣٧)، ويضيف بأن نساء بلبش (بغرب الأندلس قرب بطليوس) يتميزن بالجمال الفائق، وكذلك نساء جنجاله (من أعمال كورة مرسية) لديهن جمال وحصافة^(٣٨).

ولم يغفل الإديسي الحديث عن شجاعة وفروسية سكان بعض المناطق الثغرية، ومن ذلك حصن قاصرش (قرب ترجاله)، حيث يصف أهلها بأنهم فرسان شجعان، لهم غارات وغزوات عديدة في أراضي النصارى الإيبان المجاورة لهم بمنطقة غرب الأندلس^(٣٩)، كذلك سكان ترجاله ومعظمهم من الفرسان والرجالة الذي يقضون جُل حياتهم في الجهاد والإغارة على النصارى الإيبان المتاخمين لأراضيهم^(٤٠)، كما وصف أهل حصن بطروش وغافق بالحزم والنجدة والجلد والاستبسال في محاربة أعدائهم^(٤١)، وكذلك سكان حصن إفراغه بالثغر الأعلى الذين امتازوا بشدة البأس والشجاعة في الحروب خاصة، وأنهم في منطقة ثغرية تواجه مملكة أراجون المسيحية^(٤٢).

كما تعرض لسكان بعض الرُّبُط أو الرابطات سواء على السواحل أو في الثغور مثل موضع يسمى الرابطة قرب المرية، وكان يضم قوماً لحراسة الطرق التجارية في تلك المنطقة من أخطار اللصوص وقطاع الطرق، وهناك أيضاً رابطة روضة قرب ساحل

قادس^(٤٣)، ورايطة كشطالي (شماليّ طرطوشة) قرب وادي إبرة بالثغر الأعلى، ويصف سكانها بأنهم قوم أختيار^(٤٤)، وهم غالبًا من المتصوفة الزهاد المنقطعين للعبادة والذكر والجهاد دفاعًا عن تلك المنطقة الثغرية علاوة على دورهم العلمي في تدريس العلوم الدينية وعلم التصوف لمن يرد عليهم من طلاب العلم.

أفاض الإدريسي أيضًا في الحديث عن صفات وطبائع سكان الحاضرة قرطبة، فأوضح أنهم "أعيان العباد"، ويتصفون بحسن الزيّ من الملابس والمراكب، وعلوّ الهمة في المجالس والمراتب، والتأنق في الأطعمة والأشربة مع "جميل الخلائق وحميد الطرائق"^(٤٥).

وقد أمدنا الإدريسي بمعلومات مهمة عن عادات وتقاليد اختص بها سكان بعض المدن والمواضع الأندلسية، ومن أمثلة ذلك أن عادة أهل المرية في فصل الربيع الرحيل بصحبة نسائهم وأولادهم إلى حمة بجانة التي تتميز بمياهها المعدنية الساخنة للاستشفاء، والتمتع بجمال الطبيعة في احتفال من الأطعمة والأشربة والتوسع في الإنفاق، حيث يستأجرون المساكن بأسعار مرتفعة، وساعدهم على ذلك بطبيعة الحال ما تمتعوا به من ثراء ورخاء؛ لأن غالبية أهل المرية من كبار التجار الذين حازوا الثروات الطائلة.

كذلك كان من عادة القساوسة والرهبان بكنيسة الغراب (قرب شلب) على مر الأزمان إكرام الغرباء والأضياف عابري السبيل الذين يردون على كنيستهم سواء قفوا أو كثروا، وورثوا تلك العادة عن أسلافهم، حيث امتلكت تلك الكنيسة أموالاً كثيرة مدخرة، علاوة على الأوقاف العديدة التي حُبت عليها في مختلف جهات غرب الأندلس^(٤٦).

ثانياً: الإشارات الاقتصادية:

أ- الري والزراعة:

يتضح لنا مما أورده الإدريسي أن مياه الري في الأندلس كانت تعتمد أساساً على مياه الأنهار (الأودية) والآبار والعيون في حين أن مياه الأمطار كانت قليلة وموسمية في معظم مناطق الأندلس^(٤٨).

وقد وصف الكثير من المدن والقرى والحصون بأن مياهها متدفقة أو وفيرة المياه، ومن ذلك أن بمدينة طليطلة أنهار مخترقة^(٤٩)، وبلنسية على نهر جارٍ ينتفع به ويسقي المزارع^(٥٠)، وأن بمرباطر (مربيطر) مياه متدفقة عشرون ميلاً^(٥١)، ومرسية على ضفة النهر

(أي نهر شقورة) والماء يشق ريضها^(٥٢)، وسرقسطة على ضفة النهر الكبير المسمى إبرة^(٥٣)، أما جيان، فهي كثيرة العيون الجارية تحت سورها، وعلى مقربة منها نهر بلون^(٥٤)، وقلعة أيوب "عيونها مخترقة، وينابيعها مغدوقة"^(٥٥)، في حين أن فحص الفندون قرب لورقة بكورة مرسية يعتمد الري فيه غالبا - على مياه الأمطار^(٥٦).

وسائل الري:

أشار الإدريسي إلى العديد من وسائل الري التي استخدمها الفلاحون ومنها آلات رفع المياه لري الأراضي الزراعية على ضفاف الأنهار أو عند الآبار والعيون مثل النواعير والدواليب^(٥٧)، كما وُجد ما يسمى بالدواميس مثل التي اشتهرت بها مدينة ماردة، وهي عبارة عن أحواض ضخمة لحفظ المياه مشابهة للصهاريج، ويدخل الداموس قناة أو ساقية تحمل الماء إلى كل أنحاء المدينة، ويصفها الإدريسي بأنها "متقنة البناء حسنة الصنعة"^(٥٨)، ويضيف نقلا عن ذوي الخبرة والمعرفة بمدينة المنكب أنها تشتمل على حوض كبير يأتي إليه الماء من مسافة ميل على ظهر قناطر كثيرة معقودة من الحجر الصلد، فيصب ماؤها في ذلك الحوض^(٥٩)، فينتفع به في الري، كما تدار به أرحاء طحن الحبوب بالمدينة.

كذلك ألمح الإدريسي إلى بعض المنشآت المائية لتنظيم أعمال الري التي ترجع إلى العصر الروماني، مثل القناطر كما في قرطبة وطليلة وماردة واستجة ولبلبة وغيرها^(٦٠). أما التربة، وهي من العوامل المهمة المساعدة على قيام وازدهار النشاط الفلاحي، فقد امتدح خصوبة تربة الأندلس في العديد من المناطق الزراعية، وعلى رأسها فحص الفندون، الذي يصفه بأنه طيب الأرض، وتوجد فيه الزراعة "وأن الزرع فيه ينثر بسقي مطرة واحدة، وإليه المنتهى في الجودة....."^(٦١)، كما وصف الكثير من المدن القرى والحصون بخصوبة التربة، ولذا توجد الزراعة فيها مثل جيان ولقنت وفحص بلاطة بغرب الأندلس وبريانية بكورة بلنسية وقلعة أيوب ويابره وقصر أبي دانس وطلبييرة (غرب طليطلة) وحصن طشكر (قرب بسطة) ويابرة وغيرها^(٦٢).

المحاصيل الزراعية:

تعرض الإدريسي للكثير من المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها البوادي (القرى) الأندلسية ومن أهمها القمح أو الحنطة، حيث تركزت زراعته في بعض المناطق مثل

فحص بلاطة^(٦٣)، ويضيف نقلا عن نوي الخيرة من أهل أشبونة وغرب الأندلس أن الحنطة تزرع في هذا الفحص فقيم في الأرض أربعين يوماً فتحصد، وأن الكيل منها يعطي مائة كيل.... وذلك لخصوبة التربة^(٦٤).

وهناك مناطق أخرى اشتهرت بوفرة الحنطة مثل يابرة وشريش وقرمونة وجيان وأبدة التي توفرت بها مزارع القمح والشعير^(٦٥).

وقد أولى الإدريسي اهتماماً كبيراً بمحصول الزيتون لما له من أهمية في مجال التجارة الخارجية واقتصاد حوض البحر المتوسط؛ لأنه من المحاصيل النقدية في الأندلس، وتركزت أهم مناطق زراعته في إقليم الشرف بكورة إشبيلية، حيث تمتد أشجار الزيتون بالشرف حتى لبلة^(٦٦)، وكذلك في شريش^(٦٧) وحصن بيانة (قرب قبرة)^(٦٨).

ويضيف الإدريسي بأن غرسة أشجار التين عمت جهات عديدة في الأندلس، مثل إقليم الشرف وحصن قسطلة (قرب مارده) وشنتمرية الغرب وإقليم، الشنشين (قرب شلب)، ويصف التين هناك بأنه "طيب علك لذيذ شهّي"، غير أن أهم مناطق زراعته تركزت بكورة رية (مالقة) فيذكر أنه حوالي مالقة من جميع جهاتها تنتشر أشجار التين المنسوب إلى رية، وهو من أحسن التين طيباً وعودية^(٦٩)، كذلك اشتهرت مريلة (من أعمال مالقة) بكثرة أشجار التين^(٧٠).

أما الكروم، فقد غرست أشجاره بكثافة في بساتين شريش ووادي الحجارة وحصن بيانة وقلعة دروقة وبريانية وفرنجولش وقريه شاط (قرب المنكب) ولقنت ودانية وجزيرة يابسة^(٧١).

وتحدث الإدريسي أيضاً عن بعض المحاصيل الأخرى التي اشتهرت بها الأندلس مثل الكمثرى، حيث غرست بكثرة في حصن دلى (بجبل شلير قرب غرناطة) وكان به من الكمثرى كل عجيبية^(٧٢)، وكذلك الزعفران الذي زرع في بياسة، وانتشرت في بواديها زراعات ومستغلات الزعفران^(٧٣)، كما إن وادي الحجارة كان لها من غلات الزعفران الشيء الكثير....^(٧٤)، بينما اشتهر حصن فريرة (من أعمال غرناطة) بغرسة أشجار الجوز الذي لا يعدله في طعمه جوز غيرها من البلاد....^(٧٥)، أما التفاح فامتازت قلمرية بغرسته على نطاق واسع^(٧٦).

ولا شك أن المزارع بالبوادي الأندلسية زحرت أيضاً بزراعة العديد من البقوليات كالفول والحمص واللوبيا والعدس وغيرها خاصة في لقنت وشنترين وجيان^(٧٧).

الضياح والبساتين الأندلسية:

ألمح الإدريسي إلى شهرة الأندلس بالضياح والبساتين التي عمت معظم أنحاء خاصة في البوادي أو القرى، حيث برع الفلاحون الأندلسيون في إنشاء تلك البساتين وتنسيقها والعناية بغراسة الأشجار المثمرة علاوة على زراعة الرياحين والأعشاب العطرية والطبية بها.

ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أن قلمرية لها على النهر (أي نهر منديق) جنات^(٧٨)، وشنترين بها بساتين كثيرة^(٧٩)، وقورية لها بوادٍ شريفة وضياح طيبة^(٨٠)، ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها^(٨١)، "وادي الحجارة يجري بغربها نهر صغير" لها عليه بساتين وجنات....^(٨٢)، وكذلك حول وادي بجانة^(٨٣)، وغير ذلك كثير.

ولعل انتشار تلك البساتين وما تحويه من كثرة الفاكهة كان له أثره الواضح في رخص أسعارها بالأسواق، وهو ما أوضحه الإدريسي في عدة مواضع في سياق وصفه للعديد من المدن والقرى والحصون، ومن ذلك أن قلعة أيوب كثيرة الأشجار والثمار رخيصة الأسعار^(٨٤)، وفي المرية فواكه تأتي إليها من وادي بجانة تتسم بالرخص الشديد^(٨٥)، وأيضاً قلعة دروقة غزيرة البساتين "وكل شيء بها كثير رخيص...."^(٨٦).

ب- تربية الحيوان والحشرات النافعة وصيد الأسماك:

أكد الإدريسي على وفرة المراعي في عدة مناطق مما ساعد على قيام بعض سكان البوادي بحرفة الرعي وتربية الحيوان، فيذكر أن مدينة قصر أبي دانس "كثيرة الألبان والسمن واللحم"^(٨٧)، لكثرة مراعيها وثروتها الحيوانية، ويصف يابرة بأنها كثيرة اللحم، وكذلك جيان^(٨٨)، أما قلمرية فتتوفر بها الأغنام والماشية^(٨٩)، ويضيف بأن جبال الشارات الممتدة من مدينة سالم شرقاً حتى قلمرية غرباً فيها من "الغنم والبقر الشيء الكثير.... ولا يوجد شيء منها مهزولاً، بل هي في نهاية من السمن ويضرب بها في ذلك المثال في جميع أقطار الأندلس...."^(٩٠)، وعلاوة على ذلك اهتم سكان بعض المناطق الثغرية الواقعة على مقربة من أراضي الممالك الإسبانية المسيحية بتربية الخيول لأهميتها في الحروب والتنقل

بين الحواضر والقرى، ومن أبرز المدن الثغرية في هذا المجال مدينة ترجالة وحصن مدلين بالثغر الجوفي بمنطقة غرب الأندلس^(٩١).

أما حرفة تربية دود الحرير، فقد انتشرت في البوادي وخاصة في الجهات التي تكثر بها أشجار التوت، ومن أهم المناطق التي اشتهرت بذلك كورة حيان، اتي عُرفت "بجيان الحرير"، وكانت تضم أكثر من ثلاث آلاف قرية يُربي بها دود الحرير^(٩٢).

كما ألمح الإدريسي إلى تربية النحل خاصة في البوادي حيث تكثر البساتين والمزارع والأشجار والرياحين التي يتغذى على رحيقها، فيذكر أن مدينة قصر أبي دانس تشتهر بكثرة العسل وكذلك مدينة جيان^(٩٣).

ومن ناحية أخرى، أشار الإدريسي باختصار إلى صيد الأسماك حيث احترف بعض السكان تلك الحرفة لطول سواحل الأندلس وكثرة أنهارها، فيفيد بأن المنكب كثيرة مصائد الأسماك^(٩٤) (الحوت)، وكذلك قرية بزليانة (قرب مالقة) التي اشتهرت بوفرة الشباك التي يُصَاد بها الحوت الكثير، ويحمل منها إلى الجهات المجاورة لها^(٩٥).

ج- الثروة الغابية:

لم يغفل الإدريسي الحديث عن الثروة الغابية التي حظيت بها بعض المناطق الأندلسية خاصة الجبلية منها، فيذكر أن جبال شلب غنية بأشجار غاباتها التي تقطع وتحمل منها إلى كل جهات الأندلس^(٩٦)، وكذلك في قصر أبي دانس^(٩٧)، أما جبال طرطوشة، فهي تشتهر بكثرة أشجار الصنوبر وتتميز أخشابها بعدم وجود نظير لها في الطول والغلظ، وهي حمراء صافية البشرة، ول تتغير سريعاً، ولا يؤثر فيها السوس^(٩٨)، ويضيف بأن جبل حصن قيشاطة (قرب بسطة وجيان) تكثر به أشجار الغابات^(٩٩)، كما إن حصن قلصة (قرب قونكة) تتصل به جبال يكثر بها شجر الصنوبر، وتقطع بها الأخشاب التي تحمل إلى دانية وبلنسية وغيرها من مدن شرق الأندلس^(١٠٠).

وقد تعرض الإدريسي أيضاً لنبات الحلفاء الذي ينمو عادة قرب المستنقعات والمجاري المائية، فيذكر أن مدينة لقنت اشتهرت بذلك، ومنها يتجهز بالحلفاء إلى جميع بلدان البحر المتوسط^(١٠١)، كما إن حصن بطروش بمنطقة فحص البلوط (شمالي قرطبة)

تميز بوفرة شجر البلوط، وكان لسكانه اهتمام بحفظه وخدمته، وعُرفت ثماره بطعمها الفائق، وكانت غيائاً لأهل قرطبة خلال سنوات القحط والمجاعة^(١٠٢).

د - المعادن والصناعات:

أمدنا الإدريسي بالعديد من الإشارات القيمة عن المعادن التي توفرت بالأندلس ومناطق استخراجها، ومن أهمها الحديد حيث تركزت مناجمه في الحصن المعروف بقسنطينة الحديد^(١٠٣) (من أعمال كورة إشبيلية قرب فرنجولش)، ويذكر أن بجبال هذا الحصن معادن (أي مناجم) الحديد الطيب (أي الجيد) المنفق على طيبه وكثرته^(١٠٤)، كما وجدت مناجم له في شلطيش^(١٠٥)، وجبال طليطلة المعروفة بالإشارات^(١٠٦).

أما النحاس، فكانت له مناجم في طليطلة، بينما تركزت مناجم التوتيا (أكسيد الزنك) بقرية بطرنة (قرب شلويانية بجنوب الأندلس)، حيث يذكر الإدريسي أن بها معدن التوتيا "التي فاقت جميع معادن التوتيا طيباً"....^(١٠٨)، وتستخدم في صبغ النحاس.

كذلك هناك الذهب، الذي كان يُحصل عليه من حصن المعدن (قبالة لشبونة) قرب ساحل المحيط، ويضيف أنه سُمي بذلك لأنه عند هيجان البحر (المحيط) في فصل الشتاء يقذف هناك بالذهب (التبر)، ولذا يتجه أهل تلك المنطقة إلى ذلك الموضع ويمكنون هناك طوال فصل الشتاء لاستخراجه ومعالجته من الشوائب، حيث شاهدتهم بنفسه^(١٠٩)، كذلك كان لمعدن الفضة مناجم في موضع يسمى المرج قرب فرنجولش^(١١٠).

ومن المعادن التي استخرجت أيضاً من مناجم الأندلس معدن الزئبق، ويذكر الإدريسي أنه زار منجماً للزئبق بحصن أبال (شمال قرطبة)، وكان يعمل فيه أكثر من ألف رجل، ينقسموا إلى أربع مجموعات، فهناك مجموعة للنزول فيه وقطع الحجارة، وأخرى لنقل الحطب وحرق المعادن، وثالثة لعمل أواني سبك الزئبق، والأخيرة للأفران والحرق، ويضيف نقلاً عن أهل الخبرة بالمنجم المذكور أن المسافة من وجه الأرض إلى أسفل المنجم أكثر من مائتي قامة وخمسين^(١١١).

والمج الإدريسي أيضاً إلى توفر مقاطع للرخام بحصن فريش (قرب قسنطينة الحديد) الذي يشتمل على مقطع للرخام الرفيع الجليل الخطير المنسوب إليه "أي الرخام الفريشي" الذي يُعد أجَل الرخام بياضاً وأحسنه ديباجاً وأشدّه صلابة....^(١١٢).

ومن ناحية أخرى، تحدث الإدريسي عن وجود مناجم للتزبة الصفراء، والمغرة^(١١٣) (وهو تراب حديدي أحمر اللون يستخدم في الصباغة)، وكذلك نوع من الطين أو الطفل بجبال وسهول قرية مغام (قرب طليطلة)، يصفه بأنه "تهاية في لذادة الأكل وفي نظافة غسل الشعر...."^(١١٤)، وهناك أيضا مواد البناء مثل الجير (أو الكلس) والجص (الجبس)، حيث اشتهرت بذلك مدينة سرقسطة^(١١٥)، وجبال حصن حمة بجبالة التي عُرفت بكثرة الجص^(١١٦).

وعلاوة على ما سبق تميزت الأندلس بكثرة الحمّات أي العيون المعدنية الساخنة التي ينتفع بها في الاستشفاء والعلاج من بعض الأمراض، ومن أهمها حمة لشبونة، وكانت تقع بوسط المدينة، ويقصدها الناس في الشتاء والصيف^(١١٧)، وهناك حمة أخرى قرب جبالة بحصن الحمة، حيث كان يستشفى فيها أهل المرية والمناطق المجاورة خاصة في فصل الربيع^(١١٨).

أما فيما يختص بالصناعات، فقد ساعد توفر المواد الخام من معدنية وزراعية وحيوانية على قيام عدة صناعات في الأندلس، ومن أهمها حسيما أشار الإدريسي: صناعة المنسوجات التي أفرد لها نصًّا مطولاً وخاصة في مدينة المرية، موضحاً ازدهار تلك الصناعة فيها، وتعدد أنواع المنسوجات، فيذكر أن بها من طرز الحرير ثمان مائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون (ينتج من الحرير المطرز بالذهب) والأصبهاني والجرجاني والعنابي والمعاجر (نسيج شفاف تستخدمه النساء لتغطية وجوههن) وصنوف أنواع الحرير...."^(١١٩). كذلك كانت تصنع الثياب البيض في حصن بكيان (قرب شاطبة) وتباع بأثمان غالية، وهي -على حد وصفه- من أبداع الثياب^(١٢٠)، بينما اشتهرت جنجالة بصناعة وطاء الصوف، وهو لا يمكن صنعه في غيرها لملائمة الماء والمناخ بها^(١٢١)، كما برزت قونكة كأحد مراكز صناعة الأوطية الصوفية في الأندلس^(١٢٢).

ومن الصناعات الأخرى التي اشتهرت بها الأندلس صناعة السفن لوفرة الأخشاب، وتركزت تلك الصناعة خاصة في المدن الساحلية مثل الجزيرة الخضراء التي احتوت على دار صناعة، وكذلك مدينة شلب وقصر أبي دانس وطرطوشة التي كان بها إنشاء للمراكب الكبار، وفي دانية ولقنت التي كانت تتشأ بها المراكب السفرية والحراريق^(١٢٣).

وهناك أيضاً من الصناعات الخشبية: صناعة القصاع والخوابي والأطباق في حصن قيشاطة^(١٢٤)، وصناعة الآلات الحربية مثل الأبراج والسلام وهما من آلات الحصار، والتي

اشتهرت بها طرطوشة^(١٢٥)، وكذلك صناعة الأثاث والأبواب وأسقف الدور والمساجد والمنابر، حيث استخدم خشب الصنوبر الطرطوشي في بناء جامع قرطبة بينما صُنِع المنبر من خشب الأبنوس^(١٢٦).

كذلك تميزت شاطبة بصناعة الورق أو الكاغد، الذي يُصنع من معجون الكتان، وكان يعتبر من أجود أنواع الورق، ولا يوجد له نظير بمعمور الأرض حسبما يذكر الإدريسي^(١٢٧). ومن الصناعات الضرورية للسكان والتي توفرت في كل المدن والبلادي صناعة طحن الغلال وخاصة القمح، حيث اشتهرت بلاد الأندلس بوفرة أرحائها التي تنصب على الأنهار وتُدار بقوة تيار المياه أو بالدواب، كما في وادي بجانة ووادي تاجه وقلمريه على نهر منديق، وعلى نهر مرسية، وسرقسطة على وادي إيريه وغيرها^(١٢٨). وعلاوة على ما سبق اقتصت قلعة أيوب بصناعة الغضار المذهب أي الخزف^(١٢٩)، بينما تركزت الصناعات الحديدية خاصة في شلطيش التي "بها صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه، وهي صنعة المراسي التي ترسي بها السفن...."^(١٣٠)، وهناك أيضاً صناعة الآلات الحديدية والنحاسية في مدينة المرية^(١٣١).

هـ - التجارة:

نستنتج مما أورده الإدريسي أن هناك عدة عوامل ساعدت على ازدهار التجارة في الأندلس خلال عصره (عصر المرابطين)، سواء على المستوى الداخلي للمدن أو على مستوى التجارة بين المدن وبعضها البعض، ومن أهم تلك العوامل ما يلي:

أولاً: وفرة الأسواق والفنادق:

تميزت الأندلس بوفرة أسواقها التي أشار الإدريسي إلى الكثير منها، وقد قسمها إلى نوعين، فهناك أسواق يومية دائمة خاصة في الحواضر أو المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومرسية وبلنسية والمرية وسرقسطة ومالقة وغيرها^(١٣٢)، والنوع الثاني أسواق موسمية أو مشهودة (كما يسميها الإدريسي) أي تعقد في مواسم معينة أو فترات محددة بموضع معين وغالبا في إحدى القرى أو الحصون الكبيرة الجامعة مثل حصن بكيران وحصن أشر (قرب أرشذونة) وحصن القبذاق (من أعمال كورة جيان)^(١٣٣).

ومن الملاحظ أن الإدريسي أغفل ذكر النوع الثالث من الأسواق وهي المسماة بالأسبوعية التي تقام في إحدى القرى أو البوادي، في يوم معين من أيام الأسبوع، وهو ما أوضحته مصادر جغرافية أخرى^(١٣٤).

وجدير بالإشارة أنه امتدح العديد من المدن الأندلسية ووصف أسواقها بأنها عامرة مرتبة، ومن ذلك مدينة مالقة حيث يذكر أن أسواقها عامرة ومتاجرها دائرة^(١٣٥)، وريصن الحوض بالمرية عامر بالأسواق والفنادق^(١٣٦)، ومدينة شلب مرتبة الأسواق^(١٣٧)، وبقرية بزيليانة فنادق^(١٣٨)، ورطلييرة "بها أسواق جميلة الترتيب"^(١٣٩)، والفهمين (من أعمال طليطلة "حسنة الأسواق"^(١٤٠)، وبمدينة شنتمرية الشرق (سهلة بني رزين) أسواق قائمة^(١٤١)، ولورقة "لها أسواق"، وبالريصن السوق الذي يتمركز فيه تجار من اليهود ويسميهم الرهادرة، كما يقع فيه سوق العطر^(١٤٢)، كذلك احتوت قرية عذره (من أعمال المرية) على فندق للتجار^(١٤٣). ولعل من المعلومات القيمة التي زدنا بها الإدريسي وتدل على قوة ملاحظته، أنه أوضح لنا بأن بعض المدن الصغيرة تشتمل على سوق واحدة دائمة مثل شلطيش ولقنت وغيرها، على عكس الحواضر الكبرى التي ضمت عدة أسواق سواء داخل المدينة وبأرياضها^(١٤٤).

ثانيا: كثرة المنازل أو المحطات على الطرق التجارية:

من الثابت أن كثرة المنازل على طرق التجارة الداخلية قد ساعد إلى حد كبير في ظل استتباب الأمن والاستقرار السياسي - على نشاط التجارة الداخلية وازدهارها، حيث أسهمت تلك المنازل أو المحطات في توفير الراحة والطعام والماء للقوافل التجارية أو المسافرين بصفة عامة، ويلاحظ أن الإدريسي أسهب في الحديث عن عدد كبير من تلك المنازل، ومن أمثلة ذلك منزل بقرية عبله قرب حصن فنيانه (بكرة غرناطة)، ومنزل بحصن مندوجر (قرب بجانة)، وكان المنزل بقرية الحصن، "ويباع بها للمسافرين الخبز والسمك وجميع الفواكه كل شيء منها في إبانه"^(١٤٥)، وهناك أيضا عدة منازل أخرى كما في حصن فنيانه وحصن مراد^(١٤٦) (قرب حصن المدور) وحصن القليعة^(١٤٧) (بكرة إشبيلية) ومنزل أبان^(١٤٨) (قرب إشبيلية) وبقرية دشمة^(١٤٩) (قرب وادي آش) وغيرها كثير، وقد اشتملت تلك المنازل على فندق لتوفير احتياجات المسافرين أو التجار^(١٥٠).

ثالثاً- تعدد طرق التجارة:

ألمح الإدريسي في عدة مواضع إلى تعدد الطرق التجارية سواء أكانت برية أم نهريّة أو بحرية، ومن ذلك الطريق البري الذي يربط بين مرسية والمرية ماراً بعدة قرى وحصون، وطريق بري آخر يربط بين غرناطة والمرية، وطريق يربط بين بلنسية وجزيرة شُقر وشاطبة. ومن الطرق النهريّة: الطريق الذي يربط بين طليطلة وطلبيّرة عبر وادي تاجه ويصل حتى لشبونة على المحيط، وطريق آخر يربط بين قرطبة وإشبيلية عبر الوادي الكبير ماراً بعدة قرى وحصون، وكذلك هناك طريق بحري يربط بين بلنسية ودانية وغيرها من مدن شرق الأندلس^(١٥١).

رابعاً- كثرة مراسى السفن أوالموانئ البحرية والنهرية:

تحدث الإدريسي عن الكثير من مراس السفن البحرية والنهرية، التي استخدمت سواء للتجارة الداخلية أو الخارجية، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى أن بلنسية "تجارات وحط وإقلاع..."^(١٥٢)، ومدينة دانية تسافر إليها السفن، ومنها تخرج السفن إلى أقصى المشرق^(١٥٣)، وقرطاجنة وهي فُرصة مدينة مرسية، وبها ميناء ترسي بها المراكب الكبار والصغار^(١٥٤)، ومرسى شجانة (قرب قرطاجنة) "مرسى حسن"^(١٥٥)، أي آمن وصالح لرسو السفن، وشنتمرية الغرب بها "المراكب صادرة وواردة"^(١٥٦)، وشلب لها مرسى في الوادي^(١٥٧) (أي على نهر شلب)، وقرية حلق الزاوية (قرب شلب) بها مرسى للسفن^(١٥٨)، وإشبيلية لها ميناء على نهرها المعروف بالوادي الكبير، وبها "بيع وشراء وأهلها مياسير..."^(١٥٩)، وقصر أبي دانس تقع على ضفة نهر شطوبر الذي تصعد فيه السفن والمراكب السفرية كثيراً..."^(١٦٠).

مظاهر العلاقات التجارية الداخلية والخارجية:

ألمح الإدريسي إلى بعض مظاهر العلاقات التجارية سواء بين المدن الأندلسية وبعضها البعض، أو بين الأندلس وبلدان البحر المتوسط والمشرق، ومن أمثلة ذلك إشارته إلى ازدهار تجارة الأخشاب بين حصن قلصة (قرب قونكة) الذي يشتهر بقطع الأخشاب وبين دانية وبلنسية، حيث كانت تباع هناك^(١٦١)، كذلك هناك تجارة الفاكهة التي كانت تجلب من بجانة إلى المرية^(١٦٢)، وزبيب قرية شاط يُنجهز به إلى كل جهات الأندلس^(١٦٣)،

وإقليم الشنشين الذي يكثر به التين، ويعد تجفيفه يُحمل إلى سائر مناطق غرب الأندلس^(١٦٤)، وهناك أيضاً تجار الدواب بمنطقة جبال الشارات الذين يجلبون منها الأغنام والأبقار ويرتادون بها أسواق طيلطة والمدن المجاورة^(١٦٥).

أما بالنسبة للتجارة الخارجية، فتأتي على رأسها تجارة زيت الزيتون الإشبيلي الشهير، حيث أن معظم تجارة إشبيلية تعتمد عليه، فيذكر الإدريسي أنه يُتجهز به منها إلى أقصى المشارق والمغرب براً وبحراً، ويتم الحصول عليه خاصة من إقليم الشرف - كما سبق الذكر - ومن المرجح أن تلك التجارة كانت سبباً رئيساً للثراء الذي تمتع به تجار الزيت بإشبيلية^(١٦٧).

ومن الصادرات الأندلسية أيضاً التين المالقي الذي ذاع صيته في المشرق والمغرب على السواء، حيث كان يجفف ويُحمل إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى بلاد الهند^(١٦٨)، وكذلك هناك الزعفران من وادي الحجارة وبياسة^(١٦٩)، والغضار المذهب (الخزف) كان يُتجهز به من قلعة أيوب إلى كل الجهات^(١٧٠)، ونوع من الطفل أو "التراب المأكول" - كما يسميه الإدريسي - كان يُصدر من قرية مغام إلى مصر والشام والعراق وبلاد الترك^(١٧١)، علاوة على ورق شاطبة المعروف بالكاغد، وكان يعم المشارق والمغرب^(١٧٢)، والحلفاء من لقنت تُصدر إلى جميع بلدان البحر المتوسط.

العملة والموازين والمكاييل والمقاييس

أشار الإدريسي إلى الدنانير المرابطية التي سادت في عصره (القرن ٥٦/١٢ م) في سياق حديثه عن استئجار مسكن لمدة شهر في حمة بجانة^(١٧٤)، ومن المعروف أن الدينار أو المنقال المرابطي كان من الذهب ووافي العيار، وحظي بثقة المتعاملين به سواء في بلاد المغرب والأندلس أو بين تجار الغرب الأوروبي، وكان صرفه يتراوح ما بين ستة عشر وعشرين درهماً من الفضة، لتفاوت قيمته من فترة إلى أخرى^(١٧٥).

أما فيما يتعلق بالموازين والمكاييل والمقاييس، فقد ألمح إلى الرطل الأندلسي^(١٧٦) والكيل^(١٧٧) والقامة^(١٧٨) والذراع الرشاشي، ففي سياق حديثه عن جامع قرطبة أوضح أن ارتفاع صومعة الجامع مائة ذراع رشاشي^(١٧٩).

الحواشي

(١) هناك عدة دراسات سابقة حول الإدريسي وكتابه نزهة المشتاق لبعض المستشرقين والباحثين العرب من أهمها وفقاً للترتيب الزمن

Posn Boigues, Ensayo bio-bibliografico sobre Los historiadores Y geografos arabigo-españoles, Madrid, 1898.

جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د/ حسين مؤنس، القاهرة، سنة ١٩٥٥؛ كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، القاهرة، ١٩٦٣؛ حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط١، مدريد، سنة ١٩٧٧، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٩٨٦م؛ السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، ١٩٦٧؛ أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية د.ت، احمد سوسة، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، ج٢، بغداد ١٩٧٤م.

(٢) انظر الصفي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠، ج١، ص ١٣٨.

Posn Boigues, Op.cit., PP 231-233.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص ٥٣٩، ٥٥٦، ٥٦٥؛ مؤنس، نفسه، (طبعة القاهرة)، ص ٢٥٦، ٢٥٧؛ أحمد سوسة، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٠٠.

(٤) مؤنس، نفسه، ص ٢٤٩؛ سالم، نفسه، ص ٢١٠.

(٥) الإدريسي، المصدر السابق مجلد ٢، ص ٥٥١، ٥٥٤، ٥٧٤.

(٦) نفسه، ص ٥٨٨، ٥٦٤، ٥٦٨.

(٧) نفسه، ص ٥٤٤، ٥٥٨، ٥٦٩.

(٨) نفسه، ص ٥٤٥، ٥٥١، ٥٥٨.

(٩) نفسه، ص ٥٥٣، ٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٦، ٥٦٩.

(١٠) نفسه، ص ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧؛ وراجع: (أحمد الطاهري، الفلاحة وال عمران

القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص ١٤٥، ١٤٩).

- (١١) الإدريسي، نفسه، م٢، ص ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٨٠؛ وراجع التفاصيل أيضا في: ليفي برونسفال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، مجلد ٢، ج ١، (النظم والمؤسسات) ترجمة د/ علي البمبي وآخرين، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٧٦-٧٧.
- (١٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢؛ الطاهري، المرجع السابق، ص ١٢٠.
- (١٣) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٤.
- (١٤) نفسه، ص ٥٥٤.
- (١٥) نفسه، ص ٥٤٣.
- (١٦) نفسه، ص ٥٦٨.
- (١٧) نفسه، ص ٥٥٠.
- (١٨) نفسه، ص ٥٤١.
- (١٩) نفسه، ص ٥٤١.
- (٢٠) نفسه، ص ٥٦٣، عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية، ص ١١٢، ١٢١.
- (٢١) الإدريسي، نفسه، ص ٥٧٤؛ الطاهري، المرجع السابق، ص ١٤٢-١٤٣.
- (٢٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٦-٥٦٧.
- (٢٣) نفسه، ص ٥٣٩، ٥٤١، ٥٦٤، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٥.
- (٢٤) نفسه، ص ٥٦٣، ٥٧٥.
- (٢٥) نفسه، ص ٥٣٩، ٥٦٥، ٥٦٩.
- (٢٦) نفسه، ص ٥٣٨، ٥٨٠، عن قبيلة غافق راجع: (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٢٨).
- (٢٧) الإدريسي، نفسه، ص ٥٧٣، ٥٧٤.
- (٢٨) نفسه، ص ٥٥٩، ٥٧٣؛ (وراجع ابن حزم، نفسه، ص ٤٦١؛ عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية، ص ٢١، ٢٢).
- (٢٩) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٣؛ مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ج ٢، ص ١٦٨.
- (٣٠) الإدريسي، نفسه، ص ٥٣٨، ٥٤٤.

(٣١) نفسه، ص ٥٧٣؛ وراجع: مؤلف مجهول، مفاخر البربر، نشر وتصحيح ليفي بروفنسال، الرباط سنة ١٩٣٤، ص ٤٥.

(٣٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٣٨، ٥٥٣؛ ابن حزم، نفسه، ص ٤٩٩، ٥٠٠؛ عبدالله عنان، دول الطوائف، ص ١٤٥، ١٤٩؛ كمال أبو مصطفى، بنو رزين ودورهم السياسي والحضاري في شنتمرية الشرق، ص ١٤.

(٣٣) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٥.

(٣٤) نفسه، ص ٥٧١. وراجع:

J. Vallvé, Etnografia y toponimia, en Actas del II coloquio Hispano-Marroqui, Granada, 1989, P. 337.

(٣٥) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٣.

(٣٦) نفسه، ص ٥٤٣.

(٣٧) نفسه، ص ٥٥١.

(٣٨) نفسه، ص ٥٥٠.

(٣٩) نفسه، ص ٥٥١.

(٤٠) نفسه، ص ٥٥٠، ٥٥١.

(٤١) نفسه، ص ٥٨٠.

(٤٢) نفسه، ص ٧٣٣.

(٤٣) نفسه، ص ٥٤٠، ٥٦٢. وعن الرُّبُط في الأندلس راجع التفاصيل في: (سعيد بنحماده، الماء والإنسان في الأندلس، طبعة بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢٦٨، ٢٧١).

(٤٤) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٠، ٥٥٥، ٥٦٢.

(٤٥) نفسه، ص ٥٧٥.

(٤٦) نفسه، ص ٥٦٦.

(٤٧) نفسه، ص ٥٤٤.

(٤٨) نفسه، ص ٥٢٢، ٥٥٤، ٥٥٦، ٥٥٩.

(٤٩) نفسه، ص ٥٢٢.

- (٥٠) نفسه، ص ٥٥٦.
- (٥١) نفسه، ص ٥٥٦.
- (٥٢) نفسه، ص ٥٥٩.
- (٥٣) نفسه، ص ٥٥٤.
- (٥٤) نفسه، ص ٥٦٨.
- (٥٥) نفسه، ص ٥٥٤.
- (٥٦) نفسه، ص ٥٥٩.
- (٥٧) نفسه، ص ٥٥١، ٥٥٢. وراجع التفاصيل عن آلات الري في: (سعيد بنجماده، المرجع السابق، ص ٦٠-٦٣).
- (٥٨) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤٥.
- (٥٩) نفسه، ص ٥٦٤. عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص ٦١.
- (٦٠) الإدريسي، نفسه، ص ٥٤١، ٥٤٥، ٥٥١، ٥٧٥؛ عز الدين موسى، المرجع السابق، ص ٦١؛ كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ١١٨، ١٢٠.
- (٦١) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٦؛ وراجع ما ورد عند الغدري في (ترصيع الأخبار، تحقيق د/ عبد العزيز الأهواني، مدريد ١٩٦٥، ص ٢).
- (٦٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٣، ٥٥٦، ٥٥٩، ٥٦٨.
- (٦٣) نفسه، ص ٥٤٩.
- (٦٤) نفسه، ص ٥٤٩-٥٥٠.
- (٦٥) نفسه، ص ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٢.
- (٦٦) نفسه، ص ٥٤١؛ وراجع الغدري، نفسه، ص ٦٩، ابن غالب، قطعة من فرحة الأنفس، تحقيق د/ لطفي عبد البديع، معهد المخطوطات، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٩٢، الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٢٧.
- (٦٧) الإدريسي، نفسه، ص ٥٧٢-٥٧٣.
- (٦٨) نفسه، ص ٥٧١.

- (٦٩) نفسه، ص ٥٦٥؛ وراجع: الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٣٤.
- (٧٠) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٥.
- (٧١) نفسه، ص ٥٧٠.
- (٧٢) نفسه، ص ٥٦٧؛ الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٣٨.
- (٧٣) نفسه، ص ٥٦٩.
- (٧٤) نفسه، ص ٥٥٣.
- (٧٥) نفسه، ص ٥٦٧.
- (٧٦) نفسه، ص ٧٢٦.
- (٧٧) نفسه، ص ٥٥٠، ٥٥٨، ٥٦٨؛ الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٤٠ - ٢٤١.
- (٧٨) نفسه، ص ٥٤٧.
- (٧٩) نفسه، ص ٥٥٠.
- (٨٠) نفسه، ص ٥٤٧.
- (٨١) نفسه، ص ٥٥٢.
- (٨٢) نفسه، ص ٥٥٣.
- (٨٣) نفسه، ص ٥٦٢.
- (٨٤) نفسه، ص ٥٥٤.
- (٨٥) نفسه، ص ٥٦٢.
- (٨٦) نفسه، ص ٥٥٤.
- (٨٧) نفسه، ص ٥٤٤.
- (٨٨) نفسه، ص ٥٤٤، ٥٦٨.
- (٨٩) نفسه، ص ٥٤٧.
- (٩٠) نفسه، ص ٥٥٢.
- (٩١) نفسه، ص ٥٥٠ - ٥٥١؛ كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ١٨٤-١٨٥.
- (٩٢) نفسه، ص ٥٦٨؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص ١٩٧.

- (٩٣) نفسه، ص ٥٤٤، ٥٦٨؛ وراجع عن تربية النحل في بوادي إشبيلية: الطاهري، المرجع السابق، ص ٢٤٦.
- (٩٤) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٤.
- (٩٥) نفسه، ص ٥٦٥.
- (٩٦) نفسه، ص ٥٤٣.
- (٩٧) نفسه، ص ٥٤٤.
- (٩٨) نفسه، ص ٥٥٥؛ وانظر: ابن غالب، قطعة من فرحة الأنفس، ص ٢٨٦.
- (٩٩) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٩، ٥٧٤.
- (١٠٠) نفسه، ص ٥٦٠.
- (١٠١) نفسه، ص ٥٥٨.
- (١٠٢) نفس المصدر، ص ٥٨٠؛ وراجع (ابن غالب، نفسه، ص ٢٨٩؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص ١٩٦، ١٩٧).
- (١٠٣) الإدريسي، نفسه، ص ٥٧٤.
- (١٠٤) نفسه، ص ٥٧٤.
- (١٠٥) نفسه، ص ٥٤٢.
- (١٠٦) نفسه، ص ٥٥٢.
- (١٠٧) نفسه، ص ٥٥٢.
- (١٠٨) نفسه، ص ٥٦٤.
- (١٠٩) نفسه، ص ٥٤٧.
- (١١٠) نفسه، ص ٥٧٤.
- (١١١) نفسه، ص ٥٨١.
- (١١٢) نفسه، ص ٥٧٤؛ وانظر ابن غالب، نفسه، ص ٢٩٠.
- (١١٣) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦١ - ٥٦٢.
- (١١٤) نفسه، ص ٥٥٢.
- (١١٥) نفسه، ص ٥٥٤.

- (١١٦) نفسه، ص ٥٦٦.
- (١١٧) نفسه، ص ٥٤٧.
- (١١٨) نفسه، ص ٥٦٦.
- (١١٩) نفسه، ص ٥٦٢ - ٥٦٣؛ ابن غالب، نفسه، ص ٢٨٣.
- (١٢٠) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٧.
- (١٢١) نفسه، ص ٥٦٠.
- (١٢٢) نفسه، ص ٥٦٠.
- (١٢٣) نفسه، ص ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٥٥، ٥٥٧، ٥٥٨.
- (١٢٤) نفسه، ص ٥٦٩.
- (١٢٥) نفسه، ص ٧٣٤.
- (١٢٦) نفسه، ص ٥٧٥، ٥٧٧؛ وانظر أيضا: ابن غالب، نفسه، ص ٢٩٨.
- (١٢٧) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٦.
- (١٢٨) نفسه، ص ٥٥١، ٥٦٨، ٥٧٤.
- (١٢٩) نفسه، ص ٥٥٤.
- (١٣٠) نفسه، ص ٥٤٢.
- (١٣١) نفسه، ص ٥٦٢.
- (١٣٢) نفسه، ص ٥٤١؛ ٥٧٥.
- (١٣٣) نفسه، ص ٥٥٧، ٥٧٠، ٥٧١.
- (١٣٤) من أمثلة ذلك ما ذكره الحميري بان سوق الثلاثاء بقرية شونر (بكرة جيان) وسوق الخميس بقرمونة، انظر: الروض المعطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٤، ص ٤٦١، ٣٥١.
- (١٣٥) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٥.
- (١٣٦) نفسه، ص ٥٦٣.
- (١٣٧) نفسه، ص ٥٤٣.
- (١٣٨) نفسه، ص ٥٦٥.

- (١٣٩) نفسه، ص ٥٥١.
(١٤٠) نفسه، ص ٥٥٢-٥٥٣.
(١٤١) نفسه، ص ٥٥٣.
(١٤٢) نفسه، ص ٥٦١.
(١٤٣) نفسه، ص ٥٦٤.
(١٤٤) نفسه، ص ٥٤١، ٥٤٢، ٥٥٨، ٥٦٥، ٥٧٥.
(١٤٥) نفسه، ص ٥٦٦، ٥٦٧.
(١٤٦) نفسه، ص ٥٧٣.
(١٤٧) نفسه، ص ٥٧٣.
(١٤٨) نفسه، ص ٥٧٣.
(١٤٩) نفسه، ص ٥٦٧.
(١٥٠) نفسه، ص ٥٦٦، وانظر

Imamuddin, The Economic history of Spain under the ummaydes,
Dacca, 1963, P.263.

- كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ٢٨٥.
(١٥١) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٦١، ٣٧٣، ٥٧٤. وراجع حول الطرق
التجارية في الأندلس، (عز الدين موسى، المرجع السابق، ص ٣٢٠، ٣٢١).
(١٥٢) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٦.
(١٥٣) نفسه، ص ٥٥٧.
(١٥٤) نفسه، ص ٥٥٩.
(١٥٥) نفسه، ص ٥٥٩.
(١٥٦) نفسه، ص ٥٤٣.
(١٥٧) نفسه، ص ٥٤٣.
(١٥٨) نفسه، ص ٥٤٣.
(١٥٩) نفسه، ص ٥٤١.

- (١٦٠) نفسه، ص ٥٤٤.
- (١٦١) نفسه، ص ٥٦٠.
- (١٦٢) نفسه، ص ٥٦٥.
- (١٦٣) نفسه، ص ٥٦٤ - ٥٦٥.
- (١٦٤) نفسه، ص ٥٤٣.
- (١٦٥) نفسه، ص ٥٥٢.
- (١٦٦) نفسه، ص ٥٦٩.
- (١٦٧) نفسه، ص ٥٤١، وراجع التفاصيل حول تجارة الزيت الإشبيلي في: (عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية، ص ١٢٧،
Pedro Martinez Islam Y Cristianidad en la economia mediterranea,
Moscu, 1970, P.10).
- (١٦٨) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٥.
- (١٦٩) نفسه، ص ٥٥٣، ٥٦٩.
- (١٧٠) نفسه، ص ٥٥٤.
- (١٧١) نفسه، ص ٥٥٢.
- (١٧٢) نفسه، ص ٥٥٦.
- (١٧٣) نفسه، ص ٥٥٨.
- (١٧٤) نفسه، ص ٥٦٦.
- (١٧٥) راجع التفاصيل حول الدينار المرابطي في: (صالح بن قرية، المسكوكات المغربية، الجزائر ١٩٨٦، ص ٥٤١، ٥٤٩؛ كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص ٣١٤، ٣١٥؛
Casto del Rivero, La Moneda arabigo- española, Madrid, 1933,
P.35.
- (١٧٦) الإدريسي، نفسه، ص ٥٦٧. وجدير بالذكر أن الرطل الأندلسي كان يزن ١٦ أوقية
(حوالي ٥٠٤ جرام)، ولكن أحيانا في بعض الفترات يزن ١٢ أوقية. راجع التفاصيل في:
J. Vallve, Medidas de capacidad, AL-Andalusl, Madrid, 1977, P. 74.

(١٧٧) الإدريسي، نفسه، ص ٥٥٠. أما المكيال الوارد بالمتن فكان يعني في الأندلس مكيال أو معيار محدد يستخدم في وزن السوائل أو السلع والأشياء الصلبة مثل كيل الحبوب، وكان الكيل القرطبي في القرن ١٠هـ/١٠ م يزن ستة أرتال. راجع التفاصيل في: فالتر هنتس، المكايل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية، سنة ١٩٤٧، ص ٣٩؛

Vallvé, Op. Cit, P.81.

(١٧٨) الإدريسي، نفسه، ص ٥٨١.

(١٧٩) نفسه، ص ٥٧٨. أما الذراع الرشاشي - المذكور بالمتن - فهو ينتسب إلى محمد بن الفرج القياس القرطبي المعروف بالرشاش، وقد حمله إلى الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، وكان الذراع الرشاشي هو الشائع في بلاد المغرب والأندلس، ويتكون من ست قبضات أي أن طوله ٥٤,٠٤ سم. انظر (فالتر هنتس، نفسه، ص ٨٨).

J. Vallve, El Codo en la España musulmana Andalus, 1978, P.

339, 350.

وعن ابن الفرج الرشاش القرطبي راجع ترجمته في (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٦٥)

البحر المتوسط في مشاريع دعاة الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي

د. لطيفة خلف العنزي

استاذ مساعد - كلية الآداب

جامعة الملك سعود

المخلص:

نتيجة للتغير الذي طرأ على أوروبا في أواخر العصور الوسطى أصبحنا لا نرى لدى الأوربيين طاقات جديدة يوجهونها لخدمة الحركة الصليبية، خاصة بعد استرداد المسلمين لمدينة عكا عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، ولذلك بدأت تملأ صيحات المعادين للإسلام من فئات النصارى المتشددين لمواجهة هذا القصور الواضح والتراجع عن فكرة الحرب المقدسة، ولجأوا في سبيل تحقيق ذلك إلى إصدار الكتب والرسائل التي وجهوها إلى البابوات وشرحوا فيها خططهم، ومشاريعهم لمواجهة المسلمين، وأدرك واضعي الخطط أن مما ساعد على قوة المسلمين هو موقع بلادهم المميز والفريد بوصفهم واسطة التجارة بين الشرق والغرب، لذا كانت أهم خططهم هو إما تغيير طرق التجارة وصرفه عن المسلمين، أو إضعاف قوة المسلمين في مصر والشام عن طريق فرض حصار اقتصادي عليهم مادام أن الجيوش الصليبية قد فشلت في جميع محاولاتها لاحتلال بلادهم، لذا كانت أهم خططهم هو السيطرة على البحر المتوسط عن طريق نشر جيوشهم عليه وتحويله إلى بحيرة نصرانية تتبع بلاد الغرب الأوربي ومن خلاله يتم السيطرة على البلاد الإسلامية المطلة عليه.

Therefore, their most important plan was either to change the trade routes and distract them from the Muslims or to weaken the Muslims' power in Egypt and the Levant by imposing an economic siege on them as long as the Crusader armies had failed in all their attempts to occupy their country, so their most important plan was to control the Mediterranean by spreading their army on it and turn it into a Christian lake that follows the countries of the European West and through that the Islamic countries overlooking it will be under their control.



اتسمت الحركة الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري وحتى الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) بسمات وخصائص معينة، كما كان لها ظواهر خاصة ودوافع وأسباب هيأت أمامها السبيل لتنفيذ سياستها الاستيطانية في بلاد الشام. وقد تضافرت في أوروبا في هذه الآونة عوامل عديدة دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية أدت إلى خروج الحملات الصليبية وإلى نجاحها خلال هذه الفترة التاريخية. إلا إننا إذا حللنا هذه العوامل في الفترة التاريخية اللاحقة وأعني بذلك من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) وحتى الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) نجدها قد تغيرت وتبدلت وتتنوعت مما أدى إلى تغير في الفكرة الصليبية وكيفية تناولها والتعامل معها.

لذلك، ونتيجة لهذا التغير، أصبحنا لا نرى لدى الأوربيين طاقات جديدة يوجهونها لخدمة الحركة الصليبية، رأينا ذلك بعد استرداد المسلمين لمدينة عكا عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م، وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، ورغم أن هذا الحدث أثار موجة حزن شديدة في أوروبا بجميع فئاتها، إلا إنه لم تكن له ردود فعل تتناسب مستوى الحدث، ولم تقم بأي مجهود حربي جديد، سوى محاولات البابوية الراعية الرسمية للحروب الصليبية التي ألمها ذلك وحاولت جاهدة أن تعبر عن أساها بالعمل وذلك على يد البابا نيقولا الرابع Nicholas IV (١٢٨٨-١٢٩٢م) الذي أرسل رسله إلى جميع الملوك والأمراء النصارى لدعوتهم إلى تجهيز حملة صليبية جديدة ضد المسلمين^(١). وأصدر عدة مراسيم بابوية تشمل عقوبة الحرمان الكنسي على كل من يتاجر مع المسلمين في مصر والشام وعلى كل من ينقل أي نوع من السلع والمتاجر إلى البلدان التابعة للمسلمين. ولم يقتصر هذا القرار فقط ضد المخالفين لأوامره بل اعتبرهم خونة مدى الحياة ويحرمون من حقوقهم المدنية والشخصية ولا يحق لهم كتابة وصية أو الحصول على ميراث^(٢). إلا إنه فشل في ذلك، إذ

¹ Laurent , M. , Beantes de L'histoire des croisades et des ordres religieux et militaires qui en sont nés , Limoges , 1859 , P.245 .

(٢) هايد ، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت أحمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ج ٢ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .



إن المصالح الدنيوية أصبحت في ذلك الوقت أقوى من سلطة البابوية والكنيسة. فتوفي كمدًا، بعد أن خاب أمله في تحريك الجهود ضد المسلمين. ولم يكن هذا التغيير قاصرًا على الإمبراطورية والملوك والأمراء، بل امتد ليشمل أوروبا عامة.

بدأت تلو صيحات المعادين للإسلام من فئات النصارى المتشددین لمواجهة هذا القصور الواضح والتراجع عن فكرة الحرب المقدسة، ولجئوا في سبيل تحقيق ذلك إلى إصدار الكتب والرسائل التي وجهوها إلى البابوات وشرحوا فيها خططهم، ومشاريعهم لمواجهة المسلمين، وشملت إلى جانب ذلك أفكارًا وآراء تعمل على إصلاح الخلل الذي أصاب أوروبا عامة وأدى إلى تقاعسها عن أداء الدور الذي اضطلعت به منذ عدة قرون، وكان يحدها الأمل في أن تؤدي هذه الرسائل والخطط إلى إثارة الحماسة الصليبية وعودة الروح إلى الحركة الصليبية التي أصابها الموت، وقامت خلال القرن الرابع عشر محاولات يائسة لإحياء الروح الصليبية من جديد لتحقيق نفس الأطماع القديمة.

أدرك الغرب الأوربي أن مما ساعد على قوة المسلمين هو موقع بلادهم المميز والفريد بوصفهم واسطة التجارة بين الشرق والغرب، وسوقًا مهمًا للتبادل التجاري بين إفريقية وآسيا وبلاد البحر المتوسط، ولهذا أصبح المسلمون يعتمدون على قوة وثروة هائلة مكنتهم من الوقوف في وجه الغزو الصليبي، ولهذا رأى واضعو الخطط الصليبية أن السبيل الوحيد الذي بقي أمامهم لإضعاف قوة المسلمين في مصر والشام هو فرض حصار اقتصادي عليهم مادام أن الجيوش الصليبية قد فشلت في جميع محاولاتها لاحتلال بلادهم، لذا كانت أهم خططهم هو السيطرة على البحر المتوسط وتحويله إلى بحيرة نصرانية تتبع بلاد الغرب الأوربي ومن خلاله يتم السيطرة على البلاد الإسلامية المطلة عليه.

لذا لا بد لنا في هذا البحث أن نذكر وبصورة سريعة موقع وأهمية البحر المتوسط لتتعرف على سبب تركيز دعاة الحروب الصليبية على هذا البحر في خططهم الصليبية. يعتبر البحر المتوسط من أهم البحار القارية حيث يطوقه اليابس من جميع الجهات ولا يتصل بالبحار المفتوحة سوى عن طريق ممر ضيق هو مضيق جبل طارق. ويبلغ طول هذا البحر حوالي ٢٠٠٠ ميل كما إن مساحته تصل إلى ما يقرب ١,٤٥,٠٠٠ ميل مربع.

ويعتبر البحر المتوسط منذ أقدم العصور مركزاً للحضارات الكبرى، فهو يربط بين ثلاث قارات تطل عليه آسيا، وأفريقيا، وأوروبا. ولهذا الموقع أهمية كبرى في انتعاش الحركة الاقتصادية والثقافية بين الشعوب المطلة عليه في معظم العصور التاريخية وخاصة في عصر الحروب الصليبية.

ولما قامت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري كان البحر المتوسط ميداناً لها سواء عسكرياً أم اقتصادياً، فقد فضل معظم الصليبيين ركوب البحر من أحد الموانئ الإيطالية للهجوم على المسلمين، ولم يعمدوا إلى الطريق البري إلا في الحملة الصليبية الأولى التي اندفعوا فيها رغم جهلهم بطبيعة البلاد وجغرافيتها فلاقوا صعوبة كبيرة، وكذلك حملة فريديك بارباروسا إمبراطور ألمانيا في الحملة الصليبية الثالثة حيث قدم بحملته عن طريق البر وانتهى بغرقه وتشتت جيشه.

في هذا البحث، سنسلط الضوء على أهم خطط دعاة الحروب الصليبية الذين تناولوا في خططهم البحر المتوسط، وقد تميزت تلك المشاريع بضخامتها، إلا أننا سنتناول منها ما يخص البحر المتوسط.

أول دعاة الحروب الصليبية هو الملك شارل الثاني دي أنجو ١٢٨٥-١٣٠٩م، الذي ينحدر من أسرة كاييه الفرنسية وهو حفيد لويس الثامن ملك فرنسا Louis VIII ١٢٢٣-١٢٢٦م وبلانش القشتالية Blanche of Castile من ابنتها الأصغر شارل الأول، أما أمه فهي بياترس Beatrice أخت مارجريت Margaret زوجة الملك لويس التاسع Loius IX وأباهما هو الكونت ريموند برنجار الرابع Raymond Berengar، كونت مقاطعة بروفانس. وقد تولى شارل الثاني عرش نابلي بعد وفاة والده شارل الأول في عام ١٢٨٥م^(٣).

كتب شارل الثاني ملك نابلي مشروعه الصليبي في مذكرة صغيرة عام ١٢٩١م وقدمها إلى البابا نيقولا الرابع Nicola IV، يذكر شارل الثاني في بداية مشروعه أن القيام بحملة صليبية ضد المسلمين في الوقت الراهن يعتبر ضرباً من الجنون وعمل أخرق وطائش؛ لأن المسلمين في ذلك الوقت يتمتعون بقوة اقتصادية وعسكرية وسياسية ستمكنهم

(٣) محمود سعيد عمران، شارل دي انجو بين القسطنطينية وتونس والقدس ١٢٦٦-١٢٨٥م، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٦) م(١)، مارس، ١٩٩٨م، ص ١٦٩.



من منع إنزال الجيوش الصليبية على أراضيهم^(٤). ثم بدأ شارل يبين الطريقة التي يرى أنها الأجدى والأنتفع في الانتصار على المسلمين فبعد أن أوضح أن مصر هي المخزن الاقتصادي للشرق والغرب رأى ضرورة فرض حصار اقتصادي، وهكذا تتضح الصورة وهي ضرورة تحطيم تجارة مصر واقتصادها؛ لأن الحرب التجارية قد تحقق ما تعجز عن تحقيقه وسائل الحرب الأخرى^(٥)، وتنفيذ ذلك يتم عن طريق إنزال أكثر من خمسين سفينة شراعية، وخمسين سفينة نقل، وألف وخمسمائة جندي في البحر المتوسط تجوب هذه السفن البحر المتوسط لتمنع ما أسماهم "المسيحيون الخونة" الذين يقومون بإمداد المسلمين بالحديد والخشب والرقيق من الممالك بهدف تزويد جيش السلطان بهم. ويضيف الملك شارل أن بهذه القوة أيضاً يجب الإغارة باستمرار على سواحل البحر المتوسط على طول امتدادها لزعزعة الأمن التجاري الإسلامي وتحطيم الموانئ الإسلامية^(٦). أما توفير تلك السفن، فيشير شارل أنه بمقدور ملك قبرص وهيئتا الداوية^(٧) والإسبانية^(٨) توفير عشرة سفن شراعية، أما ما تبقى فيفرض على السلطة البابوية^(٩).

(٤) Delaville le roulx, J. La France en Orient au XIV siecle expeditionns du Marechal Boucicaut, Paris, 1886, P. 17; Alphandery ,P. La chretiente et L' idee de croisade, Paris,1959, P. 211.

(٥) Alphandery ,P. La chretiente et L' idee de croisade, P. 211. , Delaville le Roulx , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 17.

(٦) Delaville le Roulx , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 17.
(٧) فرسان الداوية Templars منظمة أسسها في الأصل الفارسان هيو دي باينز Hugh de Paynes، وجودفري سانت أوميري Godfrey de Saint Omer، وذلك سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨م، ونظامهم قام أساساً على الحماس الديني والفروسية، وحمل السلاح وإشهاره ضد المسلمين وتلقبوا بجنود المسيح الفقراء، ولقد منحهم الملك بلدوين الثاني مكاناً يقيمون فيه بالقرب من معبد سليمان فسموا بذلك " فرسان المعبد " وتم الاعتراف بهم وتعضيدهم في مجمع تروى عام ٥٢٢ هـ / ١١٣٨م، من قبل القديس برنارد الكليرفوري، وفي سنة ١١٤٦م، اعترف بهم البابا أيوجين الثالث = كمنظمة خاصة لها نظمها وأهدافها في خدمة النصرانية، وكانت هذه المنظمة من أشد العناصر الصليبية عداءً للمسلمين، عنها انظر: إبراهيم خميس إبراهيم، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام (١١٩٣ - ١٢٩١ م / ٥٨٩ - ٦٩٠ هـ)، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٨٣م ؛ نبيلة مقامي، فرق الفرسان الرهبان، القاهرة، ١٩٧٥م.

اتضح من المشروع الصليبي الذي تقدم به شارل الثاني ملك نابلي أهمية استغلال البحر المتوسط لضرب المسلمين اقتصادياً واعتباره أهم وسيلة للانتصار عليهم. ومن الدعاة المستشار البابوي والراهب الفرنسيكاني فيدنزيو اف بادوا Fidenzio Of Badua، تذكر السجلات الحولية للمنظمة الفرنسيكانية أن فيدنزيو تلقى تدريباً عسكرياً قبل أن يقرر الدخول في أخوية الرهبان الفرنسيكان ونظراً لجهوده تم تعيينه عام ١٢٦٦م ممثلاً لهذه المنظمة في الأراضي المقدسة في بلاد الشام^(١٠). وانتقل إلى هناك حيث عاش إلى أن تم طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام على يد المسلمين، ويعتبر فيدنزيو شاهد عيان لتداعي الإمارات الصليبية الواحدة تلو الأخرى^(١١). في عام ١٢٧٤م غادر فيدنزيو الشرق متوجهاً إلى أوروبا لحضور اجتماع مجمع ليون الثاني عام ١٢٧٤م برئاسة البابا جريجوري العاشر ١٢٧١ - ١٢٧٦م ومن الواضح أنه خلال الاجتماع عرض

(^{١٠}) الاسبتارية منظمة جمعت بين الفكرتين الدينية والعسكرية، وترجع تسميتهم بهذا الاسم إلى دير اقامة تجار أمالفي Amalfi الإيطالية في القدس في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري، وأنشئوا بجواره مستشفى، ومن ذلك عرفت هذه المنظمة بالاسبتارية Hospitallers أي فرسان المستشفى، وكان هدفهم في البداية إيواء الحجاج النصارى، ومعالجة المرضى منهم، ولم تلبث هذه الهيئة أن أصبحت تؤلف قوة حربية كبرى لها شأنها بالنسبة للصليبيين، واشتركوا معهم في حملات ضد المسلمين، وقد اعترف البابا باسكال الثاني Paschal II، بهذه الهيئة في ١٣ فبراير عام ١١١٣م، وكانت تشكل مع الداوية قوة خطيرة على المسلمين في بلاد الشام، وعندما طرد الصليبيين من بلاد الشام، اتجه الاسبتارية إلى رودس، وصار اسمهم فرسان رودس، وبعد أن طردهم العثمانيون من رودس، اتجهوا إلى مالطة عام ١٥٣٠م، فعرفوا باسم فرسان مالطة. عن هذه المنظمة وخطرها، انظر: سميث، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠ - ١٣١٠م، ت: صبحي الجابي، ط دمشق، ١٩٨٤م. سامي سلطان سعد، الاسبتارية في رودس، رسالة دكتوراة غير منشورة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٥م؛

Luttrel , The Hospitallers at Rhodes, 1306- 1421 , in Setton , Vol . III.

(^٩) Delaville le Roux , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 17.

Alphandery ,P. La chretiente et L' idee de croisade, P. 212 .

(^{١٠}) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano . florence , 1906 – 1927 , Vol . II, P. 2.

(^{١١}) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano .P.P. 2 – 3 , p. p.24 – 25 .



الأوضاع السيئة التي يعيشها الصليبيون في بلاد الشام وسقوط الإمارات الواحدة تلو الأخرى في يد المسلمين^(١٢). وطلب المساعدة من المجمع، وذلك لأن البابا جريجوري العاشر طلب منه إعداد تقرير لإعداد خطة لحملة صليبية توجه ضد المسلمين^(١٣).

وفعلا بدأ فيدنزيو في إعداد الخطة الصليبية إلا إنه قرر قبل الإنتهاء من الخطة العودة إلى الشرق فزار مصر، وأرمينيا، وقبرص بالإضافة إلى جميع مدن الشام، ثم توجه إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى وبلاد فارس، وذلك من أجل الحصول على معلومات عن الأوضاع هناك لتدوينها في خطته الصليبية. وبعد انتهاء فيدنزيو من خطته قدمها إلى البابا نيقولا الرابع بعد سقوط عكا عام ١٢٩١م^(١٤).

قبل البدء في عرض خطة فيدنزيو الصليبية يجب أن نوضح أنه كان ملما باللغة العربية بحكم إقامته الطويلة في بلاد الشام. وهذا ما سيجعل لخطته أهمية كبيرة. وضع فيدنزيو خطته في كتاب عنوانه: "استعادة الأرض المقدسة" *Recuperationis Terre Sanote*^(١٥). تحتوي خطة فيدنزيو على تفاصيل عسكرية دقيقة أهمها تجهيز قوة عسكرية بحرية تجوب البحر المتوسط لفرض حصار اقتصادي على المسلمين، وحدد عدد الأسطول حيث يقترح أن يتكون من أربعين أو خمسين سفينة عسكرية، ولا تقل عن ثلاثين لضمان نجاح الحصار، وتزويد هذه السفن بالرجال والعتاد، وأهم مهام هذه السفن هو اعتراض السفن التجارية للمسيحيين - الذين أسماهم - "العصاة" لمتاجرتهم مع المسلمين ولا يلتزمون بالأوامر الصادرة من البابا بمنع المتاجرة مع المسلمين^(١٦). وتابع فيدنزيو قوله،

(12) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano.P.P. 2 – 3 , P.P.24 – 25 .

(13) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano P. 4 , P. 9.

(14) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. p. p. 5 – 6 , p.25 .

(15) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. P.9 .

(16) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. P . 41 .



إنه زيادة على ذلك ، فإن الحصار البحري لسواحل مصر والدول الأخرى الخاضعة لحكم المسلمين سيكون سلاحاً فاعلاً ضد الازدهار التجاري للمسلمين، وذلك لجهل المسلمين بفنون الملاحة - حسب قوله - فالفائدة التي ستتحقق من الحصار ستكون أكيدة بلا شك فبمنع الواردات الغربية سيفقد سلاطين المماليك الضرائب والرسوم التي يحصلون عليها ويفرضونها على البضائع الواردة إلى مصر والتي تقدر بحوالي خمسين ألف فلورين في العام وسيتم أيضاً منع وصول الإمدادات الغذائية التي يحتاجها المسلمون والتي تزودهم بها بلادهم وإذا توقفت التجارة الأوربية، فلن يتم - حسب رأي فيدنزيو - دفع رسوم الصادرات والتي تعتبر المورد الرئيس للسلطان والذي سيتعرض لخسارة فادحة ولن تجد المنتجات المصرية منفذاً لتسويقها وبذلك تتعرض مصر لنهاية سيئة^(١٧).

واقترح أيضاً لضرب تجارة وطريق البحر المتوسط أن يوضع جزء من هذه السفن في البحر الأحمر لاعتراض السفن الإسلامية القادمة من الهند، واقترح تحويل طريق التجارة الهندية من البحر الأحمر إلى طريق آخر بري يمر عبر بلاد فارس ثم أرمينيا، ويرى أن هذا سيحقق فوائد كبيرة منها خسارة المسلمين لتجارتهم وأهم طريق تجاري لديهم عن طريق إفراغه من تجارتهم التي يستمدون منها قوتهم الاقتصادية^(١٨).

ويؤكد فيدنزيو على وسيلة أخرى أهم وهي إقامة العراقيين والسدود في مجرى نهر النيل؛ لأنه هو الشريان الرئيس الذي يربط المدن الداخلية في مصر بالبحر المتوسط والبحر الأحمر، حيث تصل السفن التجارية إلى ميناء عيذاب في البحر الأحمر وتقل السلع منها عن طريق الجمال إلى النيل، فيرى فيدنزيو أنه على الصليبيين أن يقوموا بسد مصبه ومحاصرته بسفنهم

(17) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. P.P. 46 – 47; Delaville le roulx, J. La France en Orient au XIV siecle. P. 21.

(18) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano. p. p . 48 – 49 .



مما يؤدي إلى إلحاق الضرر والخسائر بجميع موانئ العالم الإسلامي ويعود ويؤكد على ضرورة تشديد الحصار الاقتصادي على المسلمين إلى أقصى حد ممكن^(١٩).

أما الداعي الصليبي الأمير هيثوم الذي ينتسب إلى أسرة آل هيثوم ملوك أرمينيا الصغرى، والذي شغل منصب كونت مدينة كوريكوس Corycus وهي ثغر بحري على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى بإزاء جزيرة قبرص. ولد وعاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر وتوفي عام ١٣٠٨م^(٢٠).

وكان مقرّباً من عمه الملك هيثوم الثاني ١٢٨٩ - ١٣٠٧م^(٢١) لذلك فقد أرخ لفترة حكمه؛ لأنه يعتبر من مؤرخي هذه الفترة ومن أبرز من كتبوا عن تاريخ أرمينية. ويعتبر كتابه الذي ألفه باللاتينية عام ١٣٠٦م وعنوانه زهرة تاريخ أرض الشرق La Flor des Estoires de La Terre D'Orient^(٢٢) وضمّنه مشروعه الذي قدمه للبابا كلمينت الخامس Clement V للاستيلاء على الأراضي المقدسة سنة ١٣٠٧م يعتبر تاريخاً لأرمينية الصغرى وملوكها ومصدراً كبيراً للباحثين المهتمين بتاريخ هذه المنطقة.

قسّم هيثوم كتابه زهرة تاريخ بلاد الشرق إلى أربعة أقسام أو كتب، والكتاب الرابع، وهو الذي يهتم موضوع البحث ويعتبر الأهم في كتاب هيثوم، ومن المعتقد أن ما سبقه من

(19) Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente francescano.P. P.56-58.

(٢٠) عن الأمير هيثوم انظر:

Paris, P., Hayton, Prince d'Armenie, Historien,Extrait de L'histoire litteraire de La France, Paris,1885,XXV,P.P. 479-507.

(21) Crawford, P. , An Institution in crisis the military orders,1291-1310, Adissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of philosophy history at the university of Wisconsin-Madison , 1998,P. 199.

Atiya , A.S., The Crusade in the later Middle ages, p.62.

(٢٢) هناك نسختان للمصدر الأولى باللغة الفرنسية القديمة نشرت ضمن مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية -المؤرخون الأرمن، الجزء الثاني، R.H.C., Doc. Arm., II,P.P.113-253. أما الثانية فكانت باللغة اللاتينية ونشرت ضمن المجموعة نفسها، R.H.C., Doc.Arm., II, P.P. 255-363.



كتب تعتبر مقدمة لهذا الكتاب، حيث خصصه هيثوم للحديث عن مشروع حملة صليبية للاستيلاء على الأراضي المقدسة من المسلمين والوسائل الكفيلة لضمان نجاح المشروع. ويحمل عنوان^(٢٣) De Passagio Terrae Sanctae et Quae Conside Randa .Sunt Antequam Guerra Inchaetur

بعد أن حدد هيثوم في مقدمة كتابه الوقت الذي رآه مناسباً للهجوم على المسلمين بدأ في عرض الطريقة التنفيذية لما يجب أن يقوم به الجيش الصليبي، حيث يرى توجيه حملة صليبية تتحرك على مرحلتين الحملة الخاصة أو التمهيدية ثم تأتي بعدها الحملة العامة أو الكبرى^(٢٤). الأولى الحملة التمهيدية، أو الاستطلاعية ومهمتها تجهيز وتسهيل الطريق للجيش الصليبي الكبير، فمن خلالها يتمكن البابا والقادة العسكريين في أوربا معرفة أحوال البلاد الإسلامية ومدى قوة المسلمين وطريقة قتالهم، وبالتالي يستطيع البابا الحكم هل سيتم ارسال الجيش الصليبي الكبير أم العدول عن الفكرة^(٢٥).

يرى هيثوم أنه يمكن تنفيذ الحملة الاستطلاعية بأسطول مكون من عشرة سفن شراعية تحمل على متنها ألف فارس وثلاثة آلاف جندي مشاه، تحت قيادة المندوب البابوي وقائد عسكري شجاع ومتمرس على فنون الحرب والقتال. وعليهم أن يسلكوا الطريق البحري عبر البحر المتوسط ومنه يتوجهوا إلى قبرص أولاً والنزول بها ثم التوجه إلى أرمينية^(٢٦). فضل هيثوم طريق البحر المتوسط ونصح الصليبيين به لتجنب حرارة الصيف الحارقة في الأراضي الآسيوية الداخلية وجعله أهم طريق تسلكه الحملة الصليبية المتجهة إلى الشام مفضلاً إياه على بقية الطرق الموصلة إلى البلاد الإسلامية وبعد السيطرة على البحر المتوسط تستطيع الحملة الكبرى السيطرة بكل سهولة على الموانئ الإسلامية^(٢٧).

ومن الدعاة الصليبيين وليم ديورانت Guillaume Durant الذي تولى منصب أسقف مدينة ميند Mende في فرنسا عام ١٢٩٦ م. استمر وليم في منصبه حتى عام

(23) Hayton, Flor des Estoires, PP. 220-253.

(24) Hayton, Flor des Estoires, P.P. 235-253.

(٢٥) Hayton, Flor des Estoires, P.P. 242-243.

(26) Hayton, Flor des Estoires, P.P. 242-243.

(27) Hayton, Flor des Estoires, P. 248-249.



١٣٢٨ م. وفي عام ١٣٢٩ م، استدعاه البابا حنا الثاني والعشرون، والملك الفرنسي فيليب السادس دي فالوا، للقيام بمهمة في الشرق هو وبطريك القدس في ذلك الوقت من أجل التنظيم للحملة الصليبية ضد المسلمين والتي اعترم فيليب السادس شنها. فتوجه وليم ورفاقه بداية إلى مصر، ومنها اتجه إلى قبرص لاطلاع ملوكها على الأوضاع التي يعيشها الصليبيون في الشرق. وتوفي وليم ديورانت في قبرص في يوليو من عام ١٣٣٠ م، ودفن في كنيسة نيقوسيا^(٢٨).

كتب وليم ديورانت مشروعه الصليبي وقد تناول فيه خطته للاستيلاء على الأراضي المقدسة، حيث أشار ديورانت إلى ضرورة فرض حظر تجاري على مصر حتى تنهار اقتصادياً وبالتالي يتم إضعافها قبل توجيه الحملة الصليبية إليها. وعلى البابا متابعة التأكيد على الالتزام بقرارات الحظر التي تصدرها البابوية لمنع مزولة التجارة مع المسلمين. وتكوين قوة بحرية عسكرية في البحر المتوسط لتنفيذ هذا الحصار بالتعاون مع الاستبائية في رودس والمسيحيين الشرقيين في بلاد الشام ورأى أن ذلك سيساعد الحملة الصليبية للاستيلاء على الأراضي المقدسة^(٢٩). ثم تناول ديورانت الطرق المتجهة إلى الشرق لكنه لم يكن مثل بقية الدعاة الذين يعددون الطرق الموصلة إلى الشام ومصر ويرجعون طريقاً على آخر أو يضعون الخيار أمام قائد الحملة لاتخاذ ما يراه مناسباً لقواته. فلم يذكر ديورانت في مشروعه سوى طريق واحد وتجاهل كافة الطرق وهو طريق البحر المتوسط من أوروبا إلى قبرص ومنها إلى الشام ومصر ورأى أن ذلك سيسهل عملية وصول الحملة الصليبية^(٣٠).

وبخصوص السفن والمعدات الحربية اللازمة للحملة فضل ديورانت إجراء مفاوضات مع المدن التجارية الإيطالية وهي بيزا، والبندقية، وجنوه، بحكم معرفتهم الجيدة بطريق البحر المتوسط وشدد على ضرورة التحالف فيما بينهم وترك المنازعات من أجل تقديم الأسطول أو السفن الضرورية والإمدادات والمعدات الحربية اللازمة وتحديد الوقت المناسب للحملة وقد شرح ديورانت شكل الأسطول ومكوناته شرحاً طويلاً فتحدث عن السفن الشراعية

⁽²⁸⁾ A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . Mollat , P. 1171 .

⁽²⁹⁾ A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . mollat , p. 1172 .

⁽³⁰⁾ A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . mollat , P. 1172 .



ونوعيتها وأكد على ضرورة إنزال هذا الأسطول بالبحر المتوسط بصفة دائمة لمنع المتاجرة مع المسلمين وقد كلف ديورانت المدن التجارية بمهمة تمويل الأسطول ورأى ألا تطلب مقابلاً لذلك؛ لأن هذه السفن والمعدات لخدمة القضية الصليبية التي يجب على كل الصليبيين المشاركة فيها واعتبارها جزءاً من أمور دينهم لا يقبل المساومة. وهذه السفن يجب ألا تستخدم لأغراض تجارية؛ لأنها إذا استخدمت للغرض التجاري وجب دفع أموال عنها لملاكها^(٣١).

هناك داعي من أهم دعاة الحروب الصليبية وهو فولك دي فيلاريه Foulques De Villaret المقدم الخامس والعشرون لهيئة الاسبتارية، وقد صممت المصادر عن ذكر حياته الأولى والتي تشمل مولده وعائلته، ولم يعرف عنه سوى أنه من عائلة بروفانسية نبيلة^(٣٢). تولى فولك دي فيلاريه منصب رئيس الطائفة في عام ١٣٠٥م بعد وفاة عمه وليم دي فيلاريه Guillaume De Villaret في قبرص^(٣٣). وقد تولى عدة مناصب دينية قبل أن يكون رئيساً لهذه الطائفة؛ إذ تذكر المصادر أنه قبل قدومه إلى الشرق كان قائداً لمنطقة القديس جل St. Gilles جنوبي فرنسا. وبعدها في عام ١٢٩٩م نصب فولك دي فيلاريه نائباً للمقدم أي نائباً لعمه وليم^(٣٤).

بعد أن انتقلت بقايا الصليبيين إلى جزيرة قبرص بعد طردهم من بلاد الشام عام ١٢٩١م فكر وليم دي فيلاريه عم فولك، في الاستيلاء على جزيرة رودس وجعلها موطناً

⁽³¹⁾ A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . Mollat , P. 1172 .

⁽³²⁾ A.B.F. Villaret (Foulques De) , Hoefler , J.C.F. Nouvelle Biographie generale , etc . 46 Vols . 1852 , P. 65 .

A.B.F Villaret (Foulques De) , Galeries Historiques Du Palais De Versailles , Vol.6 – 9 , 1840 – 1848 , P. 56 .

⁽³³⁾ A.B.F. Villaret (Foulques De) , Dezobry , L.C. Et Bachelet , J.L.T . Dictionnaire General De biographie , Etc . 2Vol . 5 me ed , 1869 , P.62 .

⁽³⁴⁾ A.B.F. Villaret (Foulques De) , Hoefler , J.C.F. Nouvelle Biographie generale , etc . 46 Vols . 1852 , P. 65 .



للاستبارية إلا إنه لم يحالفه الحظ إذ توفي قبل تحقيق ذلك الأمل^(٣٥). وعندما خلفه ابن أخيه المقدم فولك دي فيلارية حاول تحقيق ذلك، وبما أن طائفته وليدة الحملات الصليبية على المسلمين، فمهمتها الأساسية تكمن في قتالهم لذلك أعد فولك دي فيلارية مشروعاً صليبياً كبيراً وقدمه إلى البابا كليمنت الخامس Clement V يهدف إلى الاستيلاء على الأرض المقدسة وعودة الصليبيين إليها من جديد وبما أن فولك دي فيلارية أعد هذا المشروع الخطير، فقد رأى أنه لا يمكن تنفيذه وهم قابعون في جزيرة قبرص التي تقيم أحياناً علاقات ودية مع المسلمين وبالتالي تحرم فولك دي فيلارية وطائفته من ممارسة نشاطهم الحربي ضد المسلمين وتحرمهم من أسباب وجودهم. لذلك صار على فولك دي فيلارية أن يبحث لنفسه ولطائفته عن ميدان جديد يستنفذ فيها إمكانياته المادية وحماسه الديني هو وجميع طائفته، لتحقيق مشاريعهم الصليبية، واستئناف محاربة المسلمين سياسياً واقتصادياً وحربياً.
(٣٦)

وفي عام ١٣١٠م، استطاع الاستبارية الاستيلاء على جزيرة رودس التي تعتبر من الجزر المهمة في شرق البحر الأبيض المتوسط، حيث تمتاز بموقعها الاستراتيجي الممتاز خاصة وأنها تتوسط قارات العالم الثلاث^(٣٧). وقد أصبحت الجزيرة منذ أن سيطر عليها الاستبارية سنة ١٣١٠م بمساعدة الجنوية وانتزاعها من الدولة البيزنطية حصناً من الحصون الباقية لحكم الصليبيين في شرق البحر المتوسط. حيث أنهم اتخذوا منها قاعدة لنشاطهم وأعمالهم كما اتخذوها معقلاً لمناوئة المسلمين وأسهمت الجزيرة في الغارات المتكررة على السواحل الإسلامية في مصر والشام وأصبح مسمى الاستبارية منذ ذلك

(٣٥) A.B.F. Guillaume de Villaret , Galeries Historiques Du Palais De Versailles , Vol.6 – 9 , 1840 – 1848 , P.64 .

A.B.F. Villaret (Foulques De) , Hoefer , J.C.F. Nouvelle Biographie generale , etc . 46 Vols. 1852 , P. 65 .

(٣٦) Laurent , M., Beutes de L’histoire des croisades et des ordres religieux et militaires qui en sont nes, P. 249 .

(٣٧) A.B.F.villaret (Foulques de), Vol. 13, P.24.

Laurent, M., Beutes de L’histoire des croisades et des ordres religieux et militaires qui en Sont Nes , P.P. 254-257.



الوقت فرسان رودس، حيث أطلق عليهم الغرب ذلك المسمى بعد وصول أنباء استيلائهم على الجزيرة^(٣٨). وقد فرح العالم الصليبي أشد الفرح بهذا الانتصار رغم عدم مشاركته واعتبر ذلك نصراً صليبياً ومقدمة للاستيلاء على الأماكن المقدسة في الشام وأصدر البابا مرسوماً عام ١٣١٠م منح فيه الجزيرة بأكملها للاستبارة^(٣٩).

عرض فولك دي فيلارية في مشروعه على البابا كيفية التعامل مع المسلمين وذلك بفرض حصار اقتصادي كبير لمنع أولئك الخونة من إمداد المسلمين بالمتطلبات العسكرية الخاصة. وفي رأيه يجب إرسال خمس وعشرين سفينة شرعية من نوع قانس^(٤٠) عليها قوى قبرصية ومن فرق الداوية والإستبارة تجوب البحر المتوسط لتعزيز الحظر التجاري على مصر وقطع الإمدادات عنهم. ثم أكد فولك دي فيلارية للبابا أن هذا الأسطول يجب إرساله في الوقت الحالي حتى لا يعطى فرصة للعرب المسلمين لتسليح أنفسهم ومساعدة الإيطاليين لهم. وهذا يؤكد أن فولك دي فيلارية كان يؤمن بعدم جدوى أي عمل عسكري كبير ضد المسلمين ما لم يسبقه شن الحرب الاقتصادية التي تضمن عدم وصول السلع الحربية المحرمة إلى الموانئ الإسلامية. ويستأنف كلامه قائلاً: " ... هكذا، عندما يبدأ

(38) A.B.F.Villaret (Foulques de), Galeries Historiques du palais de Versailles, VOL.6-9, 1840-48, P.58.

A.B.F.Villaret (Foulques de), Feller, F.X. de Biographie universelle, etc. 8Vol. Nouvelle ed. 1851, P.59.

Laurent, M., Beantes de L'histoire des croisades et des ordres religieux et militaires qui en Sont Nes , P.257.

(39) Reg. Clem.V, P.2148.

(٤٠) قانس أو بطس: والبطسة مركب للحرب أو التجارة، والجمع بطس، وهي سفن عظيمة الحجم كثيرة القلوع، وقد يصل عدد القلوع في البطسة الواحدة إلى أربعين قلعاً، واشتهر هذا النوع من السفن في أيام الحروب الصليبية، فقد كان هذا النوع من السفن من أشهر أنواع سفنهم، فيشحنونها وقت الحرب بالآلات، والأقوات والميرة والرجال، والمقاتلة والأسلحة والآلات الحصار، ويعد محمولها بالآلاف الخلق، ولها أسطح عالية، وطبقات كل طبق خاصة بفتنة من الجيش، يفرش بالبسط وغيرها، وتسع لعدد كبير من الجند يصل إلى نحو سبعمائة جندي. انظر:

محمد ياسين الحموي، تاريخ الأسطول العربي، دمشق، ١٩٤٥م، ص ٤٠.



الوعظ بالحرب الصليبية فإنه يجب تجميع وإرسال خمس وعشرين سفينة شراعية كبيرة تسمى قادس مجهزة برجال أشداء. هذه السفن إضافة إلى السفن المقدمة من قبل ملك قبرص والكنيسة ومن عندنا - يقصد الاسبتارية - سوف تكون قادرة على منع سفن أولئك المسيحيين الأوغاد من الحصول على منفذ سريع إلى الإسكندرية أو أراضي مصر. إننا نعتقد أن هذا الأسطول الصغير يجب إعداده في الحال حتى يتسنى له وبسرعة تقليص الزمن المتاح للعرب المسلمين لتسليح أنفسهم والتزود من المواد المذكورة أعلاه^(٤١).

بعد تنفيذ عملية الحصار، يقترح فولك دي فيلاريه على البابا أن يعد أسطولاً آخر يتراوح عدد سفنه ما بين خمسين إلى ستين سفينة شراعية كبيرة، نصف هذه السفن تكون من سفن النقل الكبرى القادرة على حمل أربع مائة إلى خمسمائة حصان. ونصح بضرورة استئجار الجنود المرتزقة وخاصة الرماة والفرسان والمشاة المسلحين تسليحاً كاملاً وقد ركز على الرماة لأنهم هم الذين سيقومون بشن غارات خاطفة على السواحل الإسلامية، في البحر المتوسط سواء في مصر أو الشام، وذلك قبل الحملة الصليبية الكبرى بسنة واحدة. هذا الأسطول مهمته الإغارة على شواطئ المسلمين لتدمير المنشآت الساحلية بها. ويكون ذلك على شكل سلسلة من الغزوات أو الغارات هنا وهناك، أي ينتقل من شاطئ إلى آخر لتدميره. هذه الغارات في رأي فولك دي فيلاريه تؤدي ليس فقط إلى شل حركة الدفاع البحرية عند المسلمين ولكن إلى حيرتهم من وجهة الصليبيين الحقيقية مما يسهل نزول قوات الحملة الرئيسية عند وصولها^(٤٢). كما إن تلك الغارات المتفرقة على شواطئ المسلمين تؤدي إلى تدمير امداداتهم، وقتل جنودهم، وبشكل عام إنهاك الجيش الإسلامي وزعزعة توازنه وانشغاله بالرد على الهجمات الصليبية. ولنترك للقارئ أن يضطلع بنفسه على تلك الخطة التي ذكرها فولك ليري مدى مكره وخبثه يقول: (... فيما بعد يتطلب الأمر تجميع أسطول أكبر من أجل إضعاف العرب المسلمين وبلادهم الساحلية حتى يتسنى للحملة

(41) Housley, N., Documents on the later crusades, 1274-1580, London, P.42.

(42) Delaville le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et Achypre 1100-1310, Paris, 1904, P.P. 269-271.



القادمة أن تنزل البر بسهولة وسلامة ويمكن تنظيمها هكذا، عقب تجميع خمسة وعشرين سفينة يجب الإسراع في تنظيم خمسين أو ستين سفينة شراعية كبيرة. نصف هذه السفن تكون من النوع الدائري البدن وقادر على حمل أربع مائة أو خمسمائة حصان، لمدة سنة كاملة قبل وصول الحملة يجب أن تعمل هذه الأساطيل على طول الخط الساحلي للسلطان والذي يستغرق عبوره أكثر من أربعين يوماً وينقل ويهبط هذا الأسطول الصغير في مكان بعد آخر، وينزل الخيالة والمشاة أولاً وهم يشنون الغارات ويسببون الضرر والخراب في المناطق الساحلية لمدة نصف يوم تقريباً ويتوقف ذلك على الأحوال المحلية. على هذا النحو، عندما يشاهد العرب المسلمون أسطول المسيحيين عازماً على إنزال رجاله فإنهم سيضطروا لإبقاء قواتهم المسلحة ومشاطهم وخيالاتهم تروح وتغدو من مكان إلى آخر على طول الساحل ويستخدموا الخدع في التظاهر بأن الرجال ينزلون من السفن بينما عملياً لا شيء من ذلك يحدث، من ثم، يبتعد الأسطول لمسافة مسيرة أربعة أو خمسة أيام أو أبعد ما يكون وذلك خلال يوم واحد أو ليلة واحدة ومن ثم يقوموا بإنزال القوات وأثناء ذلك ولتكرار مجيء وذهاب القوات المسلحة لمواجهة العرب المسلمين ستستنزف أسلحتهم وحيواناتهم ويستهلكوا كل ما لديهم. والمدنيون سوف يهجروا قراهم ومستوطناتهم وأرضهم التي يحصلون منها على قوتهم وسوف تتدهور أحوالهم إلى الحد الذي عندما تصل الحملة، سوف تحقق أكثر مما يحققه جيش يفوق حجمها ثلاث مرات^(٤٣).

ثم يذكر فولك دي فيلارية الطريق الذي يجب أن تسلكه الحملة فقال أن الحملة الصليبية المتجهة إلى الأراضي المقدسة في الشرق لها طريقان إما براً عن طريق آسيا الصغرى، أو بحراً عن طريق البحر المتوسط. فالطريق البري هو نفس الطريق الذي سلكته الحملة الصليبية الأولى الناجحة في نظر فولك دي فيلاريه إلا إنه رغم ذلك لم يحبذ ذلك الطريق؛ لأن قواد الحملة فقدوا أثناء ذلك الطريق الطويل الشاق تسعة أعشار الجيش حتى وصلوا إلى إنطاكية، وأن نجاحها في الاستيلاء على إنطاكية والأماكن المقدسة رغم

(43) Housley, N., Documents on the later crusades, P.43.



الصعوبات التي واجهتها تم بمعجزة، ربما لا تتكرر في نظر فولك دي فيلارية^(٤٤). أما مشاكل البحر في الطريق الثاني لحملة عسكرية كبرى مثل هذه فقد حذب فكرة إنزال الفرق العسكرية في مختلف الموانئ في البحر المتوسط الإسبانية، والفرنسية، والإيطالية وبعدها يتم تركيزها في جزيرتي قبرص ورووس. وبدأ يبين المشاكل البحرية في البحر المتوسط التي لا يمكن تخطيطها تقريباً؛ وذلك لأنه من الصعب أن تسير حملة كبرى مكونة من مئات السفن المحملة بالفرسان والعتاد والمؤن لتصل مباشرة إلى الأراضي الإسلامية ثم تقوم بشن هجومها عليها مباشرة. فقد رأى فولك دي فيلارية أنه من الصعب تحقيقه، وإذا أرادت الحملة التوجه إلى الأراضي الإسلامية بجيوش متفرقة فسيؤدي ذلك إلى قيام المسلمين في بلاد الشام بانتظارهم وإبادتهم فرقة وراء أخرى، ورأى أن تجزئة الجيش تؤدي إلى إضعافه، وبالتالي إذا علمت باقي فرق الجيش بما حل بإخوانهم الذين سبقوهم فسيؤدي هذا الوضع المأساوي إلى تثبيط عزيمة الباقين^(٤٥). ثم ختم رأيه بقوله: "النتيجة ضمنية وليست ظاهرة، ولكنها رغم ذلك واضحة فبكل بساطة حملة صليبية كبرى غير معقولة في الوقت الحالي"^(٤٦).

حيث اقترح مرة أخرى، إرسال بعثة عسكرية صغيرة للإغارة، وإرسال بعثات أيضاً مماثلة لها للإغارة بين الحين والآخر. وقرر أن تضم تلك البعثة العسكرية ألف حصان، أي ألف فارس وأربعة آلاف من الجنود الرماة الذين لهم الدور الكبير في هذه الغارات التي تتطلب الرماة المهرة، وسيمكث هؤلاء هناك خمس سنوات للقيام بشن هجمات متلاحقة على سواحل المسلمين في مصر أو الشام. كما رأى تجهيز ستين سفينة شراعية لإرسالها إلى هناك وتمكث ثمانية أشهر من كل عام لتكون على مقربة من شواطئ قبرص لفرض حصار اقتصادي على الأراضي الإسلامية.

(44) Kedar & Schein, Un projet de passage particulier propose par L'ordre de L' Hospital,1306-1307, BEC137 (1979), P.215.

(45) Kedar & Schein, un projet de passage particulier propose par L'ordre de L' Hospital,1306-1307, BEC137 (1979), P.215.

(46) Kedar & Schein, un projet de passage particulier propose par L'ordre de L' Hospital,1306-1307, BEC137 (1979), P. 217.



قام فولك دي فيلارية بحث الأمم النصرانية على قطع العلاقات التجارية مع مصر وعزلها اقتصادياً عن طريق أسطول الحراسة الذي أشار إليه أنفاً. إضافة إلى منع أي نوع من أنواع الاستيراد والتصدير عبر البحر المتوسط لأي تجارة متوجهة إلى الأراضي الإسلامية، وطالب كذلك بتحويل تجارة الهند من طريق البحر الأحمر إلى بلاد أرمينيا والتي من خلالها يتم نقل التجارة إلى البحر المتوسط ومنه إلى أوروبا وذلك مادامت أوروبا لا تستغني عن بضائع الشرق الأقصى.^(٤٧)

أما مشروع هنري الثاني دي لوزجان ملك قبرص فكان لا يقل خطورة عن سبقه حيث تعتبر قبرص بحكم موقعها قرب السواحل الإسلامية في البحر المتوسط دائماً الخوف على مركزها، الأمر الذي جعل ملوكها إما يقومون بشن الغارات على المسلمين أو بدعوة الغرب الأوربي للقيام بحملة صليبية ضدهم، كما إن الهجوم الدائم من قبل المسلمين على أرمينيا المجاورة لهم جعلهم يشعرون باقتراب دورهم. وعند اجتماع مجمع " فيينا " ١٣١١ - ١٣١٢م لمناقشة الحملة الصليبية على المسلمين أرسل الملك هنري الثاني مشروعه إلى البابا كليمنت الخامس حيث سلم مندوبه هذا المشروع شخصياً إلى البابا نفسه^(٤٨).

بدأ هنري مشروعه بتوضيح نقطه مهمة، وهي أنه قبل البدء في شن حملة صليبية ضد المسلمين، يجب أولاً إضعافهم اقتصادياً مما سيؤدي إلى إضعافهم عسكرياً، وبما أنه على دراية كبيرة بالنشاط التجاري للمسلمين رأى أن الحظر التجاري على مصر والشام والبلدان الإسلامية الأخرى سيكون أداة فعالة، ثم أخذ يوضح حجم السفن والجنود التي ستقوم بهذه المهمة، حيث أشار بتجهيز ما يقرب من خمسة عشر إلى عشرين سفينة قوية، وتسليحها تسليحاً جيداً، على أن تتطلق تلك السفن لتقوم بحراسة البحر المتوسط لإلقاء القبض على ما أسماهم المسيحيين الخونة الذين ينقلون المماليك أي العبيد الجدد إلى

(47) Delaville le Roux, J. La France en Orient au XIV siècle, P.81.

(٤٨) للاطلاع على هذا المشروع أنظر ،

A.B.F. Boutaric , Notices et extraits de documents inedits relatifs a l'histoire de France sous Philippe le Bel , P.P. 117 - 123.

وقد حلل هذه المذكرة Maslatrie في كتابه Histoire de chypre , vol . III , P.P. 118-125 .



السلطان؛ لأنهم في عملهم هذا يعززون الجيش الإسلامي. كما أنهم يقومون بنقل المؤن والمواد العسكرية للعدو. وأكد الملك هنري أن الشرط الأساسي لنجاح الأسطول في مهمته هو استقلاله عن سلطة المدن التجارية الإيطالية كالبندقية، وجنوا، وبيزا؛ لأن ذلك سيخول له حرية الحركة وتحقيق النجاح المطلوب؛ لأنه فقد الثقة في ولاء تلك المدن للقضية الصليبية وكان يخشى استغلال هؤلاء فرصة ارتباطهم بالأسطول لتعزيز مصالحهم الدنيئة - كما وصفها - الخاصة بالتبادل التجاري مع المسلمين^(٤٩).

ثم تابع الملك هنري كلامه بأنه إذا ما تم مراعاة القيود وتنفيذ الحظر بمراقبة السفن في البحر المتوسط بشكل صارم لمدة عامين أو ثلاث فسوف تنهار قوة مصر الملاحية وستنضب مواردها... كلف هنري الثاني الأسطول المرابط في البحر المتوسط بمهمة أخرى وهي أن يلحق به فرقة من الفرسان ورماة السهام البارعين الذين لديهم القدرة على مقاومة رماة المسلمين المهرة حتى يقوموا بشن غارات فجائية على المدن الساحلية للمسلمين على البحر المتوسط تؤدي إلى إلحاق الضرر البالغ بها، كما أنهم سيثيرون الرعب في قلوب المسلمين ولعل تكرر هذه الغارات بين الفينة والأخرى سيساعد على تحقيق الهدف، وسيضعف المسلمين وسيدمر بلادهم تدميراً كبيراً عندئذ سيصبح الوقت مواتماً للحملة الكبرى التي ستكون قادرة على تحقيق النجاح إذا تم تنفيذ هذه المقترحات أولاً^(٥٠).

وبذلك نرى أن مشروع هنري متشابه مع مشروع فولك دي فيلارية زعيم الاستبارية الذي رأى وجوب شن غارات متفرقة على السواحل الإسلامية لتشتيت جهود المسلمين وزعزعة صفوفهم وتخريب المدن الساحلية حتى تتمكن الحملة من النزول بها بكل سهولة. أما من ناحية الطرق، فقد رجح الملك هنري طريق البحر المتوسط إلى قبرص ولا يرى طريقاً غيره لأهميته العسكرية في السيطرة على السواحل الإسلامية حسب قوله. وقد رجح الهجوم مباشرة على مصر من قبرص لأن مدة الرحلة من قبرص إلى مصر عن طريق البحر قصيرة ومباشرة، تبلغ فقط خمسة أو ستة أيام ولا يشكل النزول عقبه كبيرة^(٥١).

⁽⁴⁹⁾ Maslatrie, Histoire de Chypre , Vol. 2, P.P. 119 – 120 .

⁽⁵⁰⁾ Maslatrie, Histoire de Chypre , Vol. 2, P. 121.

⁽⁵¹⁾ Maslatrie, Histoire de Chypre , Vol. 2, p.p. 122 – 123.



ومن واضعي المشاريع جاكبوز دي مولاي آخر رئيس ومقدم لطائفة كهنة المعبد الداوية. عاش في أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الميلادي، ولد في مدينة مولاي Molay في فرنسا^(٥٢)، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته إلا إنه ولد بين عام ١٢٤٠-١٢٤٤م^(٥٣). من أسرة نبيلة في فرنسا^(٥٤). وفي عام ١٢٩٨م، انتخب جاكبوز دي مولاي رئيساً لمنظمة الداوية^(٥٥).

اهتم دي مولاي في مشروعه الصليبي بشن حرب صليبية حربية بين المسلمين والصليبيين يكون البحر المتوسط ميداناً عسكرياً لها، لأن في رأيه أن المماليك لا يمثلون خطراً بحرياً على الصليبيين فهم لا يملكون أسطولاً قوياً يجوب البحر المتوسط إضافة إلى عدم خبرتهم في القتال البحري لذا - فمن وجهة نظرة - فهم لا يشكلون خطراً على الصليبيين الذين يصفهم دي مولاي بالمهارة في الحروب البحرية وأضاف دي مولاي بضرورة وضع سفن عسكرية مهمتها مراقبة البحر المتوسط لمنع التجارة مع المسلمين واهتم بنوعية السفن التي تحمل الجنود ورأى عدم استخدام السفن الشراعية مثل هذه في الحملات العسكرية، وإنما يستعاض عنها بالسفن الكبيرة المعروفة بالبطسة؛ لأنها تسع أربعة أضعاف

⁽⁵²⁾ A.B.F. Molay (Jacques de), Voy. Biogr. Univ., t. XXIX, P.276.

⁽⁵³⁾ A.B.F. Molay (Jacques de), see Templars, knights Hist. Litt. De la . France, XXVII, 292-293, 382-386, Two chaps. Written by Renan: Viollet. Les Interrogatoires de Jacques de Molay (Paris, 1910), Besson, Etude sur Jacques de Molay, (Besancon 1877), schottmuller, Der untergang des Templerordens (2 Vol., Berlin, 1887). Lavocat, Proces des freres de l'order du Temple (Paris, 1888). Rastoul, les Templiers (Paris, 1905).

A.B.F. Molay, (Jacques de), P.274, P.306.

⁽⁵⁴⁾ A.B.F. Molay, (Jacques de), Feller, f. X. de Biographie universelle, etc. 8 vol. Nouvelle ed. 1851, P.306.

⁽⁵⁵⁾ A.B.F. Molay (Jacques de), Mennechet, E. le plutarque Francais, etc. 6 vol. 2 me ed. 1844-47, P.290.

A.B.F. Molay (Jacques de), Fourquet, Emile les hommes celebres et les personnalites marquantes de France- comte du Ive siecle a nosjours. 1929 (19), p.274.



ما تحمله السفينة الشراعية، وبالتالي تقل التكلفة المالية للحملة. وهذا النوع من السفن اعتاد الجنوبية على استخدامه لاتساعه؛ ولأن الأشرعة فيه تصل إلى أربعين شراعاً^(٥٦).

رأى دي مولاي ان يعهد بقيادة هذه الحملة إلى " روجر دي لوريا " Roger De Lauria الأدميرال الأروغواني المشهور في أوربا قائد الأسطول الأروغواني في البحر المتوسط^(٥٧). لأنه في رأيه قائد خبير بالشئون البحرية فقد كان روجر دي لوريا من الشخصيات العسكرية البارزة في عصره، وعمل قائداً للأسطول الأروغوني الذي فرض سيادة أروغون البحرية في غرب البحر المتوسط، وتميز دي لوريا بمعلوماته العسكرية في فهم استراتيجية الحرب البحرية والتكتيك، والقدرة والسرعة في المناورات^(٥٨).

وللخطة التي أعدها وليم آدم أهمية خاصة، فهو داعي صليبي ومنصر نشط جاب الشرق من أجل الدعوة للنصرانية على المذهب الكاثوليكي وقد عرف بلقب الدومينيكي

(⁵⁶) Crawford, P., An Institution in crisis the military orders,1291-1310, Adissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of= Doctor of philosophy history at the university of Wisconsin-Madison , 1998, P. 90.

(⁵⁷) Crawford, P. , An Institution in crisis the military orders,1291-1310, Adissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of philosophy history at the university of Wisconsin-Madison, 1998, P.90.

Brehier , L. L'eglise et l'orient au moyen age les croisades,P. 255.

Delaville le Roulx , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 57.

وكان روجر دي لوريا من أشهر القراصنة الذين يغيرون على سواحل بلاد أفريقية خاصة بعد استيلاء الأروغون على جزيرة جربة حيث أتخذها قاعدة لعملياته العسكرية ضد المسلمين هناك ويتضح ذلك في رسالة وجهها إلى الملك الأروغوني جيمس الثاني سنة ١٣٠٣م قال فيها: "سأبقى في خدمتك ما أبقاني الرب حيا ، من أجل محاربة المسلمين" .

Dufourcq, C. E., L' espagne catalane et Le Magre b au XIII et XIV. Paris, 1966 , P.426.

(⁵⁸) Crawford , P., An Institution in crisis the military orders,1291-1310, Adissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of philosophy history at the university of Wisconsin-Madison , 1998, P. 92 .



المنصر. ولد وليم آدم في إقليم لانجدوك Languedoc الذي يقع في الجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا، فيما بين عامي ١٢٧٠-١٢٨٠، والأرجح عام ١٢٧٥م. ولم تتحدث المصادر عن عائلته. إلا إنني أتوقع انه ينحدر من عائلة نبيلة نظراً لما تلقاه منذ صغره من عناية في الناحية التعليمية والتي لا يقدر عليها في ذلك الوقت إلا أبناء النبلاء^(٥٩).

انتدبه البابا كليمنت الخامس للقيام بأعمال تنصيرية في الشرق. فسار عبر الطريق البري من ناحية أوروبا الشرقية حتى وصل عام ١٣٠٧م إلى آسيا الصغرى، فظل متواجداً في القسطنطينية في تلك السنة، ثم أبحر عن طريق بحر إيجه ثم البحر الأسود عن طريق مضيق البسفور والدرنيل، ثم بعد عبوره البحر الأسود انتقل عن طريق البر إلى أرمينيا الصغرى ومنها إلى بلاد فارس وهناك أخذ يدعو إلى النصرانية فترة ليست بالقصيرة ثم سافر إلى الهند ووعظ هناك عن العهد الجديد (الإنجيل)^(٦٠). ثم توجه مع أحد رفاة إلى المحيط الهندي وعن طريقه زار عدن في بلاد اليمن وجمال في تلك الأنحاء حتى وصل إلى أثيوبيا^(٦١).

يعتبر وليم من أول الدعاة الذين خططوا لمشاريع صليبية يستطيع أن يصل بنفسه إلى بلاد الحبشة ويزور تلك الأماكن ويشاهد مضيق باب المندب الذي تصل من خلاله البضائع الهندية إلى بلاد المسلمين في مصر والشام، وهي في الواقع نقطة في غاية الأهمية بالنسبة للأفكار التي دونها في مشروعة من أجل إعداد حملة صليبية للاستيلاء على الأراضي الإسلامية. كما تجول في بعض المناطق المختلفة في المحيط الهندي وتعرف على سواحله واستمرت رحلته في المحيط الهندي فقط حوالي عشرون شهراً عاد بعدها على نفس خط سيرة إلى فرنسا ومنها إلى أفنيون مقر البابوية الجديد وذلك عام ١٣١٦ - ١٣١٧م^(٦٢)، ولذلك تميز وليم آدم بإمامه بأمور الشرق وأخباره.

(٥٩) A. B. F.. guillaume Adam , l'Academie des sciences d'outre - mer . hammes et destins , 7 vols. 1975 - 1986 , p . 73

(٦٠) Kohler Ch . Guillelmus Adae, R. H. C. Hist . Arm .Vol. II, P. 542.

(٦١) A. B. F. Guillaum Adam, L'academie des sciences d'outre - mer , Hommes et d'estins , 7Vols. , 1975-1986 , Jean richard , P . 73; R. H. C. Hist. Arm. P. 550.

(٦٢) R. H. C. Hist. Arm. P. 550.

Memoires de la societe royale de geographie d'egypte , Vol.V, P. 62.



وفى تلك الفترة، ألف كتابة والذي ضمّن فيه مشروعة الصليبي الذي حوى العديد من الأفكار العسكرية والسياسية والدينية والاقتصادية التي جمعها خلال رحلته تلك والتي دعى فيها أوربا لإعداد حملة عسكرية كبرى للاستيلاء على الأراضي المقدسة في الشام والقضاء على المسلمين والكتاب هو كيفية سحق المسلمين Démodé Saracenos Extirpandi وقدّم هذا الكتاب إلى البابا حنا الثاني والعشرون ١٣١٦-١٣٣٤م^(٦٣).

عرض وليم آدم وبكل جرأة في بداية خطته أن سبب قوه المسلمين هو مصادر ثروتهم التي تعتمد على المتاجرة مع الأمم المجاورة لهم. ولهذا يرى وليم أنه من أكثر الأسلحة فاعليه لإضعاف مصر وتوجيه ضربة قاتلة إليها هو محاولة عزلها^(٦٤).

زيادة على ذلك يرى وليم أنه على البابوية اتخاذ إجراءات أكثر صرامة في تنفيذ الحظر وهو وضع أسطول كاف في البحر المتوسط ليقوم بالمحافظة على قرارات الحظر. واشترط في هذا الأسطول أن يكون أكثر جدية في التنظيم عن الأسطول السابق الذي قام البابا بتجهيزه لنفس الهدف، لأن البابوية قد حُدعت في مسألة سفن الحصار التي رأت وضعها في البحر المتوسط، فيقول انه ما إن تم تمويل السفن التي أمرت البابوية بها على مدار العام، لم ينزل منها إلى البحر سوى أربعة فقط في مدة ستة أشهر، كما إن هذه السفن لم تُعد وتسلح تسليحاً جيداً حتى إنها لم تتمكن من الصمود في معركة أمام ثلاثة من سفن الأعداء. ثم يُضيف مع ذلك، فإن الحظر المكون من أربع سفن لم يُعمل به إلا خلال أشهر الشتاء، علماً بأن موعد الحملة قد حُددت في الصيف. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن القائد العام على تلك السفن المكلف بتنفيذ الحظر لم يأبه بتنفيذه، وعلل ذلك بأنه هذا القائد لا يستفيد من هذه السفن المصادرة كغنيمة حرب له ولجنوده مما يؤدي إلى عدم تحمسه للعمل وبالتالي لا يبالي بتنفيذ الحظر^(٦٥).

(٦٣) A. B. F. Guillaum Adam, L'academie des sciences d'outre - mer , Hommes et d'estins , 7Vols. P.73 ; R. H. C . Hist . Arm , P . 542 ; Al Phandery , P., La chretiente et lidee de croisade. P. 241.

(٦٤) Guillelmus adae , De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II, P. 528, P. 537, P. 823.

(٦٥) Guillelmus adae , De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol. II, P.P. 526-527.



يتابع وليم آدم مشروعه بضرورة إعلان البابا الحظر على البحارة الذين يعتمدون على العلاقات القائمة بين التتار والمسلمين. وإذا لم يرتدعوا أشار وليم على البابا اقتراحاً جديداً على مشاريع الدعاة الصليبيين وهو أن توضع حراسه بحرية مشددة في جزيرة خيوس^(٦٦) Chios في بحر إيجه وذلك لسببين أولهما حكام تلك الجزيرة من أسر آل زكريا الجنوبيه^(٦٧) Zaccharia الذين أراد وليم أن تكون الحملة تحت قياده أحد أحفاد بنديتو زكريا

(٦٦) تعتبر جزيرة خيوس من أغنى جزر بحر إيجه وأكثرها خصوبة، والمكان الوحيد في العالم وقتذاك الذي كانت تنمو فيه أشجار المصطكي وقد ارتبطت شهرتها وأهميتها التجارية بانتاج المصطكي التي كانت تصدره إلى معظم بلدان العالم آنذاك واشتهرت هذه الجزيرة لدى الجغرافيين والمؤرخين المسلمين باسم "جزيرة المصطكي". انظر.

القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٨٥؛ العمري، التعريف، ص ٩٥.
رحله طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمه، حسن حبشي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨ م، ص ١٠.

Miller, w., " genoese in Chios" , E. H. R., xxx (1915), P.P. 418-432.

(٦٧) كانت طرابلس الشام في عام ٦٨٦/١٢٨٧ هـ قومونا جنويا برئاسة أحد الشخصيات الجنوبيه وهو بنديتو زكريا، وأعلنت جنوه بموجب ذلك حمايتها لمدينه طرابلس، ولهذا كان فتح السلطان قلاوون لطرابلس ضربه قويه للنشاط التجاري لا في الشام فحسب بل في شرق البحر المتوسط، وضربه قويه كذلك إلى آل زكريا، وعندئذ بدأ آل زكريا بأعمال قرصنة انتقامية ضد المسلمين لما حل بهم في طرابلس. وقد ذكرت المصادر تلك الأعمال التي قام بها بنديتو زكريا، وعندما عادت العلاقات الجنوبيه المصرية في معاهده عام ١٢٩٠م استمر آل زكريا في قرصنتهم، الأمر الذي جعل الحكومة الجنوبيه تعلن أمام السلطان أنها غير مسؤولة عن أعمال القرصنة التي يقوم بها رعاياهم أمثال آل زكريا، وكانت رافضه تماماً ما يقوم بها بنديتو هذا. ولكن بنديتو استمر يبحث له عن مقر ليزاول نشاطه التجاري إلى أن تنازل الإمبراطور البيزنطي عن جزيرة فوكايه لمانويل زكريا؛ لأنه كان يتمتع عنده بحظوة كبيرة واحتكر آل زكريا تجاره الشب هناك ومن ثم سيطر بنديتو زكريا الجنوبي على جزيرة خيوس في عام ١٣٠٤م بعد أن تعرضت مستعمرتهم في فوكايه إلى الأخطار بسبب سيطرة الأتراك العثمانيين على تلك الأماكن في أسيا الصغرى وبعض جزر البحر الأسود. وكان بنديتو يريد حماية ممتلكاته في فوكايه وقد طلب من إمبراطور القسطنطينية أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بحماية فوكايه وتأخر رد الإمبراطور فبادر بنديتو بالاستيلاء على "خيوس" التابعه للقسطنطينيه، ولم يكن في مقدور الإمبراطور أندرونيق الثاني أن يطرده منها وبالتالي سيطر آل زكريا الأسرة الجنوبيه على الجزيرة، وعهد له الإمبراطور بحكمها لمدة عشر سنوات، دون أن يدفع جزية عنها، وان يستخدم إيرادات الجزيرة في أعمال الدفاع، ومن ثم انتقلت الجزيرة إلى حكم ورثته. لكن كان الإمبراطور يقلدهم منصبهم وظل علم الإمبراطور يرفرف على الجزيرة، إلا أن آل زكريا= تمتعوا بحكم مستقل



Bendito- Zaccharia وهم الذين اعتبرهم وليم آدم من أهم المدافعين عن مصالح القضية الصليبية ويذكر أن بينتو وابنه باليولوج Paleologue قد دفعا مبالغ مالية كبيرة من حسابهما الخاص لصالح القضية الصليبية^(٦٨)، ولهذا رأى وليم أنهم جديرين بمهمة متابعة الحظر التجاري على المسلمين في البحر المتوسط. السبب الثاني، موقع الجزيرة نو الأهمية الكبيرة والذي يقع على الطريق البحري بين القسطنطينية والإسكندرية، وباستطاعة آل زكريا في خيوس قطع الاتصال التجاري بين مصر من جهة وبين خان مغول القفجاق^{٦٩} والإمبراطورية - البيزنطية من جهة أخرى^(٧٠).

اقترح وليم آدم في مشروعه ضرب حصار حول مصر هذا الحصار لا يكون فقط في منطقته البحر المتوسط - كما ذكرنا سابقاً - لكن في المحيط الهندي أيضاً، وهذه الفكرة لم يسبقه أحد من الدعاة إليها، ولعله استمدها من رحلاته في المحيط الهندي ومشاهداته

تماماً وكأنهم أمراء مستقلون عن الإمبراطور إلى إن تمكن البيزنطيون من طردهم نهائياً منها عام ١٣٢٩م. وعن آل زكريا وتجارتهم في خيوس. انظر:

ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ١٦٥ - ١٦٦.

عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، سوريا، ط ١، ١٩٨٠م، ص ٢٨٠ - ٢٨١ و ص ٢١٩.

هايد، ف.، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ٢، ص ٥٩ - ١٠٢، ص ١٢٢-١٢٤ و ص ١٤٧.

^(٦٨) كان من أبناء باليولوج زكريا ، مارتينو زكريا (١٣١٤-١٣٢٩م) وهذا يعاصر وليم آدم ، وقد تميز مارتينو بشجاعته ونجاحه وخاصة في حروبه ضد الأتراك، واكتسب لنفسه مركزاً كبيراً بالحماية التي أحاط بها المسافرون الغربيون، حتى أن فيليب دي فالوا المطالب اللاتيني بعرش القسطنطينية منحه لقب ملك " آسيا الصغرى وطاغيتها" كما منحه البابا حنا الثاني والعشرون بالتزامه بالحظر العام المفروض على الاتجار مع المسلمين، تصريحاً بتصدير المصطكي إلى الإسكندرية اعترافاً بالخدمات التي أدها للصليبيين. ولهذا امتدح وليم آدم هذه الأسرة وشعر أنها هي الكفيلة بإنجاح الحظر.

انظر، هايد، ف.، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ٢، ص ١٢٣.

Delaville le Roulx, J. La France en Orient au XIV siecle , P. 72.

^(٦٩) عن مغول القفجاق أنظر: محمود سعيد عمران، المغول وأوربا، القاهرة، دار المعرفة الجامعية، ص ٧٠-٧٦.

^(٧٠) Guillaume Adam . De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H. C. Arm. Vol. II, P.P. 531-533.



عن قرب للطرق التجارية هناك والتي تسلكها التجارة الشرقية المتجهة إلى مصر، لذ، فهو يعلم أن مصر كانت تستمد احتياجاتها ليس فقط عبر البحر المتوسط وإنما أيضا عبر البحر الأحمر ومن هذا الطريق كانت تحصل على التوابل الآتية من الهند والشرق الأقصى بالإضافة إلى إنه على علم بالإجراءات المتبعة ضد تجار البحر الأحمر، ولهذا عرض وليم في مشروعه إنشاء أسطول قوي في المحيط الهندي تكون مهمته الحيلولة دون وصول متاجر الهند إلى عدن فيضطر التجار إلى المرور عن طريق الخليج العربي ومنه إلى نهر دجلة ثم شمالا عبر آسيا الوسطى حتى يصل إلى أرمينيا ومن ميناء أرمينيا " أياس " تنقل التجارة عبر البحر المتوسط إلى أوربا^(٧١). وقد أدرك وليم مسبقا صعوبة تنفيذ ذلك المشروع، لذلك نراه يقدم بعض الموضوعات التي استند عليها لتنفيذ هذه الفكرة، بقوله إن المشروع لا يعد مستحيلاً، فيكفي أن تتدخل الكنيسة وتأمّر ببناء ثلاث أو أربع سفن في المحيط الهندي لمنع مرور التجار إلى عدن، ثم يحاول إقناع البابا بأن الجنوبية حاولوا تنفيذ هذا المشروع من قبل لأسباب تجارية، ويفضل مساعدة خان مغول فارس أرغون Arghun ١٢٨٤- ١٢٩١م، فقام الجنوبية بإعداد سفينتين في بغداد وكانوا يودون تسيير هذه السفن في نهر الفرات ومنه تتوجه إلى المحيط الهندي عبر الخليج العربي من أجل حماية مضيق عدن، إلا إنه أوضح أن هذا المشروع لم يستكمل بسبب بعض الخلافات التي قامت بين هؤلاء الجنوبية لكنه عاد وبين أن هناك بعض الصعوبات التي قد تعوق تنفيذ المشروع لكنه قدم لها الحلول التي يراها مناسبة والتي استفادها من خبرته في تلك الأماكن التي زارها بنفسه^(٧٢). ومن الصعوبات التي حددها وليم في كيفية الحصول على هذه السفن، أنه اقترح بناء سفن في جزيرة هرمز في الخليج العربي، ولعله يقصد جزيرة قشم الحالية وكانت من

(71) Guillame Adam . De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II,p. 553

Al phandery, op. cit. p. 242

Delaville le Roulx, op. cit. p. 75.

(72) Guillelmus Adae , De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II,p. 551.

Delaville le Roulx, J. La France en Orient au XIV siecle. P. 75.



ضمن أملاك مغول فارس في ذلك الوقت - أو جزيرة لكديف في المحيط الهندي، أو في مدينة بومباي في الهند، أو مدينة تانا على ساحل المحيط الهندي شمال بلاد الهند حالياً أو مدينة كولوم Colom، وتسمى كولومبو حالياً وتقع في جزيرة سيلان ويضيف أنه يجب أن يتم إعداد السفن في تلك البلاد بعيداً عن أعين التجار المسلمين سكان مدينة عدن الذين يتولون أمر الملاحة في البحر الأحمر، ويوضح أن هذا الأمر ممكن؛ لأن تجار عدن يتاجرون مع الهند، ولكنهم ليس لديهم أي علاقة ببلاد فارس وجزر الأرخيبيل الهندي لأنهم - على حد قوله - على عدا دائم مع حكامها^(٧٣). ويضيف وليم أن بناء السفن في تلك المناطق سهل للغاية وذلك لتوفر أخشاب البناء بكثافة مثل أشجار التوك والصندل وغيرها^(٧٤). بالإضافة إلى أنه لا يوجد ما يدعو إلى الخوف من هجوم مباغت للمسلمين لتلك المناطق تعد من المرافئ التجارية لبلادهم، ويضيف أن شعوب تلك المناطق أيضاً تشجع على القيام بمشروع يستهدف القضاء على ازدهار تجارة التجار المسلمين؛ لأنهم يكرهونهم ويحسدونهم على غناهم ويفضلون التعامل مع السفن النصرانية، ولهذا سيساعدون السفن الصليبية في مهمتها. كما إن خان مغول فارس يتطلع إلى تأسيس قوة بحرية على الخليج العربي، وبهذا يتمكن الصليبيون بالتعاون معه من تحقيق هدفهم وإغلاق مضيق باب المندب في وجه سفن المسلمين^(٧٥).

وهكذا، إذا تحققت كل تلك الأمور فلا يتبقى لتنفيذ المشروع سوى ميناء آمن. وقد ضمن وليم آدم الحصول عليه بسهولة في المحيط الهندي الذي يضم كما يقول أكثر من عشرين ألف جزيرة معظمها مهجورة، وخصص وليم جزيرة هرمز (قشم الحالية) في الخليج العربي الخاضعة لنفوذ مغول بلاد فارس. لتكون ميناء لتلك السفن المسلحة؛ لأنها تتميز بأفضل الشروط المناسبة لرسو تلك السفن. فهناك على - حد رأيه - يمكن للسفن أن تظل بها شتاء دون خطر، ويمكن إصلاح أعطالها أي القيام بصيانة تلك السفن وتخزين

(73) Delaville le Roulx, J. La France en Orient au XIV siecle. P. 75.

(74) Guillelmus Adae , De Modo Sarracenos extirpandi , In R. H. C. Arm. Vol. II, P.P. 550 - 552.

(75) Guillelmus Adae, De Modo Sarracenos extirpandi , In R. H. C. Ar. Vol. II, P. 554.



البضائع التي يتم الاستيلاء عليها دون خوف من هجوم الأعداء بل على العكس فإن مغول فارس شجعوا هذا المشروع. وإذا تعذر الحصول على موافقة الخان، فإنه يمكن البحث عن مكان آخر مثل أرخبيل " ديف " على وجه التحديد^(٧٦). فإذا تجهزت تلك السفن فستقوم بحراسه مضيق عدن ويقول وليم عن ذلك الموقع، أنه يتواءم من الناحية الجغرافية مع الهدف المرجو تحقيقه، حيث ذكر أنه توجد به ثلاث جزر تحمي ذلك الموقع وتحمي السفن المبحرة في البحر الأحمر. وكل سفينة تمر في ذلك المضيق لا بد لها من المرور على تلك الجزر، ولعل ذلك كان لإقناع البابا بمشروعه الذي اعتبر البعض صعوبة تحقيقه فإذا نظرنا إلى جميع التسهيلات السابقة إضافة إلى أوضاع تلك الجزر التي أشرنا إليها أمراً سهلاً؛ لأن الذين يسكنونها كانوا من النصارى الضعفاء الذين لا يستطيعون مقاومة المهاجمين من المسلمين أو من غيرهم، فهم يفرون دائماً من الغزاة ويلجئون إلى الكهوف بالجبال العالية الموجودة بتلك الجزر. ولهذا سجد الصليبيون دعماً قوياً من سكان تلك الجزر؛ نظراً لكرهيتهم للمسلمين الذين - يقول عنهم وليم - أنهم في نزاع دائم معهم. ويرى وليم أنه من السهل وضع سفن في مواجهه المضيق لسد طريق التجارة إلى مصر. والواقع، إن وليم آدم بوصفه شعوب تلك الجزر أنهم شعوب نصرانية كأنه يرغب البابا في حمايتهم. ولهذا يرى وليم أنه لا يوجد ما تخشاه السفن الصليبية لتنفيذه هذا المشروع^(٧٧).

ولدينا داعٍ آخر وضع خطة صليبية لا تقل خطورة عن سبقه هو الداعي الصليبي مارينو سانودو الذي يحتل مكانة مهمة بين دعاة الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي؛ نظراً لأنه بندقي الأصل. فهو من المدينة التي ارتبطت بالعالم الإسلامي بعلاقات متميزة اقتصادية وسياسية سطرت تاريخ العصور الوسطى.

(76) Guillelmus Adae, De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H. C. Arm. Vol. II, P. 554.

Guillelmus Adae, De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H. C. Arm. Vol. II, P. 552.

(77) Delaville le Roux , J. La France en Orient au XIV siècle. P. 77.



ولد مارينو سانودو في مدينة ريفالتو Rivalto أكبر أقاليم البندقية في عام ١٢٧٠م. اهتم مارينو سانودو منذ صغره بمتابعة أحوال الأراضي المقدسة، ولهذه الغاية عبر البحر المتوسط خمس مرات ليذهب من البندقية إلى قبرص وأرمينيا والإسكندرية ورووس كما تنقل مراراً بين الإسكندرية وعكا وعاش في الحي البندقي في عكا عام ١٢٨٦م لبعض الوقت، وكان هدفه كما يقول: " لخير النصرانية جمعاء والوصول إلى النتيجة التي من الممكن أن يحققها البابا بإذلال وإبادة أعداء الإيمان المسيحي وخاصة سلطان مصر وإمبراطور التنز والأتراك الذين أخضعوا جزر اليونان حتى المورة وفي نفس الوقت شد أزر ملك أرمينيا بالإضافة إلى حث البابا على اقتلاع وتبديد تلك الملة التي نشرها محمد صلى الله عليه وسلم" (٧٨).

ويقول مارينو موضعاً هدفه الذي ذكرناه أعلاه في مقدمته "لتحقيق هذا المشروع، عبرت البحر خمس مرات لأذهب تارة إلى قبرص وطوراً إلى أرمينيا أو الإسكندرية ومرة أخرى إلى رودس، لكنني قبل أن أخوض هذه المغامرة، أقمت طويلاً في الإسكندرية وعكا دون أن أخالف المنع الذي فرضته الكنيسة تحت طائلة العقوبة، على كل حال، فإني قضيت معظم حياتي في جزر اليونان ولذلك، أعتبر أنني مطلع جيداً على حالتها وخاصة على الوضع في المورة Amorea" (٧٩).

كما طاف مارينو بالعديد من الدول الأوروبية بالإضافة إلى أفريقية، حيث زار مارينو الحبشة وقد ذكر في كتابه هذه الرحلات العديدة التي أكسبته خبرة واسعة في شؤون الشرق وشؤون البحر مما جعله يجرؤ على الكتابة في الأمور البحرية لسعة اطلاعه بها (٨٠).
ويعد عمل مضمّن، استغرق حوالي الست عشرة سنة انتهى سانودو من إعداد كتابة سنة ١٣٢١م، وقدمه للبابا حنا الثاني والعشرون. واختار له عنواناً هو " أسرار

(٧٨) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها" ترجمة الأب سليم رزق الله، دار الريحاني، لبنان، ط ١، عام ١٩٩١م، ص ٥٤ - ٥٥ .
(٧٩) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ٥٥ .
(٨٠) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ٤٥ .



المؤمنين بالصليب لاسترجاع الأرض المقدسة والمحافظة عليها *Secreta Fidelium Cruces* ^(٨١).

ركز مارينو سانودو في مشروعه الصليبي على ذكر البحر المتوسط والذي يطلق عليه بحرنا يقصد أنه بحيرة مسيحية تتبع أوربا، ورأى أن السبيل الوحيد للاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام ومصر هو عن طريق السيطرة على البحر المتوسط وإمكانية تحقيق هذا يتطلب الأمر أن يأمر البابا بتجهيز عشر سفن مسلحة مهمتها مراقبة البحر المتوسط ويعين عليها الريان الذي يجب عليه أن يتخذ كافة التدابير التي تحول دون المتاجرة مع المسلمين بهدف ضربهم اقتصادياً أولاً قبل البدء بحملة عسكرية كبرى ^(٨٢)، وهذه السفن تحتاج لمدة تسعة أشهر فقط لتسليحها ويجب كذلك تزويدها بطاقم مدرب، وشدد على تسليحهم تسليحاً جيداً كما أوضح لنا أن هذه السفن الحربية إن كانت قليلة ومعدده إعداداً جيداً، ومجهزة تجهيزاً وافياً فهي أفضل وأحسن من سفن كثيرة تفتقر إلى هذا الإعداد ^(٨٣). وأن يكون الريان الذي يقودها حاذقاً وله قدرة على تقدير الأمور وأن يكون الأسطول الذي يقوده مدرباً ومسلحاً، وعلى دراية بالمعلومات الملاحية في البحر المتوسط ومنتظماً ودقيقاً وأن يكون سريع الحركة والتنقل، واختار أن تكون السفن من نوع الشواني ^(٨٤)

^(٨١) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ١٧؛

Kunstmann , F., Studien uber Marino Sanudo den Aelteren, Munich,1855, P.P. 4-5 ; Simonsfeld , (Neues Archiv, VII, 43-75).

^(٨٢) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ١٧.

Delville le Roux , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 37.

^(٨٣) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ١٧٧.

^(٨٤) شيني والجمع شواني، وهي السفينة الحربية الكبيرة، ويستدل من النصوص التاريخية العديدة أن الشيني هو الأصل الذي يفرع منه أسماء السفن الحربية الأخرى وملحقاتها، فكل سفينة حربية شيني تحمل اسماً معيناً يدل على وظيفتها فمنها الغراب، والطريدة، والجفنة، وغيرها. انظر: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، ص ٢٠٠؛ ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص ٣٧٧؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٥١.

لكونها أنسب السفن لعبور البحر، فهي تشبه سفن البنادق الضخمة والتي كانت تعرف بالغلبيون^(٨٥) وهي التي تتسع لحمل بضائع كبيرة وفي وسط كل سفينة منها ينصب برج يبلغ طوله عشرين قدماً ، وعرضه بعرض السفينة التي تحمله ويكون ارتفاعه بالقدر الذي يمر من تحته المقاتلون وهم واقفون، أما مؤخرة كل سفينة فيوضع بها المعدات الحربية وتركز حسب نصيحة الخبراء المختصين بذلك، وعلى رأس السفينة توضع آلات الرماية بالعدد الكافي، وأن تختار بعض السفن التي تكون أكبر حجماً لتجهيز باب يفتح في مؤخرتها لنقل المؤن وليسهل إصعاد الخيول إليها، بالإضافة إلى بعض السفن غير المسلحة لنقل المواد الغذائية والذخائر، ويحث على وضع رسومات وألوان وأعلام لإلقاء الرعب في قلوب أعدائه المسلمين^(٨٦). ثم أفرد فصلاً عدد فيه أصناف الأسلحة الدفاعية والهجومية التي يحتاج إليها الجيش وهي في الواقع الأسلحة المستخدمة في الحروب في تلك الفترة^(٨٧). كما قرر أن يكون ضمن معدات الجيش الأبواق والمزامير والطبول وكل أنواع الموسيقى العالية الرنين لإثارة حماس وعزائم الجيش عند سماعها ومن ناحية أخرى، فهي تثبت الرعب في قلوب الأعداء^(٨٨). أما الريان فعلى تأمين مراقبة البحر المتوسط لمدة عام، ويتلقى أوامره من قبل البابا نفسه^(٨٩). وأن يمنح امتيازات تشجيعية لكل طاقم السفينة ووفق رأى سانودو فعلى أن يمنحهم كل ما يستولي عليه وبهذه الطريقة يزدادوا يقظة ونخوة لكشف وملاحقة كل من

^(٨٥) الغلبيون: سفينة حربية ذات أربعة صوار وليس لها مجاديف وتحتوي على ساحتين للقتال في المقدمة والمؤخرة، ويعتبر من السفن الشراعية الممتازة ذات الأسلحة الثقيلة، ولذلك عملت فتحات خاصة لها على جانبي ساحة القتال. انظر: سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٣٦٠.

^(٨٦) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ١٧٩ - ١٨٠.

^(٨٧) كالسيوف والدروع والتروس والنبال والرماح. انظر، مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ١٨٢ - ١٨٥.

^(٨٨) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ١٨٢.

^(٨٩) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ١٢٢.



تسوغ له نفسه مخالفة هذا التحريم^(٩٠). وحرص سانودو أن يكون هؤلاء البحارة من سكان المناطق الساحلية الأوربية الواقعة على البحر المتوسط لدرابتهم وخبرتهم بالبحر واقترح جنوداً من ألمانيا رغم عدم وقوعها على ساحل البحر المتوسط؛ وذلك لأن بعض شواطئها شبيهة بشواطئ مدينة البندقية الواقعة على البحر المتوسط، وبالتالي فإن هؤلاء الجنود سيستطيعون الإبحار في البحر المتوسط ومشاركة إخوانهم الصليبيين التصدي للسفن التجارية الإسلامية. معنى ذلك أن سانودو اشترط على من يحارب المسلمين عن طريق البحر أن يكون على دراية بشؤنه. أي أن سانودو جعل البحر المتوسط ميداناً عسكرياً لمواجهة السفن الإسلامية. واقترح أيضاً أن على القائد البحري أن يرسل أمامه سفينتين تستكشفان البحر للكشف عن الجزر والصخور ومراقبة الخلجان حتى ينذر الجيش البحري خلفه بالخطر إذا شعروا به. و أن لا يترك المجال للسفن الإسلامية أن تتغلغل بين السفن الصليبية ويؤكد على ضرورة أن تطارد السفن الصليبية سفن الأعداء وهم المسلمون، وأن يضع على السفن الصليبية شارات سرية تميزها عن سفن الأعداء^(٩١).

ويحاول سانودو أن يثير حماس النصارى بمقاطعتهم لطرق التجارة التي تمر بأراضي السلطان، حيث يذكر أن النصارى عندما كانوا يحتلون الشام كانت تجارة الهند تصلهم عن طريق الخليج العربي ثم بغداد إلى أن تصل إلى موانئ الشام وكانت تصدر بكميات كبيرة جداً إلى أوروبا عن طريق البحر المتوسط الذي أسماه سانودو بحرنا لكي يذكر البابا أنه في يوم ما كان معظم القاطنين حول هذا البحر من النصارى، أما الآن، فهي أقل بكثير وذلك لسيطرة المسلمين على تلك البضائع واستيفائهم الجمارك الباهظة، كما إن ذلك الطريق صالح للعبور أكثر من الطريق الآخر الذي يمر ببلاد سلطان مصر، يقول سانودو: "في الزمان الماضي كان القسم الأكبر من السلع و التوابل الهندية المرسلّة إلى الغرب تمر ببغداد وتنتقل منها إلى

(٩٠) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ١١٩.

(٩١) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ٢٣٤.



بحرنا - يقصد البحر المتوسط - عن طريق إنطاكية وقليقيا وكان عندنا وقتئذ منتجات الهند بكميات أكبر وثمن أقل مما هي عليه في الوقت الحاضر^(٩٢).

وبالنسبة للطرق التي رأى سانودو أن يسلكها الجيش للوصول إلى الشرق، فقد أصر على طريق البحر المتوسط وأن يتجه الجيش من أوربا إلى مصر مباشرة وحدد في تقريره مبررات الاتجاه إلى مصر، حيث أوضح أن أرض مصر أسلم صحياً ومياهها أكثر عذوبة، وفيها من المؤن ما يكفي لسد احتياج الجيش فمثلاً فيها كميات لا تعد من الأسماك كافية لتغذية الجيش بأكمله، وأوضح ضرورة التوجه بالحملة مباشرة إليها دون العروج على غيرها من المناطق طالما أن الهدف واضح وهو توجيه الضربة إليها مباشرة، ويتساءل، لماذا إذا ينحرف الجيش إلى مناطق غيرها ولا تستغل حماسته مباشرة في المواجهة العسكرية^(٩٣).

وأوضح سانودو بعد ذلك الخطة التي يجب اتباعها عند الوصول إلى الهدف، حيث تبدأ أولاً بالاستيلاء على نهر النيل لأنهم إذا سيطروا عليه فسينجحوا بعد ذلك في احتلال جميع مناطق مصر ويخربونها برمتها وبذلك يكون البحر المتوسط تحت سيطرة الأوربيين فقط. وبعد الهيمنة على النيل والاستيلاء عليه يتمكنون مباشرة من الاستيلاء على رشيد التي يرى سانودو أهميتها الكبيرة، وقرر ضرورة بناء قلعة حصينة بها مباشرة ثم استيطان النصارى بها لتنفيذ المخطط الصليبي وفق السياسة المرسومة ضد مصر، وإذا تمت تلك العمليات بهذا التنظيم الدقيق فسيتم احتلال بقية الأقاليم المصرية في الحال ولن يتمكن المصريون من حراستها ولا الدفاع عنها، ولن يتمكن المسلمون بعد ذلك من الإقامة بينهم أو إمداد أنفسهم بالغذاء الذي يقيم أودهم؛ لأنهم يعتمدون تماماً على النقل النهري عبر النيل في وصول المواد الغذائية من مناطق مصر المختلفة، فإذا سقط في أيديهم فسيعجز المصريون عن الاستعاضة عنه بطرق بحرية أخرى أو برية لأن الجنود النصارى سيؤمنون ويحرسون ما استولوا عليه، ولن يمكنوا أحداً من النفاذ منه إلى جانب كثرة الصحاري التي تحيط

^(٩٢) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

^(٩٣) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ١٣٩-١٤٣.



بالبلاذ والتي تعتبر عائقاً في حركة نقل المواد الغذائية كما إن هذا الحظر التجاري لن يكون على هذه السلع الداخلية، وإنما للسلع الخارجية أيضاً التي تصل من مناطق أعالي النيل والحبشة وسيؤدي ذلك في النهاية إلى فرار المصريين من الأرض وتركها بحجة الجوع والخوف^(٩٤).

وبالسيطرة على البحر المتوسط، يعدد سانودو المزايا التي سيحصل عليها الأوربيين منها: أنه سيكون بإمكان أساطيل الصليبيين بعد ذلك ارتياده بأمان حاملة الجنود والغذاء إلى جميع المناطق التي يرغبون في الوصول إليها وانتزاعها من الأعداء ولا يستطيع أحداً مقاومتهم أو إلحاق الأذى بهم^(٩٥).

وعن طريق ذلك البحر يتمكن الصليبيون من نقل الأساطيل والجيوش لاحتلال أراضي الشمال الأفريقي، وكذلك جزر اليونان التي يعيش بها المنشقون عن الكنيسة الرومانية - كما يطلق عليهم ذلك - ويحسن سانودو ذلك المشروع في عين البابا، إذ يذكر له أنه بعد أن يستولى النصارى على تلك الأراضي في مصر والشام سيكون في إمكانهم التحكم في الطرق التي توصلهم إلى بحر الهند يعني بذلك البحر الأحمر والمحيط الهندي الذي يُمني البابا بإخضاعه لسيادته^(٩٦).

تبين لنا من خلال استعراض مشاريع دعاة الحروب الصليبية أنهم أجمعوا جميعاً على ضرورة سيطرة أوربا على البحر المتوسط؛ لأنه من خلاله سيسهل احتلال كل البلاد الإسلامية الواقعة على سواحلها، وهذا يؤكد أهمية موقع البحر المتوسط، فهو الميدان العسكري الكبير الذي يجب أن تبدأ الحملة العسكرية التمهيدية في مياهه قبل النزول إلى البر الإسلامي، ويؤكد أيضاً أنه همزة الوصل بين الشرق والغرب.

^(٩٤) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ٢٥٢؛

Delaville le Roulx , J. La France en Orient au XIV siecle. P. 39.

^(٩٥) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ٢٥٢-٢٥٣.

^(٩٦) مارينو سانودو، "كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، ص ٢٥٨-٢٥٩.

قائمة المختصرات:

قائمة المصادر العربية:

- ابن عبد الظاهر، (محيي الدين عبد الله ٦٢٠ - ٦٩٢هـ):

A. B. F.	Archive of Biographique Francaises.
Cam- Med. Hist.	Cambridge Medieval History
R. H. C. Hist- Arm	Recueil des historiens des Croisades, Historiens Armeniens.

تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل ومحمد علي النجار، القاهرة، ١٩٦١م.

- الفلقشندي، (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ / ٤١٨م):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزء، القاهرة، ١٩١٩-١٩٢٢م.

المراجع العربية والمعربة:

- ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠م.

- سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة، ١٩٧٥،

- سميث، الاستبارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠-١٣١٠م، ت. صبحي الجابي، ط. دمشق، ١٩٨٤م.

- طافور، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م، ص ١٠.

- عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق، سوريا، ط ١، ١٩٨٠م.

- محمد ياسين الحموي: تاريخ الأسطول العربي، دمشق، ١٩٤٥م.

- نبيلة مقامي: فرق الفرسان الرهبان، القاهرة، ١٩٧٥م.

- هايد، ف.: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت. أحمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٤ أجزاء، ١٩٩٤م.
المصادر الأجنبية المعربة:
- مارينو سانودو: كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، ترجمة الأب سليم رزق الله، دار الريحاني، لبنان، ط١، عام ١٩٩١م.
المصادر الأجنبية:

- A. B. F. Molay, (Jacques de) , See Templars, Knights , Hist. Litt. De la France, XXVII, two chaps. Written by renan : Viollet. Les Interrogatoires de Jacques de Molay, Paris, 1910.
- A. B. F. Molay (Jacques de) Fourquet, Emile, les hommes celebres et les personnalites morquantes de Franche – Comte du IV esiecle a nos jours, 1929.
- A. B. F. Molay (Jacques de), Mennechet, E. Le Plutarque Francais. 1844 – 47.
- A. B. F. Molay (Jacques de), Chronique de Saint – Denis .
- A. B. F. Molay (Jacques de) , Histoire genealogique de la maison de France. In Galeries Historiques du PalAis de Versailles . 1840 – 1848.
- A. B. F. Molay (Jacques de), Pierre Dupuy , hist. De le Condamnation des Templiers, Raynouard, (P. M. J.) Histoire critiqueet apologetique de lordre des checalrers du Temple de Jerusalem.
- A. B. F. Molay (Jacques de), Baluze, Vitae paparum Anenionensium, Colon.
- A. B. F. Villaret (Foulques), Galeries Historiques du palais de versailles. 1840 – 1848 .
- A. B. F. Villaret (Foulques), Raynaldi , Dnnal. Eccleriat., 1306, Fleury, vol. XIX.
- A. B. F. Villaret (Foulques), Dictionnaire des personnages historiques Francais. 1962.
- A. B. F. Les Chevaliers de L' Annonciade, Paris.



- Acta Aragonensia : Quellen Zur deutschen, Italienischen, Franzosischen, spanischen, zurkirchen – und kulturgeschichte aus der diplomatischen korrespondenz Jaymes II. (1291–1327) , ed. Heinrich Finke, Vols. 1-111, Berlin Leipzig, 1908 – 1922, Vol. III repr. 1966.
- Archives, O’Histoire Doctrinale et Litceraire du moyen age, Quarante – Sixieme Annee, 1971 , Paris, 1972.
- Archives, Biographiques Francaises, Molay (Jacques de), Voy Biogr. Univ., T. XXIX.
- A. B. F. Boniface. Les Registres, ed. Digard, G. and others (Bibliotheque des ecoles francaises de Athenese et de Rome, ser.1 (Paris,1884–1939).
- Archives Biographiques Francaises, Guillaume Nogaret, Dobry, L. C. at Bachblht, J. L. T. Dictionnaire general de Biographie, etc. 5me ed. 1869.
- Archives Biographiques Francaises, Guillaume Nogaret, Hoefer, J. C. F. Nouvelle Biographie generale, etc. 46 vol. 1852.
- Archives Biographiques Francaises, Guillaume Nogaret, Feller, F. X. de Biographie Universelle, 8. Vol. Nouvelle ed. 1851.
- Archives Biographiques Francaises, Guillaume Nogaret, Biographie Toulousaina, 1823.
- Guillelmus Adam , De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II.
- Miller, W. " Genoese in Chios" , E. H. R., XXX (1915).
- Guillame Adam . De Modo Sarracenos extirpandi , In R . H . C . Arm . Vol . II.
- A.B.F. (Guillaume Durant) , Pyg . Mollat.
- Hetoum of Gorigos, "La flor Historiarum Terre Orientis" in **RHC. Arm. Vol. II.**
- Kedar & Schein , Un project de passage particulier propose par l’Ordre de l’Hopital 1306 – 1307. Bec 137, 1979.



- Maslatrie, L., Traitee de Paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chretiens avec les Arabes de L' Afrique Septentrionale au mogen – age, Paris, H. plon. 1865.
- Regestum Clementis Papae V, ed anon, Benedictine Monks, I- VI and appendices I, Rome, 1885-1892.

المراجع الأجنبية:

- 1 - Alphandery, P., La Chretiente et L'idee de croisade, Paris, 1959.
- 2 - AtiyA, A.S.,- The Crusade in the later Middle ages, London, 1938.
 - The Crusade of Nicopolis,London.
- Brehier, L. L'Eglise et L'Orient au Moyen Age les Croisades, Paris , 1928.
- Crawford, P., An Institution in crisis the military orders,1291-1310. Adissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy history at the University of Wisconsin-Madison, 1998.
- Dufourcq, C. E., L' Espagne catalane et Le Magre b au XIII et XIV. Paris, 1966.
- Delaville Le Roulx, J. La France en Orient au XIV siecle expeditio ns du Marechal Boucicaud, Paris, 1886.
 - Les Hospitaliers en Terre Sainte et Achypre 1100-1310, Paris, 1904.
- Golubovich , G., Biblioteca bio – Bibliografica della terra santaedell Oriente Francescano . Florence , 1906 – 1927 , Vol . II.
- Luttrell , The Hospitallers at Rhodes, 1306- 1421 , in Setton , Vol . III.
- Paris, P., Hayton, Prince d'Armenie, Historien,Extrait de L'Histoire litteraire de La France, Paris,1885,XXV.
- Housley, N., Documents on the later crusades, 1274-1580, London.
- Kunstmann, F., Studien uber Marino Sanudo den Aeltteren, Munich,1855, P.P. 4-5 ; Simonsfeld , (Neues Archiv, VII, 43-75).

المجلات العلمية:

- محمود سعيد عمران، شارل دي انجو بين القسطنطينية وتونس والقدس ١٢٦٦-١٢٨٥م، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٦) م(١)، مارس، ١٩٩٨م، ص ١٦٩.

الرسائل العلمية:

- إبراهيم خميس إبراهيم، العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام (١١٩٣ - ١٢٩١ م / ٥٨٩ - ٦٩٠ هـ)، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٨٣م.
- سامي سلطان سعد، الاستبائية في رودس، رسالة دكتوراة غير منشورة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٧٥م؛

ظاهرة نبش القبور في الغرب الإسلامي

بين الصراع السياسي والخلاف المذهبي

(٣٤٥-٧٧٦هـ/٩٥٦-١٣٧٤م)

د. فريد عبد الرشيد فريد سليم

مدرس التاريخ الإسلامي

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

ملخص:

تسعي هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على ظاهرة من أكثر الظواهر غموضاً وإبهاماً في تاريخ الغرب الإسلامي بعدوثيه، وهي ظاهرة نبش القبور والتسلط عليها بالإحراق والتخريب، وقد تنوعت دوافع وأسباب تلك الظاهرة باختلاف طبيعة الظروف المؤدية لارتكابها وشخصية مرتكبيها وضحاياهم، وتأتي الصراعات السياسية والمذهبية التي سيطرت على تاريخ الغرب الإسلامي خلال تلك الفترة على رأس الدوافع والأسباب المؤدية لارتكاب هذا الفعل الشنيع، وارتبطت تلك الصراعات في الغالب الأعم بالرغبة في الانتقام من الخصوم والثوار والمناوئين الذين خاضوا في هذه الصراعات بانتهاك وأستباحة حرمة قبورهم بعد رحيلهم إمعاناً في التنسفي والانتقام منهم، رغم أن الإسلام في تشريعاته لم يدعُ إلى تخريب القبور أو حتى المساس بها كما نهى عن التمثيل والعبث بالجثث.

وقد توصلت الدراسة إلى أن هذا الفعل الشنيع لم يصل إلى حد الظاهرة الإجرامية؛ لأسباب عدة منها إحاطة هذا النوع من الجرائم بسياج من السرية والكتمان، فضلاً عن إحجام المؤرخين عن التأريخ له، كما أن الواقع التاريخي العياني يؤكد أن تلك الانحرافات لم تكن طابعاً غالباً، وإنما مست أفراداً، ولم يكن بإمكانها أن تشكل تياراً بارزاً في مجتمع الغرب الإسلامي.

Abstract :

This study seeks to shed light on a phenomenon that has been considered one of the most mysterious and ambiguous phenomena in the history of the Islamic West, this is the phenomenon of digging up graves, as well as the domination of graves by burning and vandalism, as the motives and reasons behind this phenomenon varied due to the nature of the circumstances leading to its perpetration, the personality of its perpetrators and their victims, the political and sectarian conflicts that dominated the history of the Islamic West during that period were at the top of the motives and reasons led to the perpetration of such a heinous act, in most cases, such conflicts were associated with the permissibility and violation of the sanctity of their graves after their passing away, as a way to further Underestimating and take revenge on them despite the fact that Islam, in its legislation, has not called for the destruction of graves, or even harming them, it also forbade mutilation and tampering with corpses, and the study concluded that this heinous act hasn't reached the level of a criminal phenomenon; that has been for many reasons, including surrounding such type of crimes with a fence of secrecy and concealment, as well as the reluctance of historians to chronicle such a matter, and the historical reality confirms that these deviations did not constitute a dominant nature, but rather affected individuals, and such deviations could not form a prominent current in Islamic West society.

مقدمة:

كان من الطبيعي أن يظل التأريخ لظاهرة نبش القبور في المجتمع الإسلامي محفوفاً بالمحاذير والمخاوف، ومن ثم أحجم المؤرخون عن التأريخ لتلك الظاهرة، باعتبارها موضوعاً محرماً وغامضاً، خصوصاً مع تحريم الإسلام لهذا الفعل القبيح، والاختلاف البين بين الرؤية الإسلامية النظرية وبين الواقع التاريخي العياني. ويُعزى الأمر دون شك إلي أن الكيانات السياسية التي عرفها الغرب الإسلامي عبر تاريخه الطويل قد اعتبرت أعداءها ومن ينحو منحاهم، ليسوا أعداءً ومناوئين سياسيين فحسب، بل كفاراً - وهم إخوان لهم في الدين - يجب جهادهم وإزهاق أرواحهم، بل والتسلط علي قبورهم بالنبش والتخريب إمعاناً في التشفي والانتقام منهم، وقد يصل الأمر في بعض الأحيان إلي حد اغتصاب هؤلاء الموتى في قبورهم دون مراعاة لحرمة الأموات، باعتبار ذلك مصيراً محتوماً لكل من ناوأ حكمهم أو خالف مذهبهم.

رغم أن الشريعة الإسلامية والسنة النبوية وكذا أقوال الفقهاء والأئمة - علي اختلاف مذاهبهم - قد اتفقوا علي عدم جواز نبش قبور المسلمين أو حتى المساس بها إلا بمسوغ شرعي، غير أنه لم يُلتفت في الغالب إلي هذا الحكم الفقهي في خضم الصراعات والحروب الدموية بين الأمراء والحكام المتنازعين علي السلطة، والذين لم يدخروا جهداً في تنحيها جانباً من خلال صياغة مسوغ شرعي آخر من بنات أفكارهم، وبمباركة فقهاءهم، ينطوي علي استباحة تكفير الخصوم والمناوئين، إذ كان الصراع السياسي والخلاف المذهبي كفيلاً بأن يدرج كل فريق خصمه وعدوه في عداد الكافرين، الذين يجوز استحلال دمائهم وانتهاك حرمة قبورهم، من خلال تأويل النص المقدس وتوظيفه لخدمة هذا المنظور السياسي، الذي لعب فقهاء السلطة دوراً هاماً في الترويج له، مادام الأمر يتعلق بمصلحة القابضين علي رأس السلطة. وهذه الصورة علي وجه الخصوص جديرة بالدراسة والبحث.

أولاً: النيش في اللغة والاصطلاح:

إن محاولة التأريخ لظاهرة نبش القبور في تاريخ الغرب الإسلامي يستلزم استحضار التعريف اللغوي والاصطلاحي لمفهوم "نبش القبور"، حيث تحيلنا المعاني المختلفة علي أن لفظة "النيش" في اللغة يقصد بها نبش الشيء ينبشه نبشاً: استخراجُه بعد الدفن، ونبش الموتى: استخراجهم، والنباش: الفاعل لذلك، وحرفته النباشة. والنيش: نيشك عن الميت وعن كل دفين^(١).

ولا يخرج المعني الاصطلاحي عن المعني اللغوي، ففي اصطلاح الفقهاء النباش هو من يفتش القبور عن الموتى ليسرق أكفانهم وحليهم بعد دفنهم^(٢)، وهناك فرق بين نبش القبور بغرض التنسفي والانتقام من أصحابها وبين الكنزيون الذين ينهمكون في البحث عن الكنوز المدفونة في أساسات الأبنية الأثرية القديمة، ينبشون "الأرض وينتفون العمارات والمقابر أحياناً"^(٣).

ثانياً: المرجعية الفقهية لحرمة الأموات في الإسلام:

جعل الله تعالى حرمة المسلم من أعظم الحرمات، وحرمة المسلم غير مقيدة بحياته، بل هي باقية في الحياة وبعد الممات، ويجب صونها والذبُّ عنها في كلِّ حال، ولا شك أن في نبش القبور ونقل ما بقي من آثار الموتى انتهاك حرمةٍ أوجب الله تعالى حفظها وصيانتها والدفاع عنها؛ وعليه لا يجوز نبش قبور المسلمين ولا الكشف عن موتاهم بعد دفنهم وإهالة التراب عليهم بلا مسوغ شرعي، وذلك باتفاق الفقهاء؛ لما في ذلك من هتك لحرمة الميت؛ لأن

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، مادة نبش، ج٤٨، ص٤٣٢٤.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤م، مادة نبش، ص٨٩٧، الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط١، ٢٠٠١م، ج٤٠، ص١٨.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ج١، ص٢٧٤. يشير الوزان إلي وجود جماعة في مدينة فاس يدعون الكنازين، كانوا يقومون بالبحث عن الكنوز في المباني الأثرية وفي المقابر والأضرحة أيضاً، لأنهم مقتنعون بأن الرومان حينما رحلوا عن إفريقيا، دفنوا في ضواحي مدينة فاس عدداً وافراً من الأشياء الثمينة التي لم يتمكنوا من حملها معهم. نفس المصدر والصفحة.

المكان الذي يدفن فيه المسلم يعد وقفاً عليه ما دام شئٌ منه موجوداً فيه حتى يفنى، فإن بقي شئٌ من أعضائه فيه، فحرمته باقية كما لو بقي جميعه، وحرمة المسلم ميتاً كحرمته حياً^(١). ولما في نبش القبر من التعدي على الميت والتمثيل به والإهانة له وهتك حرمة وتكسير عظامه، وكسر عظم المؤمن ميتاً ككسره حياً، فمن فعل ذلك فقد أتى ذنباً عظيماً، وارتكب جرماً كبيراً، وعرض نفسه للعن؛ لما ورد عن عائشة رضى الله عنها: "أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لعن المختفى والمختفية"^(٢)، أي نباشي القبور^(٣). ويعلق ابن عبد البر على هذا الحديث بقوله: "وفي لعن رسول الله صلي الله عليه وسلم النباش دليل علي تحريم فعله، والتغليظ فيه"^(٤). وكانت عائشة رضى الله عنها تقول: "كسر عظم المسلم ميتاً ككسره وهو حي"^(٥). وقد نهى الرسول صلي الله عليه وسلم عن المثلة، وترك الإنسان دون دفن مثلة، وكان قد أوصى عليه السلام إذ قتل بنى قريظة أن تحفر خنادق ويلقوا فيها، كما "أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقتلوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث"^(٦).

- (١) ابن مفلح المقدسى: كتاب الفروع، تحقيق عبد الله بن محسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة _ دار المؤيد، ٢٠٠٣م، ج٣، ص ٢٨٨-٣٨٩؛ أبي زكريا بن شرف النووي: كتاب المجموع، شرح المذهب للشيرازي، تحقيق وتعليق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، السعودية، ج٥، ص ٢٧٣؛ ابن الهمام الحنفي: شرح فتح القدير، تعليق الشيخ عبد الرزاق غالب المهدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، مج٢، ص ١٤٩؛ ابن الخطاب المالكي المغربي: مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، ط١، دار الرضوان للنشر، موريتانيا، نواكشوط، ٢٠١٠م، مج٢، ص ٥٥٢.
- (٢) مالك بن أنس: الموطأ، رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج١، ١٩٩٧م، ص ٣٢٥.
- (٣) سمي النباش مختفى؛ لإظهاره الميت وإخراجه إياه بعد دفنه من قبره؛ لأن أخفيت تكون بمعنى سترت وبمعنى أظهرت. ابن عبد البر القرطبي: الاستنكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأى والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تحقيق عبد المعطى أمين قلعجي، دار قتيبية للطباعة والنشر، دمشق _ بيروت، دار الوعي، حلب _ القاهرة، ١٩٩٣م، مج٨، ص ٣٤٣.
- (٤) ابن عبد البر القرطبي: الاستنكار، مج٨، ص ٣٤٤؛ الحسن البصري: التفرغ في فقه الإمام مالك بن أنس، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ٢٠٠٧م، ص ٢٢٢.
- (٥) مالك بن أنس: الموطأ، مج١، ص ٣٢٥.
- (٦) ابن حزم: المحلى، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٩هـ، ج٥، ص ١١٧.

واستناداً إلى حرمة نبش القبور والتعرض لها، اختلف الفقهاء في قطع يد النباش الذي ينبش قبور الموتى فيسرق أكفانهم بين قولين: الأول، لا قطع على النباش ولو كان القبر في بيت مقفل، وهذا قول أبي حنيفة. والقول الثاني: وجوب قطع يد النباش، وهذا قول المالكية^(١) والشافعية^(٢) والحنابلة^(٣)، وهو قول ابن الزبير وعائشة رضى الله عنها^(٤)، وقال به من التابعون التابعون عمر بن عبد العزيز^(٥).

ويدلل أصحاب القول الأول على صحة قولهم بما رواه الزهري من أن مروان بن الحكم أتى "بقوم يختفون القبور - أي ينبشونها - فضربهم ونفاهم، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون"، فكان هذا اتفاقاً ممن بقى من الصحابة في عهد مروان علي عدم قطع يد النباش. ويدلل أصحاب القول الثاني على صحة قولهم بقوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٦)، وهذا نص عام، فوجب أن يكون علي عمومه في النباش وغيره؛ لأن النباش سارق^(٧).

وفي السياق ذاته، لا يعتبر الاعتداء علي جثث الميت أو رفاته جريمة واقعة علي الميت باعتبارها إنساناً، ولا يعتبر الميت هو المجنى عليه، وإنما يحرم الاعتداء على رفات الأموات باعتبارها شيئاً محترماً لدى الجماعة ولها حرمة في نفوسهم، فالمجنى عليه في الجريمة هو الجماعة، والشريعة تعاقب مرتكبها باعتبارها معتدياً علي حرمة الأموات أو حرمة المقابر^(٨).

(١) ابن عبد البر القرطبي: الاستنكار، مج ٨، ص ٣٤٤.

(٢) أبي الحسن الماوردي: الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي رضى الله عنه، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد عوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، تقديم محمد بكر إسماعيل وعبد الفتاح أبو سنة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١٣، ص ٣١٣.

(٣) ابن قدامة: المغنى، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي عبد الفتاح محمد الحلو، ط ٣، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٧م، ج ١٢، ص ٤٥٥.

(٤) الماوردي: الحاوي الكبير، ج ١٣، ص ٣١٣.

(٥) البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر، ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ج ٨، ص ٤٦٨.

(٦) سورة المائدة، الآية رقم ٣٨.

(٧) أبي الحسن الماوردي: الحاوي الكبير، ج ١٣، ص ٣١٣؛ ابن قدامة: المغنى، ج ١٢، ص ٤٥٦.

(٨) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعي، دار الكاتب العربي، بيروت، (د.ت)، ج ١، ص ٣٩٩.

وعليه، فإن التحريم هو الأصل في نبش قبور المسلمين، ولا يُعدل عن هذا الأصل إلا في حالات معينة بيّنها الفقهاء، منها جواز نبش قبر الميت الذي دفن بغير غسل أو بغير صلاة ما لم يتغير، إذا كان في نبشه مصلحة تتعلق به من زيادة البركة له، فإن خشى عليه التغير فلا؛ لما في ذلك من انتهاك لحرمة^(١).

ومن هذه الحالات أن تكون الأرض التي دُفن فيها الميت مغسوبة^(٢)، فإذا دفن ميت ميت في أرض مغسوبة فيستحب لصاحب الأرض ترك هذا الميت في قبره حتى يبلى ويصبح تراباً^(٣)، ويكره نبشه حينئذ^(٤)، فإن لم يقبل صاحب الأرض بقاء الميت في قبره وأراد إخراجه منه فله نبش القبر وإخراج الميت منه باتفاق المذاهب الأربعة^(٥).

أضف إلي هذا، أن يكون قد سقط مع المتوفى مال أثناء دفنه، فيجوز في هذه الحالة نبش قبره لاستخراج المال؛ إذ تتوفر علي إشارة تخص أحد الأشخاص كان يعمل ناظراً علي المارستان بفاس، ويتولى تجهيز الموتى بيده وقد جيء إليه ذات يوم بميت غريب، فلما أراد غسله، وجد معه بضعة دراهم، فوضعها في الأرض ليذهب بها إلي بيت المال، فلما كفنه، اندرجت معه في الكفن؛ فنسيها، فلما وضع عليه التراب، تذكرها. فنبش عليه؛ لإخراجها فوجد الدراهم مسمرة في بدنه، من رأسه إلي قدمه، فرد عليه التراب، وقال: لعله من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله^(٦).

(١) محمد بن إدريس الشافعي: الأم، تحقيق وتخريج رفعت فوزي عبد المطلب، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر، ٢٠٠١م، ج٢، ص٦١٢؛ ابن رشد القرطبي: المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٣٣؛ أبي الحسن الماوردي: الحاوي الكبير، ج٣، ص٦٢.

(٢) الموسوعة الفقهية، ج٣٩، ص٤١٧.

(٣) ابن قدامة: المغني، ج٣، ص٥٠١؛ أبي زكريا النووي: كتاب المجموع، ج٥، ص٢٦٨.

(٤) ابن مفلح المقدسي: كتاب الفروع، ج٣، ص٣٨٧-٣٨٨.

(٥) أبي الحسن الماوردي: الحاوي الكبير، ج٣، ص٢٧؛ ابن قدامة: المغني، ج٣، ص٥٠١؛ ابن الهمام الحنفي: فتح فتح القدير، ج٢، ص١٤٩؛ ابن عبد الكريم الراعي القزويني: العزيز، شرح الوجيز المعروف بالشرح الكبير، تحقيق وتعليق علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٢، ص٤٥٥.

(٦) ابن إدريس الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، (د.ت)، ج٣، ص١٩٥.

وبالمثل فإن كتب الحسبة قد استطردت في الحديث عن حرمة نقل الموتى بنبش قبورهم دون مسوغ شرعي، فنصت علي أن لوالى الحسبة أن يمنع من نقل الموتى من قبورهم إذا دفنوا في ملك أو مباح إلا في أرض مغصوبة، فيكون لمالكها حينئذ الحرية في أن يأمر من دفنه فيها بنقله منها^(١).

أما قبور الكفار، فيجوز نبشها وتخريبها إذا كان للمسلمين مصلحة في ذلك باتفاق المذاهب الفقهية، واعتمدوا في هذا الرأي علي حديث بناء مسجد النبي عليه الصلاة والسلام؛ إذ كان بموضعه قبوراً للمشركين فأمر بنبشها وجعلها مسجداً^(٢)، بل إن بعض الفقهاء يرون بأن نبش قبور الكفار المشركين لا يشترط أن يكون لغرض فيه مصلحة أو حاجة لدى المسلمين؛ لأن المشرك لا حرمة له حياً وميتاً^(٣). أما أهل النمة من اليهود والنصارى فلا "يجوز نبش قبورهم لاتخاذ مسجد ولا غيره"^(٤).

ورغم أن الإسلام في تشريعاته - كما بينا - لم يدعُ إلي نبش قبور المسلمين أو المساس بها، كما نهى عن العبث بالجثث والتمثيل بها، إلا أن المسلمين قد مارسوا ذلك الفعل الشنيع المنكر في فترات متفرقة من تاريخهم؛ حيث تطالعنا دراسة النصوص المصدرية علي معطيات كثيرة تؤكد في وضوح أن المسلمين قد مارسوا نبش القبور وتدميرها في أوقات الصراع السياسي علي السلطة، وكذا في أوقات توهج الخلافات المذهبية بين طوائفهم المختلفة.

ثالثاً: ظاهرة نبش القبور في صدر الإسلام:

تعود أول إشارة إلي ظاهرة نبش القبور في تاريخ الإسلام إلي العهد النبوي، حيث ذكرت بعض المصادر أن قريش أثناء حربها مع النبي صلي الله عليه وسلم حاولت نبش قبر أمه أمنة بنت وهب، وذلك حين خرج جيش قريش لملاقاة جيش المسلمين في غزوة أحد،

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٣٧٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتب أبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، دار السلام، الرياض، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٦٧٩.

(٣) ابن بطال: شرح صحيح البخاري، تعليق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط ٢، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٣م، ج ٢، ص ٨١.

(٤) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

وكانت قريش قد نزلت حينئذ بمنطقة تعرف باسم "الأبواء"^(١)، فطلبت هند بنت عتبة^(٢) من زوجها أبي سفيان بن حرب ومن معه نبش قبر أم النبي "قاسنتشار أبو سفيان أهل الرأي من قريش في ذلك فقالوا: لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا"^(٣).

وفي عهد الخلافة الراشدة، وتحديداً في أحداث الصراع السياسي بين المسلمين علي الخلافة، أو ما يعرف بالفتنة الكبرى التي حدثت وقائعها في عهد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وانتهت بمقتله، لم يكتف الناثرون عليه بقتله وطرح جثته علي الأرض لثلاثة أيام دون دفن، أو حتى التمثيل بجثته ورمي نعشه بالأحجار زيادة في التنكيل به، بل إنهم زادوا الأمر سوءاً فلم يسمحوا له أن يدفن في جنازة تليق به وبمقامة الجليل، فلم يسمحوا بجنازته ولا بدفنه مع بقية الصحابة والخلفاء، فدفنت جثته ليلاً بمقبرة (حش كوكب)، وهي مقبرة مجاورة لمقابر اليهود خوفاً من ترصد الناثرين لجنازته^(٤).

وعلي هذا النحو، ظل مكان دفن عثمان - رضي الله عنه - مجهولاً بين النخيل إلا من بعض الصحابة خشية أن يُنبش قبره ويعبث به، ففي أثناء دفنه حاولت إحدى بناته الصراخ والبكاء عليه، فنهروها الصحابة؛ وقالوا لها: "إننا نخاف عليه من هؤلاء الغوغاء أن ينيشوه"^(٥).

(١) الأبواء: قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وبمدينة الأبواء يوجد قبر أمنة بنت وهب أم النبي صلي الله عليه وسلم. الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج ١، ص ٧٩.

(٢) كانت هند بنت عتبة أول من مثل بأصحاب النبي صلي الله عليه وسلم، وأمرت نساء قريش بارتكاب هذا الفعل الشنيع، مثل جذع الأثوف والأذان. الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونسون، طبعة عالم الكتب، (د.ت)، ج ١، ص ٢٧٤.

(٣) الواقدي: كتاب المغازي، ج ١، ص ٢٠٦.

(٤) دفن سرّاً في مكان يدعي "حش كوكب"، وهو مكان كان اليهود يدفنون فيه موتاهم. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، ط ١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٦٥؛ الطبري: تاريخ الطبري المسمى تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ج ٤، ص ٤١٢؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج ٥، ص ٥٨؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، مج ٣، ص ٦٩-٧٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١م، ج ٧، ص ١٩٠-١٩١؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط ١، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ١٣٠.

(٥) الطبري: تاريخ الطبري المسمى تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤١٣.

وعرف العصر الأموي هو الآخر ظاهرة نبش القبور وتخريبها، ومن الأمثلة علي ذلك ما فعله معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية عندما أمر واليه علي المدينة بنش قبور الصحابة من شهداء معركة أحد، وكان عذره في ذلك هو حاجته إلي إنشاء عين ماء بتلك الناحية، فأمر معاوية عامله علي المدينة بنشها، فأخرجوهم رطاباً يبتثون، يحملون علي أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، فإذا أصابت المسحاة^(١) أصعب رجل منهم انفطرت دماً^(٢). ولعل من سخرية الأقدار أن قبر معاوية بن أبي سفيان هو أول قبر سيتعرض للنش والتخريب بمجرد صعود الدولة العباسية واستيلائها علي حاضرة الأمويين دمشق. ونتوفر علي إشارة أخرى تعود إلي عهد الأمويين، نستشف منها مدي الانشقاق الذي كانت تعاني منه الدولة الأموية في أواخر عمرها، والذي أضر بها ضرراً بليغاً، هذه الإشارة تتعلق بمروان بن محمد^(٣) آخر خلفاء الدولة الأموية، الذي قيل عنه: "إنه نبش علي يزيد بن الوليد وأخرجه من قبره وصلبه"^(٤).

وشهد العصر العباسي ظاهرة نبش القبور وتخريبها علي نطاق واسع، فصار من الصعب أن تسكت عنها المصادر، فقد بالغ العباسيون في التنكيل بخصومهم الأمويين بعدما اسقطوا دولتهم وعولوا علي استئصال شأفتهم^(٥)، ولم تقف روح الانتقام الذي أضمره العباسيون

(١) المسحاة: مجرفة من الحديد. ابن منظور: لسان العرب، مادة مسح، ج٤٦، ص٤١٩٩.

(٢) ابن المبارك: كتاب الجهاد، تحقيق وتعليق نزيه حماد، دار المطبوعات الحديثة، جدة، (د.ت)، ج١، ص١١٢؛ للمزيد انظر الواقدي: كتاب المغازي، ج١، ص٢٦٧-٢٦٨؛ ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مكتبة

الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م، ج٣، ص١٠؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٣، ص١٨٣.

(٣) بوبع بالخلافة في دمشق سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م بعد خلعه إبراهيم بن يزيد، ولم يكتف مروان بخلعه بل قتله وصلبه، وكانت نهاية مروان بن محمد مأساوية عندما قتل سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م علي أيدي جنود العباسيين بمصر، وزالت بنهائنه دولة بني أمية. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ٢٠٠٥م، ج٣، ص١٩٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٦١، ٦٣؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٠٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج١، ص٥٩.

(٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ج٣١، ص٦٣.

العباسيون لبني أمية عند حد نهاية دولتهم أو حتى قتل الأحياء منهم وصلبهم ومصادرة أموالهم^(١)، بل وصل الأمر بهم في عهد أبي العباس السفاح^(٢) إلي حد التمثيل بموتاهم ونبش قبورهم^(٣).

نذكر من ذلك ما تعرض له أهل مدينة دمشق من تسلط العباسيين بهم سواء كانوا أحياء أو أمواتاً؛ حيث تشير المصادر أن "عبد الله بن علي"^(٤) أمر عند دخوله دمشق بوضع السيف في رقاب أهلها، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات، فقتل منهم نحواً من خمسين ألفاً^(٥). كذلك لم يسلم الأمويون الأموات من بطش العباسيين، الذين صبوا عليهم جام غضبهم وتفننوا في التكيل بهم، عندما قام قائد جيوشهم "عبد الله بن علي" بنبش قبور بني أمية وإحراق عظامهم بالنار^(٦)، فتسلط علي قبر معاوية بن أبي سفيان بالنبش والتخريب، فلم يجد فيه إلا خيطاً مثل الهباء، ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كالرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة، وكان يوجد في القبر العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً، لم يبيل منه غير أرنبه أنفه، فضربه بالسياط وهو ميت

(١) ابن خياط: تاريخ خليفة ابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر، الرياض، ط٢، ١٩٨٥م، ص ٤٠٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، مج٥، ص ٧٨.

(٢) أول من جلس علي عرش الخلافة العباسية، بويع بمدينة الكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م، واستقرت يده علي أرض العراق وخراسان والحجاز وبلاد الشام ومصر عدا بلاد الأندلس التي استقل بها عبد الرحمن الداخل، قضى معظم عهده في محاربة الأمويين والقضاء عليهم، وتوفي أبو العباس السفاح سنة ١٣٦هـ / ٧٥٤م، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٥٢.

(٣) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ط٢، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩م، ج ١، ص ٢٦٠.

(٤) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عم السفاح والمنصور، افتتح مدينة دمشق حاضرة الأمويين سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، ج ٣١، ص ٥٤.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، ط ١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ج ٦، ص ٥٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٤، ٤٥.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٥.

ثم صلبه أياماً ثم أحرقه ودق رماده ثم نزهه في الريح^(١). فلما رأى بنو أمية ذلك اشتد خوفهم ونشئت شملهم، واختفى من قدر منهم علي الاختفاء^(٢)، ولم يفلت منهم إلا من كان رضيعاً أو هرب إلى الأندلس^(٣).

لم يتوقف نبش القبور في العهد العباسي عند حد الصراع السياسي مع الأمويين، بل تعداه ليشمل الخلاف المذهبي مع العلويين، عندما أساء الخليفة العباسي "المتوكل علي الله" إلي نفسه بسياسته العنيفة التي انتهجها في معاملته ضد العلويين الشيعة، فبلغ بهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بني العباس من قبله، عندما أمر جنوده سنة ٣٣٦هـ/٨٥٠م بنبش قبر الحسين بن علي رضي الله عنه في كربلاء وما حوله من الدور، وأن يحرق بالحيوانات ويذر، ويسقي موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه^(٤). وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة أهل بغداد الذين ردوا علي الإهانات التي ألحقها بالعلويين بسبه في المساجد والطرقات؛ حيث تألم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه علي الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراء^(٥).

رابعاً: ظاهرة نبش القبور في الغرب الإسلامي:

لا يوجد في تاريخ الغرب الإسلامي بعدوتيه ظاهرة أكثر غموضاً وإبهاماً من ظاهرة التسلط علي القبور بالنبش والتخريب والتدنيس، ولا عجب في ذلك، فالمؤرخون اعتبروا مثل هذه الأفعال الشنيعة مروفاً وخروجاً علي الدين، وبالتالي لم يوردوا أخبارها إلا بحبيطة وحذر كبيرين، ومن ثم لم يخصصوا لها سوي إشارات خجولة في مؤلفاتهم. والأغرب من ذلك، أن هذه الظاهرة كانت أقل الظواهر تعرضاً لتحامل المؤرخين علي من قاموا بارتكابها، فلم يستنزلوا عليهم اللعنات أو حتى كالوا لهم كل أصناف الشتائم والنعوت الذميمة، واكتفوا فقط

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج ٥، ص ٧٨؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة إبراهيم مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ج ٢٢، ص ٥٠؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ١، ص ٢٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج ٥، ص ٧٨.

(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، ص ٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٥.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦٣م، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٥.

بذكر هذه الممارسات في فقرات هزيلة تميزت بالاختزال الشديد المقتصر علي خبر النباش وحده، دون الخوض في تفاصيله وجزئياته، في حين أُسْدِل ستاراً من الصمت علي وقائع هذه الأحداث المؤلمة في بعدها التاريخي، وهو أمر طبيعي؛ إذا وضعنا في الاعتبار أن السلطة هي من قامت بارتكاب هذه الأفعال المحرمة، وموقع المؤرخ الرسمي من السلطة، وموقفه من صراع الحاكم والمحكوم.

■ الأسباب المؤدية إلي نبش القبور:

تطالعنا مصادر الغرب الإسلامي علي معطيات كثيرة تؤكد علي ممارسة المسلمين لظاهرة نبش القبور وتخريبها، رغم أن الشريعة الإسلامية والسنة النبوية وكذا أقوال الفقهاء والأئمة - علي اختلاف مذاهبهم - قد اتفقوا علي عدم جواز نبش قبور المسلمين أو المساس بها إلا بمسوغ شرعي، فإن هذا القاعدة الفقهية المجمع عليها لم تصمد أمام المطاحنات والحروب الدموية للحكام علي السلطة، إمعاناً منهم في إذلال الخصوم والمعارضين، فلم يدخروا جهداً في تنحيها جانباً من خلال صياغة مسوغ شرعي آخر من بنات أفكارهم، وبمباركة فقهاءهم، ينطوي علي استباحة تكفير الخصوم والمناوئين؛ إذ كان الصراع السياسي والخلاف المذهبي كفيلاً بأن يدرج كل فريق خصمه وعدوه في عداد الكافرين^(١)، وعندها يجوز استباحة دمائهم وانتهاك حرمة قبورهم. فتأويل النص المقدس وتوظيفه وتطويعه جرى خدمة المشروع السياسي للفرق والمذاهب^(٢).

وبذلك اتخذت القوي السياسية في الغرب الإسلامي من هذا المنظور مرجعية فقهية ومسوغاً شرعياً للتعامل مع الخصوم والمناوئين معاملة الكفار، الذين يجوز جهادهم وإزهاق أرواحهم، وانتهاك واستباحة حرمة قبورهم بعد رحيلهم عن الدنيا، ولعب فقهاء السلطة دوراً هاماً

(١) نبه اخوان الصفا إلي التعصب المذهبي الذي حدا بالفرق الإسلامية إلي أن "يكره بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويرى كل واحد منهم حل أخذ مال مخالفه، ويشهد عليهم بالكفر والزندقة والخلود في النار": رسائل اخوان الصفا، القاهرة، ١٩٢٨م، ج٣، ص٥٣٧؛ للمزيد انظر ابن عساكر: تبين كذب المفترى فيما نسب إلي الإمام أبي الحسن الأشعري، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٣٠هـ، ص٤٠٥-٤٠٧.

(٢) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، طور الازدهار، سينا للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٠.

في الترويج لهذا المنظور السياسي، وهو ما عبر عنه ابن حيان^(١) حين قال: "الأمرء القاسطون قد نكبوا .. عن نهج الطريق .. والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صروف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، قد أصبحوا بين أكل من حلوائهم خائض في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم".

وهكذا، اعتمد الفقهاء والسياسيون علي هذا المسوغ، فاعتبروا كل من يخالف مذهبهم وناوأ حكمهم كافراً يجوز قتله واستحلال حرمة، ومن ثم شكل الصراع السياسي علي السلطة بين هذه القوي المتصارعة أحد الأسباب الرئيسية في بروز ظاهرة نبش القبور في الغرب الإسلامي، ولأن السياسة في رأي أحد الباحثين^(٢) لعبة خطيرة لا تستقيم لصاحبها علي الدوام، فإن تاريخ الفترة محل الدراسة مليء بالرجال الذين تم التكتيل بهم لمعارضتهم للحاكم أو ثورتهم عليه، أو تدبيرهم الخطط للإطاحة به، وكثير من هؤلاء الذين نكل بهم كانوا إما وزراء أو قضاة أو متصوفة. فالتاريخ ليس أكثر من صورة للجرائم والمحن^(٣)، أو حيل ومكائد يدبرها الأحياء للأموات^(٤).

وانطلاقاً من المسوغ ذاته، فإن أغلب الذين امتحنوا في علاقتهم بالسلطة قد تعرضوا لأكثر من وسيلة من وسائل التكتيل والإذلال المعروفة آنذاك، كحز الرؤوس وتعليقها^(٥)،

(١) نقلا عن ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م، ق٣، مج١، ص١٨٠-١٨١.

(٢) بسيم عبد العظيم: شعر الأسر والسجن في الأندلس، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٣.

(٣) خضر محمد: الاعتزاز والتطرف نحو العنف: دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٣.

(٤) بدوي عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج٢، ط١، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤م، ص٢٠٧.

(٥) تفوق إشارات المصادر المتعلقة بتلك المظاهر عن الحصر ينظر علي سبيل المثال ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج٢، ص٦٦٨؛ نفسه، ق٢، مج١، ص٢٦-٢٧؛ ابن الأبار: الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ج١، ص٢٤، ٢٧٠؛ نفسه، ج٢، ص١٩٤، ١٩٥، ٢٤٦؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، ج١، ص٢١٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٣، ط٣، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وإليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٢٣٥؛ ابن أبي زرع: الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٩٤؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، ط٢، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٣م، مج١، ص٤٥٧.

والصلب لكامل الجسد^(١)، والطواف بالأجساد والجثث^(٢) والذبح^(٣) والسلخ^(٤)، وبتتر الأعضاء^(٥)، وجز شعر الرأس وحلق اللحية^(٦)، وإحراق الجسد بالنار^(٧)، والتسلط علي القبور

- (١) ابن الأبار: الحلة السبيرة، ج٢، ص١٧٧؛ ابن سعيد: المغرب، ج١، ص٢٩٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، تحقيق إحسان عباس، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٧٥-٧٤؛ نفسه، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تارويت وآخرون، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص٥١؛ ابن أبي زرع: الأئيس المطرب، ص١٩٤، ١٩٥؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٤٠.
- (٢) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج١، ص٤٥؛ نفسه، ق٣، مج١، ص٥٢٦-٥٢٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٧٣-٧٤؛ قسم الموحدين، ص٤١٤؛ ابن أبي زرع: الأئيس المطرب، ص٢٦٠-٢٦١، ٢٩٤، ٣٠٧، ٣٧٣؛ نفسه، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢م، ص١١٧؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٨٦-٤٨٧؛ نفسه، ج٣، ص٥١٧؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، تقديم عبادة كحيلة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٥٤-١٥٥؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٧٥؛ الوشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٩٨١م، ج١، ص٢٢.
- (٣) للمزيد انظر القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج٧، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٢م، ص١١١؛ ابن الأبار: الحلة السبيرة، ج٢، ص١٠٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص١٩٥؛ التجاني: رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨١م، ص١٣٨-١٣٩.
- (٤) كان ابن مردنيش عندما اشتهت عليه الأمور في الأندلس، يعذب علي الأموال، ويرتكب في شأن تحصيلها القبائح، فيسلخ الوجوه، وينفخ في الأبار. ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص٢٥١.
- (٥) ابن بسام: الذخيرة، ق١، مج١، ص٤٦؛ ابن الأبار: الحلة السبيرة، ج٢، ص١١٥، ٢٠٧؛ ابن عذاري: البيان، قسم الموحدين، ص٣٤٧-٣٤٨؛ التجاني: رحلة التجاني، ص٢١؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢، ص٢٥.
- (٦) ابن بسام: الذخيرة، ق٤، مج١، ص١٢٤؛ ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج١، ص١٥٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص٧٦؛ قسم الموحدين، ص٥٨؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٥٦؛ Vincent Lagardere: Histoire et Societe en Occident Musulman Au Moyen Age, Madrid, 1995, P.53.
- (٧) ابن أبي زرع: الأئيس المطرب، ص١١٣، ١٩٠، ١٩١؛ ابن أبي زرع: الذخيرة السنوية، ص٣٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بوبع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال، ط٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م، ق٢، ص٢٦٣، ٢٣٩؛ ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٨م، ص٢٠.

القبور بنبشها وإحراق ما بها^(١) إمعانا في التشفى والانتقام من الخصوم، وغير ذلك من مظاهر المثلة والتشهير التي ارتكبت بحق المعارضين والمناوئين بهدف إدخال الرعب في نفوسهم وإثارة الخوف والهلع لديهم، وإبراز قوة السلطة التي اتسمت آنذاك بطابع الاستبداد^(٢)؛ حيث كانت القسوة سمة الفترة وطابع العصر الوسيط في الغرب الإسلامي.

أما العامل الثانى في بروز ظاهرة نبش القبور، فهو الصراع الدائر بين أصحاب المذاهب الفقهية المختلفة سواء في المغرب أو الأندلس، عندما اتخذت القوي السياسية وكذلك الفرق الإسلامية المختلفة من الخلافات المذهبية ذريعة لیتهم بعضهم بعضاً بالزندقة والكفر، مما يسبغ استحلال القتل وارتكاب المحرمات، فالدولة العامرية مثلاً، أشعلت حرباً لا هوادة فيها علي الفكر المستنير، فطاردت الفلاسفة وبعض الشعراء، وضيق الخناق علي الفكر العقلاني^(٣)، لأن الكتب الفلسفية والكلامية تُعد من الكتب المذمومة بالأندلس، وتؤدي بصاحبها إلي التنكيل والقتل. فكل العلوم عند الأندلسيين ذات حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، اللذين يلصقان بصاحبهما لقب زنديق، فيلاحق ويقتل وتحرق كتبه ومصنفاته؛ حيث يقول المقري: "وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لها حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم، أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان؛ تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت"^(٤).

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٣؛ ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢؛ ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص ٦٢-٦٣؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م، ج ١، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) بدوي عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٣) أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨م، ص ٢٠٧.

(٤) المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، مج ١، ص ٢٢١.

ولما كان المذهب المالكي هو المذهب المعترف به رسمياً في الأندلس، فإن الفقهاء المالكيين كانوا يقومون باضطهاد كل من يتبع مذهباً فقهياً يخالف مذهبهم، بل ربما اتهموه بالزندقة، فهم "لا يعرفون إلا كتاب الله، وموطأ مالك فإن ظهوروا علي حنفي أو شافعي نفوه، وإن عثروا علي معتزلي أو شيعي أو نحوهما ربما قتلوه"^(١).

وفي بلاد المغرب، لم يسلم الفاطميون الشيعة من هذا المسوغ، حيث أدرجهم أهل السنة ضمن الأعداء الكافرين، فخصصوا مؤلفات لـ "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والكيد"^(٢)، وهناك من أفتى بأن "جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الكفر"^(٣)، وهناك من صنفهم في إحدى مقاماته علي أنهم "الكفرة المارقون .. أبان فيها كفرهم وزندقتهم"^(٤)، بل وصل الأمر إلي حد نعتهم بـ "الإلحاد المارقين عن الدين إخوان الشياطين"^(٥)، الذين يستحل "انتهاك حرمتهم واستحلال محارمهم"^(٦).

وعلي كل حال، لقيت هذه الفتاوي الفقهية ترحيباً واسعاً من جانب القوي السياسية، مادامت تضفي مشروعية مطلوبة علي أفعالهم الشنيعة تجاه خصومهم ومناوئهم، ففي القيروان وخلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وبسبب الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة، تعرض أبو إسحاق بن البرزون، وأبو بكر بن هذيل للضرب والتكيل والقتل، ثم ربطت أجسامهما بالحبال، وجرتهما البغال مكشوفين، ثم صلبا نحو ثلاثة أيام ثم أنزلا ودفنا^(٧). وفي إفريقية، ومع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، قتل الشيعة

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢٣٦.

(٢) ابن غليون: التتكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، تحقيق الطاهر أحمد، طرابلس، ١٩٦٧م، ص٢٥.

(٣) عياض: ترتيب المدارك، ج٤، ص٣٧٦.

(٤) المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية، ج٢، تحقيق بشير البكوش، مراجعة محمد العروسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص٧٥.

(٥) ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ص١٨٠.

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٧) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج٥، تحقيق محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، (د.ت)، ص١١٨-١١٩.

الشيعة حيث وجدوا وأحرقوا بالنار^(١). وقد تطور الأمر إلي ما هو أكثر من ذلك كما سنري لاحقاً.

وكانت تهمة الزندقة إذا لحقت بالمرء عرضت دينه للقدح، وعندئذ لا يسلم من البطش والملاحقة، فالفهاء المالكية لم يتورعوا عن إصاق تهمة الزندقة والكفر بالمرء عند أدنى بادرة منه للتفكير الحر، ومن الذين رموا بالزندقة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب، الذي كان هدفاً للمكائد والوشايات والتهم بالطعن في العقيدة، وانتهى الحال بنكبته بعد أن قبض عليه بفاس التي التجأ إليها، بعد أن حُكم عليه في غرناطة بتهمة الزندقة، فقتل بسجنه علي يد خصومه، الذين لم يتورعوا عن نبش قبره وإحراق جثته بالنار^(٢).

نخلص من خلال هذا العرض إلي القول بأن قوي الغرب الإسلامي السياسية اعتبرت أعداءها ومناوئياً كفاراً، يجوز إذلالهم والتتكيل بهم، واستباحة قبورهم والتسلط عليها بالنبش والتخريب حتى بعد مغادرة الحياة، ومن خلال هذه الدراسة سنحاول أن نميط اللثام عن كثير من الحقائق التي كانت - ولا تزال - غامضة في هذا الشأن.

(١) مظاهر نبش القبور في الغرب الإسلامي:

كان من الطبيعي أن يعرف مجتمع الغرب الإسلامي كمثلته في المشرق الإسلامي ظاهرة نبش القبور وتخريبها عبر تاريخه الطويل، وهذه الظاهرة علي وجه الخصوص جديرة بالبحث والدراسة، لتشعب مناحيها وشمولها علي مجالات جغرافية متعددة، وانضوائها تحت كيانات سياسية ومذهبية مختلفة، فضلاً عن الطابع العسكري الذي غلف تاريخ الغرب الإسلامي بغلاف دموي. لذلك سوف نعمل خلال هذه الدراسة علي إبراز حوادث نبش القبور في مجتمع الغرب الإسلامي من خلال استحضار مجالي المغرب والأندلس، مع مراعاة الترتيب التاريخي والزمني للعصور المختلفة.

(١) التجاني: رحلة التجاني، ص٢٦٥؛ الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلي القرن ١٢م، نقله إلي العربية حماد الساحلي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ص١٨١.

(٢) ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، ص٦٢-٦٣؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص٢٣٠-٢٣١.

ففي بلاد المغرب، وخلال العهد الفاطمي، الذي شهد احتدام الصراع المذهبي بشكل كبير بين المعز لدين الله^(١) الشيعي وبين أهل السنة بالقيروان، حيث لم تلق سياسته - رغم مقدرته في المداراة والمداهنة - قبولاً لدى أهل السنة ومشيخة القيروان الذين ظلوا علي عدائهم للفاطميين الشيعة، يحثون الناس علي بغضهم والكفر بمذهبهم وعدم الرضوخ لهم، ولم يرهيبهم ما تعرضوا له من بطش وأذى علي أيدي الفاطميين الشيعة^(٢).

وبلغ من عداة المعز لأهل السنة أن أمر بنبش قبر عقبة بن نافع^(٣) وإحراق بقاياها بالنار، وبعث لأداء هذا الفعل الشنيع خمسمائة من الشيعة ما بين فارس وراجل، توجهوا

(١) المعز لدين الله: هو أبو تميم مُعد بن إسماعيل المنصور أبي الطاهر بن القائم أبي القاسم محمد ابن عبيد الله المهدي، ولد بالمهدية في ١١ رمضان سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م، ولي أمر الدولة الفاطمية بعد وفاة أبيه سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م وكان عمره وقتها ٢٤ عاماً. كان يتطلع إلي غزو الديار المصرية منذ اليوم الأول لخلافته، فكان له ما أراد علي يد قائد جيوشه جوهر الصقلي بكل سهولة ويسر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، توفي بالقاهرة المنسوبة إليه في ربيع الأول سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م، بعد أن دامت ولايته ٢٣ سنة. ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، دراسة وتحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٤٠١هـ، ص ٨٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ٢٢١، ٢٢٨؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ق ٣، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤م، ص ٤٨-٤٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج ١، ص ٥٩٩.

(٢) يدل علي شدة مقاومة البربر للفاطميين ورفضهم لهم كتاب ورد إلي المعز من صافي الاكريكي عامله علي قصر الأفریقی يذكر له فيه تناصر البربر عليه وتخريبهم لمنطقته، وأنه خائف علي نفسه من الهلاك. جودر: سيرة الأستاذ جودر، ص ٩٣.

(٣) عقبة بن نافع: كان من خيار الولاة، قدر له اكتساح بلاد المغرب حتى أقصاه، ولد في أوائل الهجرة النبوية، وتولي إمارة جيش إفريقية مرتين: الأولى من سنة (٥٠ - ٥٥هـ/٦٧٠ - ٦٧٤م)، والثانية من (٦٠ - ٦٤هـ/ ٦٨٠ - ٦٨٤م) وذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان وولده يزيد، اشتهرت ولايته الأولى بتأسيس مدينة القيروان كقاعدة عسكرية لجيوشه سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م، ومنذ تأسيس هذه المدينة اتخذت العمليات العسكرية في المغرب طابعاً ثابتاً مستقراً، إذ كانت هذه العمليات من قبل مجرد غارات تقوم بها القوات الإسلامية ثم تعود بعدها إلي برقة أو مصر دون أن يكون هناك أثر ملموس يدل علي معنى الفتح والاستقرار. أما ولاية عقبة الثانية فقد اشتهرت - بعد تأسيسه لمدينة القيروان كنقطة ارتكاز عسكرية - بحملته الكبرى التي وصل فيها إلي المحيط الأطلنطي في أقصى المغرب. ابن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٥٤ - ٦٠؛ البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت)، ص ٧٣ - ٧٤؛ ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ٢، ص ٣٢٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ٢٨، ٢٩، ٣٠.



جميعاً إلي قبر عقبة بن نافع بمنطقة تهودة^(١) لتنفيذ ما أمرهم به المعز. وكان سبب نبش قبر عقبة بن نافع أن المعز أراد تحريف قبلة مسجد القيروان سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م، وهي القبلة التي كان عقبة قد قام بتوجيهها وتعيينها حين بنى مسجد القيروان، فتذمر أهل القيروان من ذلك، وقالوا: إن الله عز وجل يمنع المعز من تحريفها بدعاء عقبة بن نافع الذي توجه إلي الله به وقت تأسيسه جامع القيروان، فلما دنوا من قبره وحاولوا نبشه كما أمرهم المعز "هبت ريح عاصفة ولاحت بروق خاطفة وقععت رعود قاصفة كادت تهلكهم، فانصرفوا ولم يعرضوا له"^(٢)، ويقال: إن هؤلاء الشيعة خافوا من العودة إلي المعز خشية أن ينكل بهم بعد إخفاقهم في مهمتهم، "قتاهاوا في صحاري إفريقية حتى سمعوا أنه هلك، فحينئذ أتوا إلي أوطانهم معتبرين مستبصرين"^(٣).

وفي نهاية عصر الخلافة الأموية في الأندلس، وتحديداً في عهد الخليفة الأموي هشام المؤيد بن الحكم^(٤)، يسرد لنا صاحب النخبة^(٥) الأسلوب المستعمل في قتل هذا الخليفة ونبش

(١) في أثناء عودة عقبة بن نافع من المغرب الأقصى بلغته فيما يبدو أخبار مقلقة جعلته يبعث بمعظم جيشه إلي القيروان ويستقي معه عدداً قليلاً من جنوده، فاغتم كسيلة زعيم البربر الفرصة كي ينتقم من عقبة الذي أساء معاملته، فهاجمه عند بلدة تهودة في أرض الزاب، حيث دارت معركة غير متكافئة من الناحية العددية استشهد فيها عقبة وأصحابه الذين بلغ عددهم زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة، ودفنوا هناك. ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٤٦-١٤٧؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج١، ص٣٩.

(٢) البكري: المسالك والممالك، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ط٢، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٢م، ج٢، ص٧٤٢-٧٤٣؛ نفسه، المغرب، ص٧٤.

(٣) مؤلف مراكشي مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ١٩٨٦م، ص١١٤.

(٤) هشام بن الحكم: ولد بقرطبة سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م، وكان والده الخليفة الحكم المستنصر يتطلع إلي أن يلي عهده بعد أن تقدمت به السنون، فنشأ هشام بكيفية أمراء بني أمية في جو قرطبة وضاحيتها الزهراء الحافلة بفنون المتعة والرفاهية، وتعلق به والده الحكم؛ لأنه لم يعيش له من الولد غيره، فاختر له أفضل المؤيدين من الذين كانت تزخر بهم قرطبة، وكان يبلغ من العمر عند موت أبيه الحكم الثانية عشرة، فبوع بالخلافة يوم الإثنين ٣ صفر ٣٦٦هـ/٩٧٦م، فحكم الأندلس محجوراً عليه تحت ظل العامريين. ابن حيان: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، ص٢٠٦؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص١٩٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٢٤٣؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٤٣، ٤٤.

(٥) ابن بسام: النخبة في محاسن أهل الجزيرة، مج١، ق١، ص٤١-٤٢.

قبره علي يد خصمه وعدوه علي بن حمود^(١)، الذي كان يبحث عنه أشد البحث بعد دخوله قصر الخلافة بقرطبة، فذكروا له أنه قتل وعندما "عرض عليه قبره، أمر علي بنبشه، فأخرج الشخص، وشهد أنه هشام .. وما كان في جسده شيء من أثر السلاح، فتوهم فيه الخنق، وأمر علي بتجهيزه إلي أهله، وأنذر طبقات الناس للصلاة عليه، فدفن لزيق أبيه الحكم".

في حين يري ابن الأثير أن الخليفة هشام المؤيد لم يُقتل، بل خُلع علي يد محمد بن هشام بن عبد الجبار^(٢) بعد أن حكم البلاد ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام^(٣)؛ حيث أخفاه ابن عبد الجبار عن أعين الناس لفترة من الوقت ليخلو له الطريق نحو الحكم، وتصادف أن مات في تلك الفترة نصراني، والبعض يقول يهودي، يشبه المؤيد إلي حد كبير، فأبرزه ابن عبد الجبار للناس، وذكر لهم أنه المؤيد هشام، فلم يشكوا في موته، وصلوا عليه ودفنوه في مقابر المسلمين، وكان ذلك في ٢٨ شعبان سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م^(٤).

ويتفق ابن عاصم مع ابن الأثير فيما ذهب إليه بشأن مصير الخليفة هشام المؤيد^(٥)، عندما قرر أن "الذي صلب كان غير جثمان الذي طلب، وذلك الرأس الذي طيف به علانية

(١) علي بن حمود: مؤسس الدولة الحمودية في الأندلس، بعد انقراض الخلافة القرطبية بها سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م، ومقتل سليمان بن الحكم الأموي، حيث بايعه الناس وتلقب بلقب المتوكل علي الله، وقتل علي يد غلمانه الصقلية في ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م، وكانت ولايته سنة وتسعة أشهر. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص ٩٧، ١٠٠؛ ابن الأبار: الحلة السيرة، ج٢، ص ٢٦؛ المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لن فتح الأندلس إلي آخر عصر الموحدين، تحقيق وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩ م، ص ٤٩-٥٠.

(٢) ابن عبد الجبار: كان شاباً مغامراً من شباب بني أمية الأندلسيين، قاد بعض شبان بني أمية لانتقال علي العامريين، فدبر مؤامرة لخلع عبد الرحمن شنجول من الإمارة بقرطبة، مستغلاً في ذلك خروجه من قرطبة لقتال النصراني، وبالفعل نجح ابن عبد الجبار في تنفيذ ما سعى إليه هو وأصحابه، عندما تمكنوا من اقتحام قصر قرطبة، وقتل صاحب المدينة عبد الله بن أبي عامر، فبايع محمد بن عبد الجبار لنفسه بالإمارة وبايعه أصحابه، واتخذ لنفسه لقب المهدي، وأرغم هشام المؤيد علي التنازل فتنازل له بعد أن مكث في منصب الخلافة ٣٣ سنة. كان ذلك في ١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٩ هـ / ١٠٠٩ م. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج٥، ص ٧٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٣ م، ص ٢٤٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج٧، ص ٣٧٠.

(٥) عاد الخليفة الأموي هشام المؤيد وتولى الخلافة ثانية في سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م. (ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص ٣، ١٠٠-١٠١)، ثم خُلع ثانية سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م. (نفسه والجزء، ص ١١٣)، وبعد ذلك غاب عن الناس خبره واختلف في أمر مصيره. ابن عذاري: البيان، ج٣، ص ١١٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ م، مج٥، ص ٢٢.

كان غير رأسه، ومن قال: إنه كان، فهو عندهم كاذب لا محالة، ويزعمون أن ذلك الذي قتل هو رجل كان يشبهه، فشبّه لهم به، وليس هو..^(١)، وسواء صحت رواية نبش قبر الخليفة الأموي هشام المؤيد، أو أن الذي تم نبش قبره شخصٌ آخر يشبهه، فإن أحداثها تومئ بشيوع هذا النوع من الجرائم في الأندلس.

وخلال عهد الدولة العامرية في الأندلس، لم نعثر علي إشارات تفيد بشيوع ظاهرة نبش القبور خلال هذا العصر، إلا أننا عثرنا في المقابل علي إشارة في غاية الأهمية عن قيام المنصور بن أبي عامر^(٢) بحماية قبر أحد القديسين النصارى من التخريب والنبش خلال غزوته علي ناحية شانتت ياقب^(٣) Santiago في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، التي تمثل أكثر الأماكن قدسية لدي النصارى؛ إذ كانت تلك الناحية مستقرًا لكنيسة شانتت ياقوب مركز أسبانيا النصرانية، ومزارها المقدس ورمز علاقتها الروحية، وكان لشانتت ياقب مكانة مميزة لدي الأسبان؛ إذ كانت منزلتها عندهم تأتي بعد القدس وروما^(٤).

(١) ابن عاصم: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق صلاح جرار، دار البشير للتوزيع والنشر، عمان، الأردن، ١٩٨٩م، مج ١، ص ١٨١.

(٢) المنصور بن أبي عامر: استورزه الخليفة الحكم المستنصر لولده هشام، فترقى أمره حتى بلغ ما بلغ من الجاه والسلطان، وصارت الدولة والعرش والقصر والخليفة الصبي وأم الخليفة، كل هؤلاء طوع يمينه. اتخذ لنفسه لقب الملك، وأصدر أوامره بأن يخاطب بالملك المنصور، فقام "بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة؛ فانظمت له الممالك". ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٦٥؛ المراكشي: المعجب، ص ٣٠. كانت حياته نشاطاً متواصلًا دام خمساً وعشرين سنة وأربعة وأربعين يوماً، قضاها كلها في جهاد النصارى المتأخمين لحدوده، ورغم اشتداد وطأة المرض عليه إلا أنه استمر في قيادة جنده طيلة أربعة عشر يوماً، حتى فاضت روحه بمدينة سالم في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م. ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٤، مج ١، ص ٧٣-٧٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٩٣؛ المراكشي: المعجب، ص ٣٨-٣٩؛ المقرئ: نفع الطيب، ج ١، ص ٤٠٠، ٤٠٢.

(٣) كنيسة عظيمة، تقع في ثغور ماردة، وهي مبنية علي جسد يعقوب الحواري، يذكرون أنه قتل في بيت المقدس، فوضعه تلامذته في مركب، فجرى به المركب في البحر الشامي، إلي أن خرج به إلي البحر المحيط، حتى انتهى به إلي موضع الكنيسة، فبنيت الكنيسة عليه وسميت باسمه، يقصدها الناس من بلاد الفرنجة وروما والقسطنطينة في يوم معروف جعل عيداً لها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٤٨.

(٤) الحميري: الروض المعطار، ص ٣٤٨؛ المقرئ: نفع الطيب، ج ١، ص ٤١٤-٤١٥؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الخلافة الأموية والدولة العامرية، ص ٥٥٩ - ٥٦١.

وقد احتلت كنيسة شانت ياغب تلك المكانة لوجود قبر بها يزعمون أنه قبر الحواري يعقوب أحد حوارى عيسى عليه السلام، والذي كان أسقفاً لبيت المقدس، وقد خرج من القدس ليبشر بدين المسيح، حتى وصل هذه البقعة، ولما مات بعد عودته إلي بلاد الشام حمل أصحابه جثته ودفنوها بهذه الكنيسة، وسميت الكنيسة باسمه سانت يعقوب؛ وتقديساً له حلف النصارى باسمه وكانوا يحجون إليه ويعتكفون عنده^(١).

حرص المنصور بن أبي عامر في هذه الغزوة علي الوصول إلي كنيسة شانت ياغب لتحطيم الأسطورة الحربية لشانت ياغب المزعوم، وطعن الأسباب في صميم زعامتهم الدينية. إذ كان المعتقد لدي النصارى الأسباب أن شانت ياغب يخرج للمحاربين علي هيئة ملاك بيده سيف ويمتطي فرسا أبيض ثم يأخذ في معاونتهم علي قتال المسلمين إلي أن يتحقق لهم النصر، لدرجة أنهم أطلقوا عليه Matamoros أي قاتل المسلمين^(٢). والمهم في هذه الرواية أن المنصور بن أبي عامر عندما اقتحم شانت ياغب بالقوة وضرب مبانيها وهدم كنيستها العظمي لم يتعرض لقبر القديس شانت ياغب بأية أذى، لأنه من الحواريين، بل أنه وكل به من يحفظه ويدفع الأذى عنه، باعتباره مكاناً له قدسيته عند النصارى^(٣)؛ وخوفاً من تخريب القبر أو نبشه، وهي واقعة تبين بجلاء مدي التسامح الديني السائد في الأندلس آنذاك.

وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣١-١٠٩١م)، وهو العهد الذي اتسم بالنفكك والانقسام السياسى، وتفاقم الصراع الداخلى بين ملوك هذه الدويلات، واستنصار بعضهم بقوى النصرانية علي بعضهم الآخر، ومحاولة كل منهما الاستيلاء علي إمارة جاره، لم يسلم الوزراء الذين خاضوا في الصراعات السياسية آنذاك من نبش قبورهم بعد رحيلهم، فقد تعرض وزير دولة المرية ومدبر سلطانها أحمد بن عباس للتكيد والإذلال والسجن وحز الرأس، والتسلط علي قبره بالنبش والتخريب بإيعاز من خصمه ملك غرناطة

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٦٧.

(٢) أحمد مختار العبادى: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص٢٣٢.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٦٧؛ المقري: نفع الطيب، ج١، ص٤١٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٣م، ص٣٣٢.

باديس بن حبوس^(١)، بسبب معارضته لبقاء الوزير اليهودي إسماعيل بن نغذله^(٢) علي رأس حكومة غرناطة.

ويرجع سبب تحامل ابن عباس علي باديس إلي أن ابن عباس عربي يكره البربر ويحتقر اليهود، فتحامل علي باديس وامتنع من سيده زهير لتحالفه مع ذلك البربري الذي استوزر يهودياً^(٣)، وكان ابن عباس هذا قد أرسل رسائله من قبل إلي حبوس بن ماكس والد باديس، وكذلك إلي رؤساء قبيلة صنهاجة التي ينتمي إليها حبوس يطلب منهما فيها إبعاد

(١) باديس بن حبوس: يكنى أبا مناد، ولي عرش غرناطة بعد موت أبيه، وتنازل شقيقه الأصغر بلقين له، وبمساعدة وزير أبيه إسماعيل بن نغذلة، حكم غرناطة وما حولها في الفترة من ٤٢٩-٤٦٧هـ/١٠٣٧-١٠٧٤م. للمزيد انظر الشنتريني: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٦٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٣٠؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٣٥.

(٢) إسماعيل بن يوسف بن نغذلة: ولد في قرطبة في ربيع سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م، حيث تلقى تعليمه التلمودي بها، درس النحو حتى أصبح متمكناً من الأدب العربي والعبري، وأصبح قادراً علي نظم الشعر بالعربية والعبرية، انتقل بعد ذلك للاستقرار في مالقة سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م، وكان يكتسب رزقه من بيع التوابل، وفي أحد الأيام طلبت منه جارية أن يكتب لها خطاباً ترفعه إلي أمير غرناطة حبوس بن ماكس، فكتب لها، وعندما وصل الخطاب إلي وزير حبوس أبي العباس بن العريف، أعجب بالأسلوب الذي كتب به الخطاب، وسأل عن كاتبه، وعرف أنه إسماعيل بن نغذلة اليهودي، فقابله الوزير أبي العباس، وعرض عليه أن يعمل معه في خدمة أمير غرناطة حبوس، فوافق إسماعيل ورحل معه إلي غرناطة، حيث عينه الوزير جانياً لأموال المملكة، فجنى إسماعيل أموالاً طائلة من هذه الوظيفة، وعندما توفي الوزير أبي العباس، استغل إسماعيل ذلك وظل يتقرب من أمير غرناطة حبوس، ويظهر بدهاء خبرته وقدرته، إلي أن أصدر حبوس أمراً بتعيين إسماعيل مستشاراً له ووزير أول لمملكته لعدم ثقته في العرب والبربر، وأصبح ابن نغذلة بذلك أول يهودي في الأندلس يتقلد منصب الوزارة، وتوفي سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م فحزن لموته يهود الأندلس ويهود الخارج. ابن بلقين: مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب النبيان، نشر وتحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٣٠-٣١؛ ابن عذاري: البيان، ج ٣، ص ٢٦٤-٢٦٥؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٣٨-٤٣٩؛ محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٣٩؛

Ashtor, Eliyhu: The Jews of Moslem Spain, Vol 1, 1979, P.391; Ashtor, : The Jews, Vol 2, P.52, 56-58; Gonzalo Maeso, David, : Garnata Al- Yahud (Garnada en la Historia de Judaismo Espanol), Universidad de Garnada, 1963, P. 75.

(٣) دوزي: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م ص ٢٨؛ محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ نشأتها حتى استيلاء المرابطين عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م، ص ١١١.

الوزير اليهودي ابن نغذله^(١) من حكومة غرناطة، مبيناً لهم مدى فداحة الجرم الذي يرتكبونه ببقاء هذا اليهودي في منصبه، مذكراً إياهم بأنه أصل الشر في المملكة^(٢). ورغم تلك المحاولات، لم يلقَ طلب وزير المرية ابن عباس أي استجابة من حبوس ولا رؤساء صنهاجة، بسبب ما كان لهذا اليهودي من خصال وصفات^(٣) جعلت حبوس وابنه باديس يتمسكون به رغم إهانتهم لدينهم، عندما "جاهر بالكلام في الطعن علي ملة الإسلام"^(٤)، بل تعدي الأمر ذلك، عندما صار البعض من المسلمين ينافقونه؛ خوفاً من سطوته "حتى كان يغسلُ يده من القُبل، ويُتمدح بالطعن علي الملل"^(٥)، كما أن دولتهم تعرضت لمقاطعة

(١) إشارت إليه المصادر الإسلامية باسمه العربي الذي عرف به بين المسلمين، إذ كان من عادة النصارى واليهود في الأندلس أن يحملوا اسماً عربياً إلي جانب اسمهم الذي يعرفون به بين أقرانهم. وظهر الاختلاف واضحاً بين المصادر الإسلامية في ضبط اسمه، فابن بسام ينعته بـ "إسماعيل بن النغريلي" (الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٧٦١). وصاعد الأندلسي = يذكره باسم "إسماعيل بن الغزال". (طبقات الأمم، نشر لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢م، ص ٩٠). وابن سعيد الأندلسي ذكره باسم "إسماعيل بن نغزله" (المغرب في حلي المغرب، ج ٢، ص ١١٤). وابن عذاري يقول "إسماعيل بن نغزلة". (البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٦١). ويشير إليه ابن الخطيب بـ "إسماعيل بن نغزلة" (أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٣٠). في حين يسميه المقري بـ "إسماعيل بن نغذلة" (فتح الطيب، مج ٤، ص ٤٢٢)، وهي التسمية الأقرب إلي الصواب؛ لأن اللقب الذي أطلقه إسماعيل علي نفسه هو "تاغيد"، ويعني بالعبرية الحاكم أو المدبر أو الأمير. ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٧٦٧؛ ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ج ٣، ص ٨ من مقمة المحقق.

ولقب "نغذلة" الذي أورده المقري استقر عليه كل من دوزي وأنخل بالنثيا. ملوك الطوائف، ص ٣٩؛ تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ١٥.

(٢) Ashtor, The Jews, Vol 2, P.70-71.

(٣) كان في "اليهودي من الكيس والمدارة للناس ما طابق الزمان الذي كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم، فاستعمله (حبوس) لذلك استيحاشاً من غيره .. ولأن هذا اليهودي نمي، لا تشره نفسه إلي ولاية". الأمير عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله، ص ٣١. ويصفه ابن الخطيب نقلاً عن ابن حيان بقوله "وكان هذا اللعين في ذاته، علي ما زوى الله عنه من هدايته، من أكمل الرجال علماً وحلماً وفهماً وذكاءً ودمائنةً وركانةً ودهاءً ومكراً .. ومعرفةً بزمانه، ومدارة لعنوه، واستسلاماً لحقودهم بحلمه". الإحاطة، ج ١، ص ٤٣٨. وأغلب الظن أن تلك الصفات هي التي ساعدت صاحبها علي أن يستحوذ علي عقل وإحساس كل من حبوس وباديس.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٧٦٦.

(٥) نفس المصدر السابق والصفحة.

حلفائها بسبب هذا اليهودي، وإزاء هذا التعتت قام الوزير أحمد بن عباس بإيغار صدر أميره علي باديس، وتمكن من الوقيعة بينهما، عندما اقنع أميره زهير بإلغاء الحلف الذي كان بين المرية وغرناطة، فألغي الحلف الذي كان في غاية الأهمية لغرناطة، الإمارة الصغيرة التي تتعرض لأطماع الإمارات المجاورة لها^(١). كما وجه وزير المرية ضربة أخرى لغرناطة، عندما أوعز إلي أميره زهير بعقد معاهدة صداقة مع صاحب قرمونة محمد بن عبد الله البرزالي الذي يعود بنسبه إلي قبيلة زناتة المنافسة لصنهاجة^(٢).

ولعل سبب تمسك الأمير باديس بابن النغدة اليهودي، هو الدور الكبير الذي قام به هذا الوزير من أجل تولية باديس عرش غرناطة بعد وفاة أبيه حبوس سنة ٤٠٨هـ/١٠٢٦م، حيث أسهم في إقناع حبوس قبل وفاته بأن يعهد لباديس من بعده، كما حث بلقين علي التنازل لأخيه، وأقنع من استطاع من زعماء صنهاجة بمناصرة باديس، ولذلك عندما مات حبوس، قام عدد من زعماء صنهاجة بمبايعة بلقين، لكنه رفض قبول البيعة، وأعلن أنه سيبايع لأخيه باديس حسب رغبة والده^(٣). وهكذا نجح الوزير اليهودي فيما سعي إليه، وصدق ظنه في باديس الذي قدر جهوده في خدمة والده حبوس، وفي العمل من أجل وصوله إلي عرش غرناطة، فقام بتكليفه بمنصب الوزير الأول لمملكة غرناطة^(٤).

لم يضعف هذا الأمر من عزيمة ابن عباس، الذي استمر في محاولاته المنكرة لإقناع باديس بالتخلي عن وزيره اليهودي، فبعث إليه برسالة يبين له فيها الإثم الكبير الذي يقترفه بتولية يهودي علي رقاب المسلمين، ويؤكد أن إبعاده سيؤدي إلي إحلال السلام بين مملكتي المرية وغرناطة، وأن بقاءه سيؤزم العلاقة بين غرناطة ومن حولها من الممالك المتحالفة، إلا أن باديس لم يستجب لطلب ابن عباس ورفض إبعاد الوزير اليهودي، وأرسل قاضي غرناطة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص ١٦٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص ٢١٦-٢١٧؛

Ashtor,; The Jews, Vol 2, P.71-72.

(٢) Ashtor,; The Jews, Vol 2, P.72.

(٣) ابن بلقين: مذكرات الأمير عبدالله، ص٣٤؛ نوزي: ملوك الطوائف، ص٢٨؛ Ashtor,; The Jews, Vol 2, P.72.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٦٤؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص٤٣٨؛ أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٣٠.

إلي زهير صاحب المرية ليقنعه بتجديد معاهدة التحالف بين إمارتيهما، لكن زهير رفض طلبه^(١).

وفي شوال من سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م حل زهير فجأة ودون سابق أنذار علي أرض مملكة غرناطة ومعه وزيره ابن عباس وفرقة من جيشه وعسكر علي مقرية من باب مدينة غرناطة، دون أي مراعاة للقواعد والمراسيم المعمول بها في الزيارات أو عند الالتقاء بين إمارات الطوائف^(٢)، وكان زهير يهدف من زيارته تلك إلي إهانة باديس وإخافته^(٣)؛ حيث "أقبل ضارباً سوطه حتى تجاوز الحد الذي جرت عادته بالوقوف عنده .. حتى وصل إلي باب غرناطة"^(٤).

كان من الطبيعي أن يستثير هذا التصرف المشين غضب وكراهية باديس، ولكنه رغم كل هذا، أخفى امتعاضه من هذا التصرف، واستقبل زهير بكل حفاوة وترحاب، ولم يظهر له شيئاً من غضبه. وفي غرناطة دارت بينهم عدة مفاوضات باعت بالفشل^(٥)؛ بسبب تشدد موقف زهير ووزيره ابن عباس؛ حيث كان المطلب الوحيد لهم، هو إزاحة الوزير اليهودي، الذي يرفض باديس أن يتخلى عنه^(٦)، ورغم ذلك لم ييأس باديس الذي أرسل أخاه بلقين رسولاً من قبله إلي ابن عباس لتصفية الخلافات القائمة بين الإماراتين، فلم يجد بلقين إلا التعتت والجحود من جانب ابن عباس، الذي رد علي بلقين عندما حاول أن يستعطفه باكياً ومعانقاً^(٧) "وفر عليك هذه المظاهر الكاذبة، والعبارات الفارغة، فإنها لا تترك أي أثر في

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٥٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩؛ Ashtor,; The Jews, Vol 2, P. 74.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩.

(٣) ابن بلقين: منكرات الأمير عبد الله، ص ٣٢-٣٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١٦؛ Ashtor,; The Jews, Vol 2, P. 75; Dubnov, Semon, Markovic,;History of The Jews from The Roman Empire To The Early Medieval Period, Vol.2, New York, 1973, P.625 .

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩.

(٥) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٥٧؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١٦-٢١٧.

(٦) Ashtor,; The Jews, Vol 2, P.75 .

(٧) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦١.

نفسى^(١). وعندما عاد بلقين إلي أخيه باديس أفضى إليه بكل ما دار بينه وبين ابن عباس، فأجمعوا علي محاربة زهير والإيقاع بوزيره الملعون ابن عباس.

ولما أخذ زهير في الانصراف ومن معه إلي المرية، فوجئوا بكمين أعده لهم باديس بإحكام في إحدى ممرات جبال غرناطة الضيقة؛ حيث أرصد لهم الخيل في كل مضيق، ودارت عليهم الدائرة^(٢)، وخلال تلك المعركة تمكن جنود باديس من قتل حاكم المرية زهير الصقلبي^(٣)، وأسر وزيره ومدبر سلطانه والغالب علي أمره ابن عباس، الذي سيق إلي سجن غرناطة، ويذل في فداء نفسه أموالاً كثيرة، كما جاء مبعوث ابن جهور صاحب قرطبة ليتوسط في الإفراج عنه^(٤)، لكن باديس رفض ذلك، وأمر بقتله وحز رأسه، ووريت الرأس خارج قصر الإمارة، وكان ذلك في آخر شوال ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م^(٥)، "متأولاً لإثارته الفتنة، ونقم ونقم عليه أشياء كثيرة قبل ذلك، من أقاويل خشنة ومعاملات قبيحة عرفه بها"^(٦)، منها أن ابن عباس هذا هو الذي دفع زهيراً إلي رفض التحالف مع باديس، وأشار عليه بضرورة غزو باديس في عُقر داره^(٧)، فقد بلغ من تأثير ابن عباس علي أميره زهير أنه "كان لا يحدث أمر إلا بإشارته وبعد مشاورته"^(٨)، وكان هدف ابن عباس من وراء تلك الواقعة هو التخلص من أميره زهير؛ لينفرد بحكم دولة المرية؛ لذلك سعى إلي هلاكه وحرص علي زواله^(٩).

(١) دوزي: ملوك الطوائف، ص ٢٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٩١.

(٣) نفسه والجزء، ص ١٧٠-١٧١؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١٦-٢١٧.

(٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٤؛ ابن عذاري: البيان، ج ٣، ص ١٧١؛ دوزي: ملوك الطوائف، ص ٣١، ص ٣١، ٣٢.

(٥) ابن بلقين: منكرات الأمير عبدالله، ص ٣٥؛ ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٤؛ ابن سعيد: المغرب، ج ٢، ص ٢٠٦؛ دوزي: ملوك الطوائف، ص ٣٣.

(٦) ابن بلقين: منكرات الأمير عبدالله، ص ٣٥.

(٧) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٩٣.

(٨) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٩) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٩-١٧٠؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢١٦.

وعلي كل حال، نبش قبر أحمد بن عباس في اليوم التالي لقتله لإضافة رأسه مع جسده؛ حيث يذكر أحد الموالى أن باديس قال له: "خذ رأسه وواره مع جسده، فنبشت صداه وأضفته إلي جسده بجانب قبر أبي الفتوح - سيذكر لاحقاً - قتيلاً باديس أيضاً، وقال لي: ضع عدواً إلي جنب عدو إلي يوم القصاص"^(١). وعُرف عن ابن عباس هذا أنه "من أشد الناس حماقة واستخفافاً، مُثيراً للشر، مؤرثاً بين الملوك؛ وكان الغالب علي أمر زهير؛ إذ لم يكن زهير يصلح لشيء لغباوته وجهله"^(٢). ولذلك سُر ابن نغذلة اليهودي كثيراً بمقتل ابن عباس^(٣).

وبالمثل، فإن مثل هذا المناخ لا يمكن إلا أن يفرز ثقافة القهر والإذلال والتتكيل وارتكاب المُحرّمات، فقد برز خلال عهد باديس أيضاً ظاهرة اغتصاب الموتى في قبورهم دون مراعاة لحرمة الأموات، فقد كلم الصنهاجيون باديس بن حبوس في جثة صاحبهم المقتول مع أبي الفتوح الجرجاني^(٤)، وكان أبو الفتوح من مشجعي يدبير بن حباسة ومحرّضيه ومحرّضيه علي القيام علي ابن عمه باديس^(٥)، فأمر بإسلامها إليهم، فخرجوا بها علي نعش إلي المقبرة من فورهم، فأصابوا قبراً قد احتقر لميت من أهل البلد، فاغتصبوا فيه صاحبه

(١) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، مج ٢، ص ٦٦٨.

(٢) ابن بلقين: منكرات الأمير عبد الله، ص ٣٤.

(٣) Dubnov.: History of The Jews from The Roman Empire, Vol.2, P.626.

(٤) أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني، ولد في بغداد سنة ٣٥٠هـ/٩٦٠م حيث تلقى تعليمه، ثم هاجر إلي الأندلس سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م، وعندما التحق بخدمة باديس بن حبوس تورط في شؤون السياسة، ولحقته تهمة التنبير ضد باديس مع ابن عمه يدبير بن حباسة، فقبض عليه قذاح عبد باديس، وحلقت رأسه، وأركبوه علي بعير وخلفه عبد أسود ضخم يوالى صفعه، ثم ألقى في حبس ضيق ومعه رجل من أصحاب يدبير أسر في الواقعة بين باديس وإسماعيل بن عباد، فأقام في الحبس إلي أن قدم باديس وضربه بالسيف وحز رأسه في ٢٨ محرم سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م، وأمر باديس غلامه بضرب عنق الآخر، ودفن الجرجاني إلي جانب أحمد بن عباس. ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، مج ١، ص ١٢٤؛ ابن بشكوال: الصلة، ج ١، رقم ٢٩٣، ص ٢٠٦؛ الصفي: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ١٠، ص ٢٨٩؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج ٥، س ٨، ص ٣٣٨؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٥٥ - ٤٥٨.

(٥) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج ١، ص ٤٨٢؛ بالنتيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٠٧ - ١٠٨.

وصبوا صاحبهم فيه، فواروه التراب من غير غسل ولا كفن، وانطلقوا لسبيلهم، وعجب الناس من جرأة هؤلاء الصنهاجيين وتسامحهم في الاغتصاب حتى الموتى في قبورهم^(١). وباستحضار المسوخ السالف، يمكن لنا أن نفسر لماذا استحلت هذه الكيانات السياسية قتل خصومهم ومناوئهم، بل ونبش قبورهم وانتهاك حرمتهم إمعاناً في شهوة الانتقام، طالما أن الأمر يتعلق بمصلحة القابعين علي رأس الهرم السياسي.

وفي عهد بنى يفرن ملوك فاس، كانت كرامات تميم بن زيرى أمير بنى يفرن سبباً في نبش قبره بعد وفاته، حيث تشير رواية ابن أبي زرع أن هذا الأمير كان مولعاً بجهاد برغواطة، فكان يغزوهم في كل عام مرتين، فيقتل ويسبى منهم، إلي أن توفي سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م. وعندما قتل ولده في حرب لمتونة سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م، أتوا به ليدفنوه إلي جانب قبر أبيه تميم، فسمعوا من قبره تكبيراً عظيماً وتشهداً، فنبشوا قبره فوجدوه لم يتغير منه شيء. وتصادف أن رآه أحد قرابته في منامه في تلك الليلة، فسأله عن هذا التكبير والتشهد الذي سمعوه عند قبره، فقال: "ملائكة وكلهم الله بقبري يكبرون ويهللون ويسبحون ويكون أجر ذلك لي فلا يقطع لي عمل إلي يوم القيامة، فقال له : وبما نلت ذلك وبلغت من الله تعالى هذه المنزلة حتى أكرمك هذه المكرمة ؟ قال : بجهادى في الكفرة برغواطة وفعلى فيهم في كل سنة"^(٢).

وإذا كانت النصوص التاريخية لا تسعفنا في رصد نماذج واضحة لظاهرة نبش القبور خلال عصر المرابطين، فإننا نتوفر علي نازلة في غاية الأهمية تبين بوضوح شيوع تلك الظاهرة في المجتمع الأندلسي، أوردها الفقيه أبو الوليد بن رشد القرطبي^(٣)

(١) عبد الملك المراكشي: النيل والتكملة، مج ٥، ص ٨، ص ٣٤١.

(٢) ابن أبي زرع: الأبيس المطرب، ص ١١٠.

(٣) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ولد في مدينة قرطبة عاصمة الحكم الأموي وقاعدة المالكية بالأندلس سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م في بيت ورث العلم والصلاح وخطة القضاء، في عهد كانت فيه الأندلس تعيش محنة قاسية، فأهلها تفرقوا فرقاً، وتغلب في كل جهة منهم متغلب، عمل كأستاذ للملكية وكرجل القضاء والمشورة، وكسياسي بارع يهتم بالأمور العامة للمسلمين ويتفاعل معها، وكمستشار أعلي للبلاد المرابطي، وتوفي سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م. عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٧٠؛ عبد الملك المراكشي: النيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة وبشار عواد معروف، ط ١، دار الغرب الإسلامي، تونس، مج ١، ص ١، ٢٠١٢م، ص ٥٥٠.

(ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) الذي سئل في نازلة عن "رجل دفن أربعة من الولد في مقبرة من مقابر المسلمين، فلما كان بعد عشرة أعوام من دفنه إياهم غاب الرجل من البلد، فجاء الحفار، فحفر علي قبور أولئك الأطفال قبراً لامرأة، ودفنها فيه. ثم أن والد الأطفال جاء من سفره، بعد دفن المرأة بثلاثين يوماً، ولم يجد لقبر بنيه أثراً غير قبر المرأة، فأراد نبشها، وتحولها إلي موضع آخر؛ ليقوم قبور بنيه علي ما كان عليه، هل له ذلك أم لا؟ فأجاب علي ذلك بأن قال: لا يجوز أن ينبشها، وينقلها عن موضعها، ولا يحل ذلك له؛ لأن حرمتها مينة كحرمتها حية، فلا يحل له أن يكشفها ويطلع عليها، وينظر إليها ولو كان ذا محرماً؛ حيث لا يسوغ له ذلك فيها بعد هذه المدة؛ إذ لا شك في تغييرها فيها"^(١).

وخلال فترة الانتقال من المرابطين إلي الموحدين، وفي محاولة للبحث في موقف القوى السياسية في المغرب والأندلس من بعضها البعض، وتجنباً لسرد تاريخي ممل، وتقديراً لما تحفل به مصادر الفترة من حوادث العنف - يضيق المجال عن حصرها - سوف نعمل علي تقديم إشارات ذات دلالة قصوى للحرب الدعائية بين المرابطين والموحدين. فقد كانت كل دولة منهما ترى في الدولة القائمة وأتباعها، ليسوا خصوماً ومناوئين سياسيين فحسب، بل كفاراً يجب جهادهم ومعاملتهم - وهم إخوان لهم في الدين - معاملة العدو الكافر. وهو ما ينسحب علي المرابطين الذين عمد زعيمهم عبد الله بن ياسين إلي تخميس المنهزمين أمامه^(٢)، وهو ما سيتكرر بعد ذلك مع الموحدين الذين نظروا إلي المرابطين باعتبارهم كفاراً، يتعين علي كل من يؤمن بالله واليوم الآخر جهادهم^(٣).

(١) أبي الوليد ابن رشد: مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، ط ٢، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣م، مج ٢، ص ١٢٥٢-١٢٥٣؛ نفسه، فتاوي بن رشد، ج ٣، ص ١٤٠٦-١٤٠٧.

(٢) ابن أبي زرع الفاسي: الأئيس المطرب، ص ١٢٨-١٢٩.

(٣) ابن تومرت: أعز ما يطلب، تحقيق وتقديم عمار الطالبي، الجزائر، ١٩٨٥م، ص ٢٦٠؛ عز الدين أحمد موسي: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط ١، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١١٦.

فقد حمل المهدي بن تومرت عقيدته الأشعرية والتعصب المذهبي من المشرق إلي المغرب، ومن ثم تحامل الموحدون علي المرابطين، وكان الفكر السياسي التومرتي مبنياً علي تشريع العنف تجاههم، ومحاولة تسويغ ذلك بأدلة شرعية مزعومة؛ لأنهم من وجهة نظره "بغوا علي الناس في أديانهم وأنفسهم وأموالهم"^(١)، فكانت حملة ابن تومرت علي المرابطين من أعنف الحملات السياسية في التاريخ الإسلامي، فقد نعتهم بالضلال والبغي والطغيان واتباع الشيطان، وهي الصورة التي يريد أن يرسخها ابن تومرت عن المرابطين، يظهر ذلك واضحاً في رسالته إليهم والتي يقول فيها: "إلي القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشردمة الطاغية للمتونة"^(٢)؛ رغبة منه في تشويه صورة المرابطين لدي الناس ونزع شرعيتهم؛ إذ كان الصراع الدعائي علي أشده بين الطرفين.

كما كان موقفه من المجتمع المرابطي واضحاً تماماً، فقد اعتبر أهله مجسمين، وسوي بين قتال "أهل التجسيم الملتئمين، والبرابر المفسدين"^(٣)، بل ذهب ابن تومرت إلي الحسم في مآل هؤلاء المرابطين قائلاً: "فمن قتل من المجسمين والمفسدين فهو في النار"، في حين يحث أتباعه من الموحدين ويحفزهم علي جهاد المرابطين^(٤)، ويبشروهم بأن "من قتل من الموحدين المجاهدين فهو شهيد"^(٥)؛ إذ لم يكن أمام المهدي بن تومرت - وهو يقود حرباً فعلية ودعائية لتشويه سمعة المرابطين - بد من إصباغ صفة الشرعية علي حروبه ضدهم، عبر إباحة دمائهم، فقد "أباح لهم (الموحدين) جهادهم (المرابطين)"^(٦). وتحيلنا هذا المواقف لفهم الأسباب التي تجعل المسلمين يُنبشون قبور بعضهم البعض في لحظات الخلاف في الرأي والتوجه السياسي والمذهبي، ويعتبرون من خالفهم كفاراً مشركين.

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٢) مؤلف مجهول: الحطل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ص ١١١.

(٣) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص ٢٦٢.

(٤) ابن أبي زرع: الأتيس المطرب، ص ١٧٣، ١٧٥.

(٥) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص ٢٦٤.

(٦) ابن أبي زرع: الأتيس المطرب، ص ١٨١.

سبقت الإشارة إلي المسوغ الذي اعتمده القوي السياسية، عندما اعتبرت أعداءها كفاراً، فأعطت بذلك لنفسها الحق في النظر في أمرهم، وبالتالي تقرر المصير الذي أعدته لهم، سواء بقتل الأحياء أم بنبش قبور من توفي منهم، ويقدم دخول الموحديين مدينة مراکش سنة ١٤٧٠هـ/١١٤٧م صورة عما آل إليه أمر المرابطين وأتباعهم، فقد "باد أمر أمراء اللثام وأبيحت مراکش لقتل من وجد فيها من اللمتونيين ثلاثة أيام .."^(١)، وزيادة في الانتقام والتشفي أمر عبد المؤمن "يقطع رؤوس القتلى منهم .. مما يقصر عن شرحه اللسان، ولا يأتي علي وصفه مبين البيان .. وأمر المدينة في كل يوم يزيد ضعفاً وأحوالها ترق"^(٢). ويبدو أن شناعة هذه الأفعال وهولها دفعت مؤرخي الدولة الموحدية إلي محاولة التخفيف من واقعها المأساوي.

وإذا كانت هذه الصورة تبدو قاتمة، فإن مصير الإنسان وسطها سواء كان حياً أم ميتاً يبدو مأساوياً، ففي محاولة للبحث عن نموذج معبر من العصر الموحي عن محاولة نبش قبور أمراء المرابطين، وعدم تورع الموحديين عن التعامل معهم بمنطق الكفار المارقين عن الدين، الذين يجوز نبش قبورهم، فإننا نصادف ما قام به عبد المؤمن بن علي^(٣) بعد دخوله مدينة مراکش من طلبه قبر أمير المسلمين علي بن يوسف، وبحثه عنه أشد البحث "فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره في أيام حياته؛ وتلك عادة الله الحُسنى مع الصالحين المصلحين"^(٤)، مما يوحي أنه كان يرغب في نبش قبره والتمثيل بجثته، إذ كانت حملة تكفير الموحديين للمرابطين علي أشدها ولم تخمد نيرانها بعد.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحديين، ص٢٨؛ البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحديين،

دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م، ص٦٦؛ مجهول: الحلل الموشية، ص١٤٤.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحديين، ص٢٨.

(٣) عبد المؤمن بن علي: خليفة ابن تومرت في إمامة الموحدون، ولد سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٥م، أصله من قبيلة كومية

بنواحي تلمسان علي ساحل البحر المتوسط، يرفع الموحديين نسبه إلي قيس عيلان، سافر في شبابه للحج

وطلب العلم، فصادفه ابن تومرت وصحبه معه، فكان من أقرب الأشخاص إلي ابن تومرت، فضلاً عن كونه

تلميذه النجيب، وقد بويع بالخلافة بعد وفاة ابن تومرت سنة ٥٢٦هـ/١١٣٠م، وتلقب بأبير المؤمنين، وتوفي

بمدينة رباط الفتح سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، فحمل إلي تينملل ليدفن بجوار شيخه المهدي بن تومرت. البيهقي:

أخبار المهدي، ص٣٤، هامش ١؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، ط٣، دار

الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٨٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٢٠١؛ الذهبي: أعلام

النبلأ، ج٢٠، ص٣٦٦.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٠٣.

ويبدو أن الأمير المرابطي علي بن يوسف قد استنشر المصير المأساوي الذي يترص به بعد وفاته، ويحس بما تخبئه له الأيام ولدولته، حيث يرجع سبب عدم عثور "عبد المؤمن بن علي" على قبر علي بن يوسف إلي ما ذكره عباس بن إبراهيم المراكشي صاحب كتاب "الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام"، من أن علي بن يوسف قبل وفاته في رجب ٥٣٧هـ/١٤٣م، كان قد "أوصي أن يدفن بين قبور المسلمين، ولم يشهر موته إلا بعد ثلاثة أشهر من وفاته"^(١)، وفي رواية أخرى أوردها ابن عذاري يقول فيها "ولما اشتد ألم علي بن يوسف بن تاشفين وزادت علته عهد أن يدفن مع قبور عامة المسلمين، فدفن بها في جملتهم"^(٢).

ولم تكن مساجد المرابطين هي الأخرى بمنأى عن مثل هذه الأفعال الشنيعة، فلم تسلم من عبث الموحدين عقب دخولهم العاصمة المرابطية مراكش، فقد عُرف عن عبد المؤمن بن علي عداؤه الشديد للمرابطين، ولهذا استهدف مساجدهم بالهدم والإزالة، وبنى مكانها مساجد أخرى تحمل اسمه^(٣)، ومنها مساجد مراكش التي "بقيت لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج، ويأبي الموحدون دخولها؛ لأن المهدي كان يقول حتى تطهروها فسئل الفقهاء عن ذلك، فقالوا لهم: تبنون مساجد أنتم وتجندون أخرى، ففعلوا ذلك"^(٤)؛ لأنها في رأيهم منحرفة عن القبلة، ويقول البيهقي في هذا الصدد "امتنع الموحدون أن يسكنوها.. لتشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا تحريف.. فهدمت جوامعها لأجل تشريقها وتحريفها عن القبلة وأمالتها إلي المشرق"^(٥).

(١) العباس بن إبراهيم السملالي المراكشي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣م، ج٩، ص٤٧؛ مجهول: الحلل الموشية، ص١٢٠.

(٢) البيان المغرب، ج٤، ص١٠١.

(٣) ابن المؤقت: السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، طبع بمطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٤١هـ، ص٧.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٩-٣٠؛ للمزيد أنظر ابن الخطيب: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تصحيح السيد البشير الفورتي، طبعة تونس، ١٣٢٩هـ، ص١٠٨.

(٥) البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت، ص٦٦.

ومن هذه المساجد التي نالتها أيدي عبد المؤمن الموحي بالهدم مسجد علي بن يوسف بمدينة مراكش "هدمه وأعاد بناءه لا لشيء إلا لمجرد القضاء علي اسم علي بن يوسف ويجعل اسمه مكانه، فذهب عمله سدى؛ لأنه لا يجري علي السنة الناس إلي الآن إلا الاسم القديم جامع علي بن يوسف"^(١). محاولاً بذلك طمس أي أثر يرمز إلي مجد المرابطين. وفي الأندلس وخلال عصر الموحدين، وانطلاقاً من المسوخ ذاته، تعرض بعض القضاة الذين خاضوا في الصراعات السياسية علي عهد الموحدين لنهب قبورهم، منهم قاضي

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص١٢٧. يري البيهقي أن الموحدين لم يهدموا مسجد علي بن يوسف بالكامل، بل هدموا بعض أجزاء منه. (أخبار المهدي بن تومرت، ص٦٦). وفي رواية أخرى ظل مغلقاً ومعطلاً لا تقام فيه أي شعائر دينية، واستعيب عنه ببناء جامع آخر يقيمون فيه شعائرهم. الإدريسي: صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق دوزي ودي غوية، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، ١٨٦٦م، ص٦٨؛ محمود مقديش: نزهة الأنتظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، مج١، ص٦١.

الجماعة بقرطبة أبو جعفر حمدين^(١) بن محمد بن علي بن حمدين التغلبي^(٢)، الذي نبش الموحدون قبره هو وأفراد أسرته بعد استيلائهم علي مدينة مالقة سنة ١١٥٨هـ/١١٥٣م^(٣). وكان ابن حمدين هذا قد تزعم ثورة أهل قرطبة علي المرابطين في الأندلس سنة ٥٣٤هـ/١٢١١م^(٤)، تلك الثورة التي كادت تقضى علي ما بقي من الأندلس لولا تدارك الموحدين إياه، حيث ثار عامة قرطبة بسبب ضعف قاضيها ابن رشد^(٥)، فاضطر أبو جعفر بن حمدين للخروج للناس لتسكين ثائرتهم، بما له من حظوة لدى المرابطين وعامة أهل قرطبة، وانتهى الأمر باستعفاء ابن رشد عن القضاء، وتعطيل الأحكام بها لمدة تزيد علي العام تأديباً لأهل قرطبة، ثم ترك لهم بعد ذلك أمير قرطبة أبو عمر اللمتوني حرية اختيار

(١) ابن حمدين: هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، ولد قبل سنة ١١٠٦هـ/٥٠٠م بقرطبة، التي تولي قضاء الجماعة بها في شعبان سنة ١١٣٤هـ/٥٢٩م علي أثر مقتل قاضيها أبي عبد الله بن الحاج، ثم عزل ابن حمدين عن قضاء قرطبة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، ثم أعيد مرة أخرى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م، وسرعان ما تطورت الأمور سريعاً وثار أهل قرطبة علي الحكم المرابطي، فصارت إليه رئاسة قرطبة، ولقب نفسه بأمير المسلمين المنصور بالله سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، ودعى له علي منبر قرطبة ومعظم منابر الأندلس. ابن القطان: نظم الجمان، ص ٧٨؛ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلاة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ج ١، ص ٢٣٥؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج ٣، ص ٥، ص ٢١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٢٤٣ - ٢٤٤؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٥.

(٢) بنو حمدين: ينتسبون إلي بني تغلب، وهي أسرة عربية عريقة عمل أغلب أفرادها بقضاء الجماعة بقرطبة، كان لكبيرهم أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين - قاضي الجماعة بقرطبة علي عهد المرابطين ت سنة ١١١٤هـ/٥٠٨م - ابنان أحدهما أبو القاسم أحمد، وكان قاضياً للجماعة بقرطبة مرتين، وتوفي سنة ١١٢٧هـ/٥٢١م، وله من الأبناء ابناً واحداً هو أبو عبد الله، تولي القضاء بعد وفاة أبيه أي بين سنة ٥٢١ - ٥٢٩هـ/١١٢٧-١١٣٤م. (ابن بسام الشنتريني: الذخيرة، ق ١، مج ١، ١٩٩٧م، ص ٨٣٩؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج ٨، تحقيق سعيد أحمد أعراب، ص ١٩٣؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٥). والثاني هو أبو جعفر حمدين تولي قضاء قرطبة ٥٢٩هـ/١١٣٤م، ثم صرف عن القضاء سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، ثم أعيد وبقي حتى انهيار دولة المرابطين في الأندلس، وكانت وفاته سنة ١١٥٨هـ/٥٣٨م. ابن القطان: نظم الجمان، ص ٧٨؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج ٣، ص ٥، ص ٢١؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٢٤٤.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس أو المرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ضبط وشرح وتعليق مريم قاسم طويل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١٣٦.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ج ١، ص ٥٧؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج ١، ص ١، ص ٢٨٦.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٢.

قاض لهم، فأجمعوا علي اختيار ابن حمدين ليتولى منصب قاضي الجماعة بقرطبة للمرة الثانية في سنة ٥٣٦هـ/١٤١م، واستمر في منصبه حتى سنة ٥٣٩هـ/١٤٤م^(١). كانت أحوال المرابطين - آنذاك - قد تحولت من سيئ إلى أسوأ بسبب الهزائم التي توالت عليهم علي أيدي الموحدين علي عهد الأمير المرابطي تاشفين بن علي، فاستغل أهل الأندلس هذه الفرصة وثاروا في مدنهم علي المرابطين، وامتدت نار الثورة علي المرابطين ووصل لهيبها إلي قرطبة، فثار العامة ضد والي المرابطي أبي عمر اللمتوني وأعلنوا خلعه وترك دعوة المرابطين، واتفقوا علي مبايعة القاضي ابن حمدين بالرياسة^(٢)، التي يسعى إليها منذ صغره، يؤكد هذا ما ذكره ابن الخطيب عندما قال "وكان شهماً، يجيش في صدره الأمر الذي برز فيه"^(٣)، ويدعم ما ذهبنا إليه ما ذكره النباهي^(٤) نقلاً عن تاريخ ابن عسك من أنه كان يحدث الناس في صغره بما سيؤول إليه أمره في كبره .

وعلي أية حال، بدأت ثورة القاضي أبي جعفر بن حمدين بقرطبة سنة ٥٣٩هـ/١٤٤م، وهي السنة التي سماها ابن الأبار بالقارضة، فيها "أخذت دولة الملتئمين في الانتفاض والانقراض"^(٥)، واتسع علي المرابطين فيها "خرق لم يرقعه، وهجم عليهم حادث طالما توقعوه"^(٦)، وأعلن ابن حمدين نفسه أميراً علي المدينة، حيث بايعة الناس بالإمارة في المسجد الجامع بقرطبة في ٥ رمضان من نفس السنة، وتسمى بالقاضي الخليفة^(٧). ويبدو أن أهل قرطبة لم يألفوا قط حياة الاستقرار؛ إذ إن بعضهم كان يؤيد ابن حمدين ويرغب في رئاسته، والبعض ما زال علي ولائه للمرابطين، في حين كان هناك فريق آخر له

(١) ابن الأبار القضاعي: التكملة لكتاب الصلة، ج ٢، ص ١٣؛ عبد الملك المراكشي: النيل والتكملة، مج ٤، ص ٦،

ص ١٦٦ - ١٦٧؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٣.

(٢) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج ١، ص ٢٣٥.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٤) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٦.

(٥) ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٦) نفسه، ج ٢، ص ١٩٩.

(٧) ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢١١ - ٢١٢، ٢١٤؛ ابن أبي زرع: الأبيس المطرب، ص ١٧١، ٢٦٢؛ ابن

ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥١ - ٢٥٣؛ المقري: نفع الطيب، ج ٤، ص ٧٦.

رغبة في دعوة ابن قسى وهم سكان الريض الشرقي لقرطبة^(١)، وهناك فريق رابع كان يرى استدعاء سيف الدولة بن هود^(٢)، إذ لم تكن كافة الأطراف بقرطبة راضية عن حكم ابن حمدين، فلم يكد يمضى اثنا عشر يوماً علي قيام ابن حمدين بثورته حتى قامت ثورة أخرى بقرطبة حمل لواءها أنصار سيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود، الذي قدم إلي قرطبة في قوة من القشتاليين، حيث نودي به أميراً علي قرطبة باسم المستنصر بالله، ورغم ذلك فلم ينعم بهذا المنصب كثيراً؛ إذ سرعان ما ضاق أهل قرطبة ذراعاً باستبداد وزيره، فانقلبوا عليه بعد ثمانية أيام فقط من توليه الإمارة^(٣).

أما ابن حمدين، فقد عاد إلي قرطبة في ١٠ ذي الحجة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ونودي به للمرة الثانية أميراً علي البلاد فاستقام له الأمر فيها، ودون الدواوين، وجند الأجناد، ورسم الخطط^(٤). ولم يكد يمضى أحد عشر شهراً علي توليه الإمارة حتى تبرم منه أهل قرطبة، واتصلوا بيحيى بن غانية^(٥) قائد المرابطين في إشبيلية وطلبوا منه أن يعمل علي تخليصهم من حكم ابن حمدين، فزحف ابن غانية علي قرطبة في جمادي الآخرة سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م علي رأس فرقة من النصارى، ونجح في إيقاع الهزيمة بجيش ابن حمدين الذي فر إلي بطليوس، ثم غادرها إلي حصن (أندوجر) الواقع شرقي قرطبة وتحصن به، ولما كر عليه ابن

(١) ابن الأبار: الحلة السيرة، ج٢، ص٢٠٦.

(٢) هو أحمد بن محمد بن سليمان بن هود، من بقايا حكام دول الطوائف في سرقسطة، عرفوا بموالاتهم للنصارى وتبعيتهم لهم، لعب سيف الدولة بن هود دوراً بارزاً في ثورة القضاة ضد المرابطين، وقتل سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م.

ابن الأبار: الحلة السيرة، ج٢، ص٢٠٦؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص١٧٢-١٧٦.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيرة، ج٢، ص٢١٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٣؛ يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، تقديم سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م، ج١، ص٢٢٠.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٣.

(٥) يحيى بن غانية: من أبرز ولاية وقواد المرابطين في الأندلس، كان أميراً نابهاً، وجندياً وافر الجرأة والشجاعة، والخبرة والخبرة بأساليب الحروب، وحاكماً وافر الكفاية والمقدرة، تمركز في أواخر الحكم المرابطي في الأندلس في مدينة غرناطة مع ما تبقى من قوات المرابطين، وتوفي بها سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م. ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤، ص٣٠٠-٣٠٣.

غانية، لجأ ابن حمدين إلي تلك الوسيلة الذميمة التي كانت عماد ملوك الطوائف في محاربة بعضهم البعض، وهي الاستتصار بعاهل قشتالة القيصر ألفونسو ريمونديس؛ حيث أطمع ابن حمدين القيصر في قرطبة، فاستجاب لدعوته وتحرك لنصرته، فسار هؤلاء النصارى ومعهم حليفهم ابن حمدين، فدخلوا قرطبة في العاشر من ذي الحجة سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م^(١). وعندئذ جاءت الأخبار بأن الموحدين قد جازوا البحر إلي الأندلس، وأن دعوتهم ظهرت بأشبيلية، فرأى القيصر أنه من الفطنة مهاندة ابن غانية، وتركه بقرطبة سداً بينه وبين بلاده، وعلي هذا النحو، استقر ابن غانية بقرطبة، واستمر علي تهادنه مع القشتاليين^(٢). أما ابن حمدين فقد غادر قرطبة مع النصارى الأسبان، ثم عبر البحر إلي المغرب، وسار إلي مقابلة الخليفة عبد المؤمن بن علي أسوة بمن سار إلي لقائه من زعماء الثورة في الأندلس، فقيه تحت أسوار مدينة مراكش - حاضرة المرابطين - وهو محاصر لها سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، فأكرمه الخليفة عبد المؤمن وأحسن استقباله ونزله ووعده بمساعدته، لكن علي ما يبدو بقيت مجرد وعود، فاستعجل الرجوع إلي الأندلس فنزل بمالقة وحاول أن يسترد سلطانه بقرطبة مرة أخرى، إلا أنه أخفق في مسعاه فارتد ثانية إلي مالقة، وكان من أسباب لجوئه إلي مالقة وجود حليفه السابق القاضي أبي الحكم بن حسون بها^(٣)، فاستقر بها حتى توفي^(٤).

-
- (١) عاث القشتاليون في قرطبة عند دخولهم لها، واستباحوا مسجدتها الجامع، ومزقوا ما به من مصاحف، وأحرقوا الأسواق، وظل ابن غانية صامدا يدفع النصارى الأسبان عن قرطبة بمنتهى الشدة والبسالة. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٣؛ نفسه: الإحاطة، ج٤، ص٣٠٠-٣٠١.
- (٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٢، ص٢٥٤.
- (٣) هو القاضي أبو الحكم بن حسون، ولى القضاء بمالقة بعد وفاة قاضيها أبو محمد الوحيدى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، ثم سرعان ما دعا لنفسه في مالقة وقام بالثورة ضد الموحدين، ولما فشلت ثورته وثار الناس ضده أحرق كتبه وذخيرته، ثم شرب سماً وعندما لم يقتله السم، طعن نفسه بالرمح ومات سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، وقد صليت جنته هو الآخر بعد استيلاء الموحدين علي مالقة، وحملت رأسه إلي مراكش. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٣٠، ٢٥٥.
- (٤) ما ذكره البيهقي من أن مخلوف بن يلولى ويحيا بن يومور قتلاه لم يذكره أحد من المؤرخين سواه، إلا أن يكون المراد بالقتل إخراجة من قبره وصلبه. أخبار المهدي بن تومرت، ص٨٦.

واختلفت المصادر في تاريخ وفاته، فذكر النباهي^(١) وابن الخطيب^(٢) أنه توفي في ١٩ رجب سنة ٥٤٦هـ/١٥١١م، بمالقة ودفن بمسجدها الجامع، وذكر ابن سعيد^(٣) أنه توفي سنة ٥٤٧هـ/١٥٢٠م، أما باقي المصادر فأجمعت أنه توفي سنة ٥٤٨هـ/١٥٣٠م^(٤). ولما استولي الموحدون علي مدينة مالقة بعد ذلك بعشرين شهراً أي في أوائل سنة ٥٤٨هـ/١٥٣٠م، نبشوا قبره، واستخرجوا جثمانه وصلبوه، وهو - وفقاً للرواية - علي حاله لم يتغير^(٥)، وحسب رواية أبي الحسن النباهي أُخرج من قبره بعد وفاته "وصلب في اثني عشر رجلاً من أصحابه"^(٦). وهناك من المؤرخين من يزعم أن المنجمين في زمانه حكموا عليه عند مولده بأنه بأنه سوف يُصلب، وكان الحديث بذلك فاشياً بين أعدائه في قرطبة، فصدقته الأيام ولكن بعد وفاته^(٧).

ولعل ما يفسر لنا سبب قيام الموحديين بعد استيلائهم علي مالقة سنة ٥٤٨هـ/١٥٣٠م، بنيش قبر ابن حمدين وإخراج جثته وصلبها، ما ذكره ابن الخطيب من أن أبا جعفر بن حمدين قد حرض ابن حسون علي خلع دعوة الموحديين في مالقة، وبناء علي ذلك، دعا ابن حسون لنفسه واتخذ ألقاب الإمارة^(٨). وأغلب الظن أن الاثني عشر رجلاً الذين

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٦.

(٢) أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٤.

(٣) رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق وتعليق محمد رضوان الداية، ط ١، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م، ص ١١٦.

(٤) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج ١، ص ٢٣٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٢٤٤. ويبدو أن هذا التاريخ هو الأقرب إلي الصواب؛ إذ إن جثته صلبت في هذه السنة وكانت علي حالها، ولم تتغير لقرب المدة بين وفاته وصلب جثته بعد إخراجها من القبر.

(٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٢٥٤. نعت عبد الملك المراكشي ابن حمدين بالمتأمر، وأشار إلي أنه توفي بمالقة، وأنه تعرض للصلب بعد دخول الموحديين لها. الذيل والتكملة، مج ١، ص ٦٣٣.

(٦) تاريخ قضاة الأندلس أو المرقية العليا، ص ١٣٦.

(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٥٤؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٦.

(٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٣١.

الذين نبشت قبورهم وصلبوا مع أبي جعفر بن حمدين كانوا من أسرته؛ إذ إنه مات ولم يكن له عقب، وبقي عقب أخيه أبي القاسم أحمد بن حمدين^(١).

وفي تقديري أن نبش الموحدين لقبر أبي جعفر بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة عند دخولهم مدينة مالقة لم يكن سببه الوحيد هو الخلاف السياسي والاستتصار بالنصارى الأسبان، إذ يبدو أن للموضوع إرهابيات مذهبية وفلسفية قديمة بين الموحدين وأسرة بني حمدين القرطبية، كان لها دورها في نبش قبر أبي جعفر بن حمدين وصلبه علي أيدي الموحدين هو وأفراد أسرته، هذه الإرهابيات تتمثل في أن أبا جعفر بن حمدين هذا هو ابن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين التغلبي^(٢) (٤٣٩-٥٠٨هـ/١٠٤٧-١١١٤م) قاضي الجماعة بقرطبة الذي أصدر فتوى إحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي بعد إجماع الفقهاء علي عهد الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، وهي القضية التي أثارت نقمة كبرى علي المرابطين من قبل خصومهم الألداء الموحدين، واتخذوها ذريعة للطن في عقيدة المرابطين واتهامهم بالمروق عن الدين، وكان أول مروج لها هو ابن تومرت تلميذ أبي حامد الغزالي^(٣)، الذي أشاع بين أنصاره أنه اتصل بالإمام الغزالي أثناء رحلته إلي المشرق، فأخبره بإحراق المرابطين لكتابه "إحياء علوم الدين"، فغضب الغزالي ودعا عليهم بتقويض دولتهم، فاستغل ابن تومرت الفرصة وطلب منه أن يدعو الله ليجعل ذلك علي يديه، فدعا الغزالي، وأمن طلبته، وبذلك تم لابن تومرت - حسب زعمه - ما تم له من أمر

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ١٣٦.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي، قاضي الجماعة بقرطبة، ولد سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م، وتولي قضاء قرطبة بعد وفاة والده سنة ٤٩٠هـ، وكانت وفاته سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م، وكان ابنه أبو جعفر حمدين الذي تولى قضاء قرطبة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م، قد تسلم زمامها ودُعي له علي منابرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م. أبو الوليد بن رشد: مسائل أبي الوليد، مج ١، ص ٢٦٣؛ القاضي عياض: الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٤٦؛ ابن بشكوال: الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط ١، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م، ترجمة ١٢٦٢، ص ٨٣١؛ الضبي: بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٧٦م، ص ١١٣؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص ٧٤.

(٣) ابن أبي زرع: الأئیس المطرب، ص ١٧٢.

القضاء علي المرابطين، وعد أنصار الغزالي اندحار المرابطين وهم في أوج عظمتهم من بركاته^(١).

كان من الطبيعي أن تلقى كتب أبي حامد الغزالي المعارضة في الغرب الإسلامي الذي لم يكن علي مذهب الغزالي، ولذلك عندما وصل كتابه "إحياء علوم الدين" إلي الأندلس اطلع عليه أبو عبد الله بن حمدان قاضي قضاة قرطبة، فرأى أنه مخالف للعقيدة الإسلامية؛ لاحتوائه علي كثير من المسائل الكلامية، وكراهية المالكية لهذه العلوم، ومن ثم جمع فقهاء قرطبة للتداول في شأن الكتاب واتفقوا علي رأيه وأصدروا فتوى بوجوب حرقه^(٢)، وطالبوا ولي الأمر بمصادرة كتبه وإحراقها، فما كان من الأمير المرابطي علي بن يوسف إلا أن أصدر أوامره بتنفيذ ما أجمعوا عليه سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م^(٣)، غير أنه بجانب هذا السبب الظاهر

(١) ابن القطان: نظم الجمان، ص ٧٢-٧٣؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، ط٢، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٦م، ص ٤.

(٢) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج ٣، ص ٥، ص ٢٥٩.

لا ينبغي أن ينظر إلي قضية إحراق كتاب الإحياء للغزالي علي أساس أنها خطأ ارتكب في عهد المرابطين يتحمل مسؤوليته ابن حمدان، وإنما هي حادثة ليست فيها أي جريرة، ومن الظلم أن يحمل مسؤوليتها ابن حمدان وحده، ولا علاقة لها بتعصب الفقهاء ولا بسلطتهم القوية علي الأمير المرابطي؛ لأننا نعلم أن أمير المسلمين علي بن يوسف كان لا يخضع للفقهاء إلا إذا تيقن من مطابقة آرائهم للشريعة الإسلامية، وإلا فبماذا نعلل رفضه قتل ابن تومرت أو حتى سجنه رغم أن الفقهاء نصحوه بذلك. كما أن الأمير المرابطي علي بن يوسف كان متفقاً في علوم الدين، فلم يكن جاهلاً بما في الإحياء من خطورة علي العقيدة، ومما لا شك فيه أن علي بن يوسف وفقهاء دولته كانوا متيقنين من أنهم علي صواب عندما أمروا بحرق الكتاب، ولم يخالفوا تعاليم الشريعة، وإنما فعلوا ذلك عن اقتناع. وليس أدل علي ذلك من وصف ابن خاقان له بأنه "حامى حمي الدين، وعاضده، وقاطع ضرر المعتدين، وحاصده". قلاند العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق وتعليق حسين يوسف خريوش، ط١، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الأردن، ١٩٨٩م، ج ١، ص ٦١٠؛ للمزيد انظر المراكشي: المعجب، ص ١٨٥-١٨٦؛ ابن أبي زرع الفاسي: الأنيب المطرب، ص ١٧٦. فقد كانت نية ابن حمدان سليمة وعقيدته صحيحة ولم يفت بحرقه إلا بدافع الغيرة علي الدين، وقد شهد بهذا ابن القطان نفسه داعية الموحدين الذي شنع علي المرابطين قضية الإحراق، حيث أشار إلي أن ابن حمدان "كان جميل الطريقة ساعياً في كل خير .. ورعاً ديناً حذراً من العواقب". (نظم الجمان، ص ٧٤).

(٣) يصف ابن القطان واقعة الإحراق فيقول "في أول عام ٥٠٣هـ عزم علي بن يوسف عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدان وفقهائها علي إحراق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى المسمي

للإحراق كانت هناك أسباب أخرى خفية تتعلق بهؤلاء الفقهاء الذين طالبوا بإحراق كتب الغزالي، ومن ذلك ما وجدوه في كتاب الإحياء من هجوم علي علماء الفروع الذين يتخذون من العلم والدين مطية لتحقيق أطماع دنيوية^(١).

هذا، ولم يخل عهد عبد المؤمن بن علي من حوادث التسلط علي قبور الثوار والمناوئين للحكم الموحد بالنبش والتخريب، ففي سطيف قام عبد المؤمن بدرس قبر سطيف بخيله ثأراً من خيانتته، وذلك حسب ما أورد البيهقي مؤرخ البلاط الموحد، الذي يقول: "سار الخليفة إلي سطيف وفيه قبر سطيف فوق الطريق في ربوة، وقرب منه الخليفة وقال للموحدين ادفعوا خيلكم فدفع الخليفة جواده ودفع الموحدون معه حتى وصل قبر سطيف وحك عليه جواده الذي ركب وكان جواداً أبلق، ودار عليه الموحدون وانضم الناس إليه، فقال لهم الخليفة رضي الله عنه أتعرفون ما قال صاحب هذا القبر؟ قالوا له أنت العارف بذلك، فقال لهم الخليفة، قال: أزيلوني عن هذا القبر لئلا تدرسني خيل عبد المؤمن بن علي الكومي القيسي، فكان كذلك بعون الله وتوفيقه"^(٢).

الإحياء، فأحرق في رحبة مسجدها علي الباب الغربي علي هيئته بجلوده بعد إشباعه زيناً، وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس، ونفذت كتبه إلي جميع بلاده أمراً بإحراقه حيثما وجد". نظم القطان، ص ٧٠ - ٧١؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ١٧٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٤، ص ٥٩.

ويستفاد من خبر أورده عبد الواحد المراكشي أن الفتيا صدرت بإحراق كل كتب الغزالي وليس الإحياء فقط؛ إذ يقول "ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب أمر أمير المسلمين (علي بن يوسف) بإحراقها = وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلي من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك". المعجب، ص ١٧٣. وسار خلفه ابنه تاشفين علي سنته، فكان من جملة ما أصدره في بيان توليته الأمر بإحراق كتب الغزالي "وحتى عثرتم علي كتاب بدعة أو صاحب بدعة وخاصة - وفقكم الله - كتب أبي حامد الغزالي فلينتبغ أثرها وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ويبحث عليها، وتغليط الإيمان علي من يتهم بكتمانها". حسين مؤنس: نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلي الموحدين، ط ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٠.

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ع ٣، ق ١، ص ٧٩؛ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في

المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٤٥٢.

(٢) البيهقي: أخبار المهدي، ص ٧٤.

ونتوفر علي إشارة تخص علي بن غانية الثائر علي الحكم الموحي، والذي هلك في بعض حروبه مع أهل نفاوة سنة ٥٨٤هـ/١١٨٧م ببلاد الجريد، فدفن هناك، فكان العداء السياسي سبباً في أن عُفي علي قبره، فحمل أتباعه أشلاءه إلي ميورقة فدفن بها^(١). ونتوفر علي إشارة أخرى تعود للفترة الموحيية أوردها التجاني^(٢) في حوادث سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م يشير فيها إلي نقل نيف وستين رأساً من قبور مدينة قابس إلي مكان آخر بقصد البناء في موضع دفنهم.

نخلص مما سبق ذكره، أن الفترة الموحيية غنية أكثر من سابقتها فيما يتعلق بهذا الأسلوب من الانتقام، ويرجع ذلك إلي طول فترة الحكم الموحي مقارنة مع نظيره المرابطي من جهة، وإلي المذهب الموحي في صيغته التومرتية والذي حث علي تصفية غير المؤمنين بالعقيدة المهدوية من جهة أخرى، واعتبار الخصوم والثوار والمناوئين ومن ينحو منحاهم كفاراً يجب إزهاق أرواحهم، وملاحقة قبورهم والتسلط عليها بالنبش والتخريب إمعاناً في التنفي والانتقام.

وفي المغرب الأقصى، وخلال عصر بنى مرين، الذين كانت لديهم رغبة أكيدة في الإطاحة بدولة الموحيين^(٣) بعد إخفاق سياستهم وضعف قبضتهم عن الإمساك بزمام الأمور في بلاد المغرب، ومن ثم ظهور علي مسرح الأحداث ببلاد المغرب الأقصى وتوغلوا في مناطقه الخصبة يشنون الغارات عليها، مما أثار شكوى السكان منهم^(٤)، وأصبح المد المريني

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٩٣.

(٢) رحلة التجاني، ص١٠٤.

(٣) تحالف بنى مرين في بداية أمرهم مع الموحيين الذين أسندوا إليهم حكم البلاد التي بحوزتهم، ولما بدأ الضعف يسري في جسد الدولة الموحيية انقلبوا عليها، وشنوا الغارات علي أطرافها، إلي أن تمكنوا من القضاء عليها. ابن خلدون: العبر، ج٧، ص١٨٢؛ يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، (د.ت)، ج١، ص١٢٠-١٢١.

(٤) من خلال الإغارة علي المدن والقرى وسلب أموال الناس وإشاعة الفوضى، مما دفع الخليفة الموحي المستنصر إلي تجهيز جيشاً لقتالهم عند وادي نكور سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م، إلا أن النصر كان حليف المرينيين الذين انتصروا انتصاراً باهراً، ومزق الجيش الموحي شر ممزق؛ حيث بالغ المرينيون في تجريدهم من ملابسهم، وعند عودة من تبقى منهم إلي مراکش وهم عرايا كانوا يستترون بأوراق الشجر. ابن عذاري: البيان المغرب، قسم

يثير مخاوف الموحدين، الذين لم تنجح محاولاتهم لإجهاض هذا التوسع^(١)، الذي كلال بالنجاح عندما تمكن المرينيون من دخول عاصمة الموحدين مراكش سنة ١٢٦٨هـ/١٢٦٩م^(٢). وبذلك انطوت آخر صفحات الموحدين من تاريخ المغرب، وحل محلهم بنو مرين. وانطلاقاً من المسوغ ذاته، دفع العداة السياسى المرينيين إلي نبش أحقادهم المدفونة ضد الموحدين والتسلط علي قبورهم بالنبش والتخريب، وصلب وحرقت ما تبقي من رفاتهم إمعاناً في التنشفي والانتقام منهم، وقد تم هذا علي أيدي عمال بنى مرين، الذين نبشوا "قبور خلفاء الموحدين، وأخرجوا عبد المؤمن بن علي وابنه يعقوب المنصور من قبوريهما. وقطعت رأسهما، وضربت أعناق كل من كان بجبل تينمل، وصلبوا بمراكش وأخذت أموالهم"^(٣). وفي رواية أخرى "عاشت عساكر بنى مرين في جبل تينمل واكتسحوا أمواله، ونبشوا قبور خلفاء بنى عبد المؤمن واستخرجوا أشلاءهم، وكان فيها شلو يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور، فقطعت رؤوسهم وتولى كسر ذلك أبو علي بن أحمد الملياني"^(٤). وقد اشتهر أبو علي بن أحمد الملياني^(١) عامل المرينيين علي مدينة أغمات بنبش قبور الخلفاء الموحدين انتقاماً وتنشفياً منهم، فما كان منه إلا العبث بأشلاء الموحدين ونبش

الموحدين، ص ٢٦٦؛ ابن أبي زرع: الأئيس المطرب، ص ٢٨٤؛ نفسه، الذخيرة، ص ٢٨؛ ابن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعيد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص ١١١؛ ابن خلدون: العير، ج ٧، ص ١٦٩.

(١) كان الخليفة الموحي المستنصر خلال المواجهات مع بنى مرين يري ضرورة استئصال شأفتهم وإفنائهم، بأن يبعث إليهم بجنوده "فيقتل رجالهم، وينهب أموالهم، ويسبي نساءهم، وينسف آثارهم ويشرد بهم من خلفهم، ويُنذر بهم من سواهم"، وفي موضع آخر "اقتل الوالد والولد، ولا تبق منهم علي أحد". ابن أبي زرع: الذخيرة، ص ٢٧.

(٢) استطاع السلطان المريني أبو يوسف يعقوب القضاء علي الموحدين واجتثاث شجرتهم في المعركة التي شنها ضدهم عند وادي غفو، والتي انتهت بهزيمة الموحدين ومقتل أبي دبوس واستيلاء بنى مرين علي عاصمتهم مراكش وذلك في محرم سنة ١٢٦٨هـ/١٢٦٩م، وبمقتل أبي دبوس وسقوط مراكش في أيدي المرينيين انتهى بذلك عصر الدولة الموحدية، لتحل محلها دولة بنى مرين في ربوع المغرب الأقصى. ابن أبي زرع: الأئيس المطرب، ص ٢٦١؛ نفس المؤلف، الذخيرة السنية، ص ١١٧ - ١١٨؛ مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص ١٧١.

(٣) المقرئبي: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٦م، ج ١، ق ٢، ص ٦٢٠.

(٤) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج ٣، ص ٤٣.

أجدانهم^(٢)، فتسلط علي قبر أبي يعقوب المنصور بالنبش؛ حيث "أخرجه من قبره وزعم أنه المهدي وذلك في سنة ٦٧٤هـ"^(٣).

ومما يدعو للاستغراب ما ذكره ابن عذاري نقلاً عن بعض المشاركة الذين أخبروه "أن قبر المنصور ملك المغرب في بلاد الشام. ولا ريب ولا اختلاف أن المنصور - رحمه الله - كان رجلاً صالحاً عالماً فاضلاً، وثبت عن قرابته وأهل بيته أن قبره يتينمل"^(٤).

هذه الرواية تؤكد ما ذهبنا إليه من تعرض قبر أبي يعقوب المنصور^(٥) وغيره من مقابر خلفاء الموحدين للنبش والتخريب علي يد عمال بنى مرين، ومن الوارد أن يكون قبر أبي يعقوب المنصور قد تعرض للنبش من منطق حسن النية، بهدف حمايته من تسلط المرينيين عليه، من خلال نقله إلي مكان آمن إذا سلمنا بصحة رواية المشاركة التي أوردتها ابن عذاري^(٦).

وعلي أية حال، تدل وحشية المرينيين وعمالهم في التسلط علي قبور خصومهم الموحدين عن رغبة كامنة في التشفي والانتقام حتى بعد رحيل هؤلاء عن الحياة. فقد ذكر الناصري أن والي المرينيين أبا علي بن أحمد الملياني كان يري - بارتكاب هذا الفعل الشنيع - أنه قد شفى غليله "باستخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم والعبث بأشلائهم"^(٧). ويبدو أن

(١) أبو علي بن أحمد الملياني: من أعيان مدينة مليانة ثار علي الحفصيين بها سنة ٦٥٧هـ، فجهزوا إليه جيشاً كبيراً وأخموا ثورته، ففر إلي المغرب الأقصى والتجأ إلي السلطان أبي يعقوب المريني، الذي رحب به وأواه وعينه ووالياً علي مدينة أغمات أكراماً له. ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٣١؛ المقري: نفع الطيب، ج٦، ص٢٦٦-٢٦٧؛ الناصري: الاستقصا، ج٣، ص٤٣؛ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص٣١٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٣١.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٥.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٥.

(٥) أبو يعقوب المنصور: يُعد عصره هو العصر الذهبي للموحدين، كان كريماً مع الفقراء والضعفاء، حريصاً علي رد المظالم، كما راعى الصلحاء وأهل العلم، وأكرم الفقهاء وأجزل عليهم الأموال الكثيرة، توفي سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م، فدفن أول الأمر بمدينة مراكش، ثم نقل بعد ذلك إلي تينمل، وحزن الناس لوفاته حزناً شديداً. ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٤؛ ابن أبي زرع: الأنييس المطرب، ص٢١٧.

(٦) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٥؛ الزركشي: تاريخ الدولتين، ص١٧.

(٧) الناصري: الاستقصا، ج٣، ص٤٣.

هذا الفعل المحرم شرعاً قد أثار غضب الناس؛ حيث "أنكر الناس عامة والسلطان يعقوب خاصة هذه الفعلة منه ولم يرضوها"^(١).

وفي عهد السلطان أبي عنان المريني، يكشف لنا صاحب كتاب "بيوتات فاس الكبرى" عن رغبة هذا السلطان في حرق قبر الفقيه أبي بكر محمد بن العربي الإشبيلي^(٢) الذي كان يلي قضاء إشبيلية علي أيام الموحدين عن كره من أهلها^(٣). ولعل سبب أقدام أبي عنان المريني علي حرق قبر هذا الفقيه ما رماه به بعض علماء عصره بعدما وقفوا علي كلامه في كتابه "العواصم من القواصم" بحق الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ففي هذا الكتاب استباح ابن العربي قتل الحسين وأحل دمه، فثارت العامة بإشبيلية ضده عندما بلغهم هذا الكلام وطالبوا بتأديبه، فقصدوا داره، لكنه لاذا بالفرار عندما علم بما عزموا عليه، حيث جاز البحر إلي بلاد المغرب قاصدا مدينة فاس إلا أنه مرض وهو في الطريق إليها بسبب حقه علي أهل إشبيلية عندما وصله خبر ما فعلوه بداره، فتوفي ودفن بخارج باب الشريعة في ربيع الآخر سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م^(٤).

(١) نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن العربي: هو الفقيه والقاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد، المعروف بابن العربي المعافري، ويرجع ابن العربي في أصله إلي إشبيلية التي ولد بها سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٦م، ولكنه ما لبث أن غادرها إلي المشرق تحوّه رغبة عارمة في استقاء العلم من مصادره في بلاد المشرق، ولم يكن عمره آنذاك يتجاوز سبعة عشر عاماً، غادر إشبيلية سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م صحبة أبيه الذي كان يشغل منصباً مرموقاً في دولة المعتمد بن عباد التي أزالها يوسف بن تاشفين أمير المرابطين. وبعد عودته إلي وطنه سرعان ما ذاع صيته كقاض وفقيه من أكبر فقهاء المالكية في الأندلس، وتوفي ابن العربي أثناء رحلته إلي مدينة فاس التي دفن بها في ربيع الآخر سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م. القاضي عياض: الغنية، ص ٦٦-٦٨؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٩٢-٩٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج ٤، ص ٢٩٦-٢٩٧؛ ابن سعيد: المغرب، ج ١، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ النباهي: المراقبة العليا، ص ١٣٧-١٣٩؛ المقري: أزهار الرياض، ج ٣، ص ٦٢، ٦٣، ٨٦؛ نفسه، نفح الطيب، ج ٢، ص ٢٥-٤٣.

(٣) ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، ص ٦٠.

(٤) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص ٦٠-٦١.

أما أهل إشبيلية الناقمين عليه فلما وصلوا إلي داره، ووجدوه قد فر منها، استقروا علي هدم داره عوضاً عن جلود ضحاياهم التي أعتصبها منهم كرهاً^(١)، ليس هذا فحسب، بل عقدوا العزم علي حرق كتبه ومؤلفاته؛ لأنها حسب زعمهم فاسدة، لئلا يضل المسلمون بها، فهدموا داره وأحرقوا كتبه^(٢). ولما وقف السلطان أبي عنان المريني علي كلامه في الكتاب المذكور أراد حرق قبره، وكان ابن الخطيب حاضراً في بلاطه آنذاك رسولاً من طرف سلطان غرناطة إلي بلاط فاس^(٣)، فكلمه أبو عنان فيما عزم عليه، فأشار عليه ابن الخطيب بألا يفعل ذلك؛ لأن ابن العربي كان قد مضى إلي ما قدمت يده، فتركه حينئذ ولم يحرق قبره^(٤). وإذا كان ابن العربي قد وجد من يشفع له لدى بلاط فاس كي لا يتم ملاحقة قبره بالحرق أو التخريب، فإن ابن الخطيب نفسه - الذي تشفع لابن العربي - لن يجد من يقف بجواره ويحنو عليه في المحنة التي تعرض لها - وهي المحنة التي سنعرض لها في الصفحات التالية - بل إن هناك من يزعم بأن ما أصاب ابن الخطيب من نبش قبره وحرق جسده، كان جزاء منعه لأبي عنان من حرق قبر ابن العربي^(٥).

(١) المقري: فح الطيب، ج ٢، ص ٢٧. تصادف بعد تولي ابن العربي قضاء إشبيلية أن سقط جزء من سور مدينة إشبيلية المحاذي للبحر، وكان من عادة أهل الأندلس إذا سقط لهم سور إحدى المدن أن يكتب قاضيها إلي أميرها يعلمه بذلك، فيصرف له قيمة بنائه، ومن ثم يتولي القاضي بناء هذا الجزء من السور خشية قدوم =النصارى الأسباب منه، وعلي غرار هذا، طلب أهل إشبيلية من ابن العربي أن يعلم الأمير بذلك، لكنه رفض أن يفعل ذلك، بل عمد إلي أخذ جلود ضحاياهم عن كره منهم، وابتاعها وبنى بئرها الجزء المتهم من السور. ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص ٦٠.

(٢) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص ٦٠ - ٦١.

(٣) عهد لابن الخطيب للقيام بسفارتين إلي بلاط فاس في عهد السلطان أبي عنان، الأولي كانت سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م عندما ورد سفيراً نيابة عن السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل إلي السلطان أبي عنان. والثانية كانت سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م عندما أرسل سفيراً عن أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج الملقب بالغنى بالله إلي السلطان أبي عنان للمرة الثانية، ومن المرجح أن هذه الواقعة قد حدثت في إحدى السفارتين. عبد الهادي التازي: ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ع ٢، ١٩٨٧م، ص ٤٧.

(٤) ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص ٦١.

(٥) نفس المصدر السابق، نفس الصفحة.

هذا ولم يخل عصر بني الأحمر في غرناطة (٦٣٥ - ٨٩٧ هـ / ١٢٣٨ - ١٤٩٢ م) هو الآخر من حوادث ملاحقة القبور والتسلط عليها سواء بالنهب أو الإحراق لأسباب سياسية ومذهبية. فقد تعرض مسلم بن سعيد التتملي^(١) - والذي كان متولياً لخطة الخفارة ومشرفاً علي جمع وجباية الضرائب في عهد سلطان بني الأحمر محمد الثاني الملقب بالفقيه^(٢)، قنمت حاله، وعظم جاهه، ورهبت سطوته^(٣) - لبطش ولي عهد السلطان^(٤) به بعد وفاته سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م، وملاحقته لقبه والتسلط عليه بالنهب والإحراق؛ لأن ولي العهد كان قد أسف بأمور صانعه فيها من باب خدمة والده، فكان يتلمظ لنكبته، ولما تصير إليه الأمر، نبش قبره، وأخرج شلوه، فأحرق بالنار، إغراقاً في شهوة التشفي^(٥).

وأما عن المحنة التي تعرض لها كاتب الأندلس ومؤرخها ووزيرها لسان الدين بن الخطيب - ذلك الرجل الذي ارتفع شأنه فملك زمام السيف والقلم - فهي اتهامه بالزندقة^(٦)

(١) نسبة إلي بلدة تيملال. ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، هامش (١)، ص ٣٣٠.

(٢) محمد الثاني الفقيه: هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، ولد بغرناطة سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٤ م، عُرف بالفقيه لانتحاله طلب العلم ولاهتمامه بقراءة القرآن الكريم، تولي عرش سلطنة غرناطة وهو في الثامنة والثلاثين من عمره، بعدما خبر الحكم طويلاً أيام أبيه. سار علي نفس سياسة أبيه من مصانعة الأقوياء ومداراة الأعداء، واستطاع الوقوف في وجه الفتن بفضل ما بذل من ضروب الاحتيال والدهاء والصبر والحزم. توفي في الثاني من شعبان سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م بعدما ملك تسعاً وعشرين سنة. ابن الخطيب: اللحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح ونشر محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧ هـ، ص ٣٧ - ٣٨، ٤٠.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص ٣٣٠.

(٤) يقصد بولي العهد هنا محمد الثالث المخلوع، ثالث ملوك بني الأحمر، والذي تسلم زمام الحكم في غرناطة سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م، إلا أنه لم يهنأ بالملك طويلاً، إذ أصيب بمرض في عينيه، وعندئذ رأي كبار رجال الدولة أن ملكهم لم يعد يصلح لإدارة شؤون الحكم، بسبب مرض عينيه وحدة طباعه وقرروا خلعهم، ففتكوا به وخلعوه، ثم أشيع بعد ذلك أنه أصيب بسكتة أمانته سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٩ م، في حين يري البعض أنه اغتيل تغريفاً في بركة القصر بتدبير من أخيه نصر الذي بايعه الناس علي العرش. ابن الخطيب: اللحة البدرية، ص ٤٧، ٥٤.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص ٣٣١.

(٦) كثيراً ما كان الاتهام بالزندقة يخفي وراءه أهدافاً سياسية وشخصية، فبعض من اتهموا بها كان يتم توجيه الاتهام إليهم بحجج وأسباب واهية. Maria Isable Firro, Accusation of Zandaq in Al- Andalus, Veneza, Quaderni di Studi Arabi, 1986, P.251.

والإلحاد والخروج علي شريعة الإسلام من جانب خصومه، الذين نسبوا إليه في ذلك أقوالا ومقالات، مما جاء في بعض كتبه ورسائله، أولوها وفق مقاصدهم، وهى التهم التى أثيرت عند محاكمته بفاس، وأوقعت به في فخ النكبة والتصفية الجسدية، فؤخ وئكل وعذب علي الملاً وقتل علي يد خصومه، بل لم يسلم قبره من تسلطهم عليه بالنبش والإحراق، بسبب ما رماه به خصومه لدي سلطانه الغنى بالله سلطان غرناطة^(١).

وتعود المحنة التى تعرض لها ابن الخطيب لظروف الفتنة التى عصفت بمملكة غرناطة ويسلطانها محمد الخامس الغنى بالله^(٢)، الذى خُلع وأقصى من منصبه ليحل مكانه أخوه إسماعيل، وقد عزل معه وزيره المُحك ابن الخطيب، ومن هنا بدأت محنة الرجل ومعاناته، فقد صودرت أملاكه عقب عزله واعتقل وكبست دوره وانتهبت، ولما بلغ خبر هذه الحوادث سلطان المغرب أبي سالم المريني غضب لخلع السلطان وقتل حاجبه، وأرسل في الحال يطلب من إسماعيل المتغلب علي غرناطة أن يسمح لأخيه المخلوع ووزيره ابن الخطيب بالانتقال إلي المغرب، فأجابة السلطان الجديد إلي مطلبه، وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلي المغرب؛ حيث استقبلا بالترحيب، وظل الغنى بالله خلال بقائه بالمغرب يتحين الفرصة لاسترجاع عرشه المسلوب^(٣).

وبالفعل تمكن السلطان المخلوع من استرداد عرشه من جديد بمساعدة المرينيين - بفضل دهاء وحنكة وزيره المُحك ابن الخطيب - مستغلين في ذلك ثورة عارمة وقعت في حاضرة غرناطة، أدت إلي سقوط المعتصب، وعودة الغنى بالله إلي الحكم، الذى ما إن استقرت له الأمور، حتى بعث برسالة إلي وزيره ابن الخطيب سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م يخبره

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٤١-٣٤٢؛ ابن الأحرر: بيوتات فاس، ص٦٢-٦٣.
(٢) هو الغنى بالله محمد بن يوسف الأول، سلطان بنى الأحرر في غرناطة، ولي الملك مرتين، الأولي بعد وفاة أبيه سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، والثانية سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م، اختص أمور الحجابة بيد رضوان حاجب أبيه، وجعل الوزارة لابن الخطيب كاتب الأندلس ومؤرخها المشهور. ابن الخطيب: اللحة البدرية، ص١٠٠؛ الإحاطة، ج٢، ص١٥.
(٣) ابن الخطيب: اللحة البدرية، ص١٠٨-١٠٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٠٦؛ المقري: نفح الطيب، ج٥، ص٨٤-٨٥؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص٢٠٢، ٢٠٣؛ يوسف شكري فرحات: غرناطة في ظل بنى الأحرر، ص٣٨.

فيها بنجاحه في استرجاع عرشه، ويطلب منه العودة ليتقلد منصبه الوزاري؛ ونزولاً عند رغبة السلطان الغرناطي، جاز ابن الخطيب بلاد المغرب إلي غرناطة^(١). وفي تلك الآونة كثر خُصوم ابن الخطيب حتى وقع ضحية التآمر داخل البلاط الغرناطي، بسبب استنثاره بالسلطة، وانفراده بالحل والربط، مما جمع حوله الحساد والمبغضين، الذين أثمرت سعاياتهم لدي سلطان غرناطة، ويأتي علي رأس هؤلاء تلميذه وخلفه في الوزارة ابن زمرك^(٢)، الذي انقلب ضده، فبدأ مركزه يضعف يوماً بعد يوم، فقرر ترك السياسة ومشاكلها، بسبب توالي السعايات ضده، وشعوره بالإحباط وعدم قدرته علي مواجهة دسائس خصومه، فقرر الاتجاه نحو حياة الزهد والاعتكاف^(٣)، وزيارة بيت الله الحرام، وإيثار الآخرة علي الدنيا^(٤). ولمّا شعر ابن الخطيب بتغيير سلطانه عليه، ورفضه السماح له بأداء فريضة الحج، أو حتى اعتزال العمل السياسي، فما كان من ابن الخطيب إلا أن احتال علي سلطانه، بحجة تفقد الثغور الغربية، ومنها عقد العزم علي الفرار إلي المغرب، بعدما ينس من السياسة ومتاعبها، فكتب رسالة إلي سلطانه الغني بالله يودّعه فيها، ويشرح له دواعي استقالته، وبعدها جاز المضيق متجهاً إلي سبتة في غرة جمادي الآخرة من سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٢م، تاركاً أعباء الوزارة بالأندلس، فاراً إلي ما يرجوه من حياة هادئة في كنف السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز، الذي استقبله أحسن استقبال^(٥).

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٣١٥، ٣١٤؛ ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٤؛ المقري: نفح الطيب، ج ٥، ص ١٠٠.

(٢) هو محمد بن يوسف بن محمد، يعرف بابن زمرك، أحد أبناء وكتاب الأندلس الكبار، ولد ونشأ بغرناطة، ترقى في الأعمال الكتابية إلي أن جعله صاحب غرناطة الغني بالله كاتم سره سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٢م، ثم وزيراً له، توفي في عهد سلطان بني نصر محمد السادس مقتولاً شر قتلة، مع بعض أبنائه. ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٤١؛ المقري: نفح الطيب، ج ٥، ص ١٣٤؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ٧، ص ١٥٤؛ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر النول والإمارات، الأندلس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٠٧.

(٣) الناصري: الاستقصا، ج ٤، ص ١٣.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٣١٧.

(٥) نفسه، ق ٢، ص ٣١٨؛ ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٥؛ المقري: نفح الطيب، ج ٥، ص ٩٩ - ١٠٠.

وعلي الجانب الآخر، استمر خصوم ابن الخطيب في إشعال نيران الاتهام ضده، فرموه بالإلحاد والخروج عن الشرع في بعض ما كتب في مؤلفاته^(١). وكان أبرز مروج لهذه الدعاية المسمومة كما هو معلوم، تلميذه وخلفه في الوزارة ابن زمرك، فضلاً عن قاضي الجماعة أبو الحسن النباهي أحد كبار خصومه والمفتين بقتله، والذي كان من قبل من أوفى أصدقاء ابن الخطيب قبل أن تتغير العلاقة بينهما، والذي بعث برسالة إلي ابن الخطيب يتهمه فيها بالكفر والإلحاد^(٢).

ولا يتسع لنا المجال هنا للبحث عن حقيقة الأسباب التي نشأ عنها هذا الخلاف، إلا أن هذا الأخير - النباهي - لم يكن قطعاً بريئاً من المشاركة في الحملة التي شنت علي ابن الخطيب، فجعلته هدفاً للمكائد والشايات والتهم، فقد تغيرت النفوس عليه، وجرت له أتعس الانقلابات، وكثرت السعايات ضده، وتكرر له من كان هو سبباً في رفع مكانتهم، ولم يكن ابن الخطيب غافلاً عما يجري من حوله، فهو يقول في وصف تلك الظاهرة التي ألمت به "وصرت أنظر إلي الوجوه، فألمح الشر في نظراتها، وأعتبر الكلمات فأثبتين الحسائف (الأحقاد) في لغاتها، والضغينة في كل يوم تستحکم والشر يتضاعف"^(٣). وبذلك يكون كيد خصوم ابن الخطيب قد اشترك فيه تياران: إحداهما سياسي بزعامة خلفه في الوزارة ابن زمرك، وتيار آخر عقدي بزعامة النباهي، استهدف تصفيته من خلال الهجوم علي رأس ماله الثقافي، متخذين من المكائد والشايات والدسائس آلية لاكتساب الخطوة، وإقصاء الآخرين.

ونتيجة لكل هذه التهم التي نجحت إلي حد بعيد، أفتى عدو ابن الخطيب الألد قاضي الجماعة أبو الحسن النباهي بوجوب حرق كتبه التي تتناول العقائد والأخلاق، فجمعت طائفة من كتب ابن الخطيب وأحرقت بحضرة غرناطة في منتصف سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧٢م "بمحضر من العلماء والفقهاء والمدرسين لما تضمنته الكُتب المذكورة من المقالات التي

(١) ابن خلدون: العير، ج٧، ص٣٣٥؛ محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٦٨م، ص١٥٦.

(٢) المقري: فح الطيب، ج٥، ص١١٨-١١٩، ١٢٢؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص٢١٢-٢١٣؛ محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب، ص١٥٦، ١٥٧.

(٣) ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٨.

أوجبت ذلك عندهم، وحققته لديهم" (١)، بعد صدور فتوى فقهية بذلك، علي أساس أنها تطعن في العقيدة والدين، وتتطوي علي إلحاد وكفر (٢). وهكذا، نجح خصومه في طمس تراثه والعبث به وإحراقه، عندما لم تُجد محاولاتٍهم للتخلص منه.

وفي سياق متصل، أرسل الغني بالله إلي نظيره المريني السلطان عبد العزيز كتاباً يطلب منه فيه تنفيذ حكم الشرع في الوزير المُلحد، وهو الإعدام، أو تسليمه إلينا، فما كان من سلطان بنى مرين إلا أن رفض طلبه، متعللاً بقوله: "هلا انتقمتم منه وهو عنكم وأنتم عالمون بما كان عليه، وأما هنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارى" (٣)، بل زاد العاهل المغربي من تقريب ابن الخطيب وإكرامه، وأغدق عليه حمايته من كيد أعدائه الذين يترصدون به.

وكانت وفاة السلطان المريني عبد العزيز سنة ١٣٧٢هـ/١٧٧٤م مفاجأة مؤلمة للبلاد المريني ولابن الخطيب؛ إذ نودي في الحال بولاية ولده القاصر السعيد، مما فتح باباً للصراع بين الوزراء والأوصياء علي العرش، فغادر السعيد بلاط أبيه بتلمسان في اتجاه فاس ومعه ابن الخطيب الذي تقوى مركزه في بلاط السلطان الجديد (٤). ورغم ذلك، لم تهدأ محاولات الغني بالله في الإيقاع بابن الخطيب، إلا أنه فشل في مسعاه؛ لسمو مكانة ومنزلة ابن الخطيب لدي السعيد، ومن ثم ساءت العلاقة بين بلاطي فاس وغرناطة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلي تدبير مؤامرة من لدن تكبير حكام غرناطة للإطاحة بالملك السعيد، عندما حرض سلطان غرناطة بعض الثوار والخوارج من بنى مرين علي الإنقلاب والثورة علي السلطان المريني الذي أبي أن يلبي رغبة السلطان الغرناطي في القضاء علي وزيره السابق، وأمدهم بما يحتاجون إليه، حتى تمكنوا من الإطاحة بالسلطان السعيد، وتتصيب الأمير أبي العباس بن أبي سالم مكانه سنة ١٣٧٦هـ/١٣٧٤م (٥).

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٢٤٤.

(٢) كانت الكتب الفلسفية والكلامية من الكتب المذمومة بالأندلس. المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ٢٢١.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثاني، ص ٣٢٠.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٦؛ المقري: أزهار الرياض، ج ١، ص ٢٢٥.

وسرعان ما بادر العاهل المريني الجديد بمجرد نجاح المؤامرة بإلقاء القبض علي ابن الخطيب، فحُوكم بعدما نُسبت إليه طائفة من التهم التي وجهت إليه في غرناطة، وكانت النية منصرفة إلي تصفيته، وكان للنباهي وابن زمرك اليد الطولي في إعداد وصياغة هذه التهم، التي قذفت به نحو مربع النكبة والهلاك، ولم يكن الباعث علي هذا البغض الشديد من جانب الغنى بالله لوزيره السابق ابن الخطيب، هو فراره من الأندلس أو ما نسب إليه من تهم الزندقة والإلحاد والكفر؛ لأن الباعث الحقيقي كان أشد من ذلك وأخطر، وهو أن ابن الخطيب كان رداً منه علي مساعي خصومه، قد أخذ يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس وافتتاحها، والاجهاز علي بني الأحمر في غرناطة، وقد نجح بالفعل ابن الخطيب في هذا الإجراء، ووضعت لذلك خطة تقرر تنفيذها عند رجوع العاهل المغربي إلي فاس^(١)، وقد أبانت الوقائع فيما بعد صحة ذلك.

وعلي كل حال، فقد تُرك ابن الخطيب لمصيره المحتوم الذي سيؤول إليه، بعدما كالوا له التهم جزافاً، فقبض عليه وعذب أمام الملأ، وزج به في زنزانة مظلمة، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله، ففس عليه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد من حاشيته، فطرقوا سجنه ليلاً، ومعهم بعض الخدم الأندلسيين الذين جاءوا مع سفراء ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في سجنه، وأخرجوا جثته في الغد، فدُفنت بالمقبرة الواقعة تجاه باب المحروق^(٢)، أُعد أبواب فاس القديمة، ثم أُخرجت جثته في اليوم التالي، وطُرحت فوق القبر لينظره الناس، ثم جمعت لها أعواداً وأضرمت حولها النيران، فاحترق شعره واسودت بشرته، ثم أعيدت الجثة إلي القبر قبل أن تحترق كلياً، وتركت هنالك لتتوى الثواء الأخير، وكان في ذلك انتهاء محنة

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٤١؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ج١، ص٢٢٥؛ عبد الهادي التازي: ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، ص٩٤.

(٢) هو باب الشريعة القائم من ناحية فاس الجديد، سمي بباب المحروق منذ العهد الموحي عندما أحرق به أحد الثوار بعد صلبه لمدة خمسة عشر يوماً، فسمي باب المحروق. الجزائلي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١م، ص٤٣؛ ابن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنوية، ص٣٨؛ ابن إدريس الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، (د.ت)، ج٣، ص٢٠٢.

ابن الخطيب. وقد وقعت هذه المأساة المؤلمة في ربيع الأول أو ربيع الآخر سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م^(١).

وعادة ما كان يتم اللجوء إلى القتل والإحراق بالنار مثلما حدث لابن الخطيب إغراقاً في شهوة التنفي والانتقام من الخصوم^(٢)، وقد لخص ابن خلدون هذا المآل المشؤوم الذي طال صديقه ابن الخطيب بقوله إنه: "الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه"^(٣)، أو كما قال محمد عبد الله عنان أنه ذهب "ضحية الجهالة والتعصب، والأحقاد السياسية الوضيعة"^(٤). كل هذه القرائن وغيرها تنهض دليلاً على أن نبش القبور وتدنيسها والعبث بمحتوياتها لم يكن غريباً على مجتمع الغرب الإسلامي، وأن هذا النهج من جانب السلطة ضد خصومها كان بمثابة الداء القاتل الذي أدى إلى تراجع الغرب الإسلامي في هذه الحقبة الخطيرة من تاريخه، ومن الغريب أن معظم من تعرضوا لنبش قبورهم في الغرب الإسلامي قد تعرضوا للظلم والافتراء أكثر من مرة: إما بنبش قبورهم وحرق تراثهم الفكري من طرف السلطة، وإما بالباطل من قبل المؤرخين الرسميين بالطمس والتهميش والسكوت عن مثل هذه الأفعال الشنيعة.

٢ ظاهرة طمس وإخفاء القبور خشية نبشها:

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٤٣؛ ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢؛ ابن الأحمر: بيوتات فاس، ص ٦٢-٦٣؛ المقرئ: أزهار الرياض، ج ١، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣، ص ٣٣١. لم يكن ابن الخطيب وحيد عصره الذي تعرض للتكيد والقتل والإحراق، فابن الأبار تعرض هو الآخر لشر موته، وكان من الذين امتحنوا في علاقتهم بالسلطة، إذ اتهم بالتريص بالدولة الحفصية، فضرب بالسياط ونكل به، وقتل فعصاً بالرماح في محرم سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، ثم أحرق شلوه، وأكلت النار جسده، تلك النار التي لم ينطفئ نورها بما كانوا يلقون فيها من كتبه ومؤلفاته، حتى تحول جسده إلى رماد داكن اللون، كل ذلك على مرأى من الناس الذين أخرجت بعضهم رهبة الموت، وكانت قد شفت غل بعضهم الآخر. ابن الأبار: الحلة السيرة، ج ١، ص ٤٥، ٤٦؛ (من مقدمة المحقق)؛ المقتضب من كتاب تحفة القاد، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط ٣، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م، ص ١٩، ٢٥، ٢٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٤٢٥؛ ابن الأحمر: كتاب مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق محمد التركي التونسي، مراجعة محمد بن تاويت التطواني، منشورات جامعة محمد الخامس، تطوان، ١٩٦٤م، ص ٨٧؛ المقرئ: أزهار الرياض، ج ٣، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ٤٩٦.

(٤) لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، ص ١٦٩-١٧٠.

وبقي أن نشير أخيراً إلى ظاهرة طمس وإخفاء قبور المسلمين في الأندلس خوفاً من تعرضها للنهب والتخريب من جانب الأسيبان خلال المواجهات والصدامات المسلحة الدائرة بين القوي السياسية في المغرب والأندلس، وبين ممالك إسبانيا المسيحية في الشمال، ورغم افتقارنا إلى إشارات واضحة تفيد بقيام النصارى الأسيبان بنهب قبور المسلمين، فأنا نتوفر على إشارات في غاية الأهمية عن طمس وإخفاء قبور المسلمين خشية تسلط النصارى عليها بالتخريب والنهب.

وأول هذه الإشارات يعود إلى انتصار المسلمين في عهد أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب المريني المعروف بالمنصور على قوات مملكة قشتالة بقيادة القائد "نونيو دي لارا" الذي تقدر بعض الروايات جيشه بثلاثين ألف فارس وستين ألف راجل^(١)، وتسميه المصادر العربية باسم "ذنه أو ذونونه"، في ١٥ ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م؛ حيث تمكن المسلمون من تبديد جيشه بين قتيل وأسير وفار، ومزقوا قوات قشتالة شرّ ممزق^(٢).

ونكرت بعض الروايات أن عدد رؤوس القتلى من النصارى في هذه المعركة بلغ ثمانية عشر ألف قتيل^(٣)، وفي رواية أخرى ستة آلاف من النصارى^(٤)، حتى بدت كالجبل العظيم. وكانت جملة من استشهد من المسلمين أربعة وعشرين رجلاً؛ حيث يقول ابن أبي زرع: "ثم تفقد أمير المسلمين جيوشه ونظر من استشهد منهم في تلك الغزاة .. فكانت جملتهم أربعة وعشرين رجلاً، فأمر المسلمين بدفنهم ومواراتهم وتعفية آثار قبورهم"^(٥)؛ خوفاً من تسلط النصارى عليها بالنهب والتخريب.

ونتوفر على إشارة أخرى في غاية الأهمية تكشف عن رغبة فقيه أندلسي في طمس قبره بعد وفاته، خشية نهبه وتدميره على يد الأسيبان، وهذه الإشارة التي أوردتها التجاني تخص شخصاً يدعي أبو يعقوب الخشاب، الذي كان يقيم في مدينة طرابلس متعبداً متزهداً، قبل أن

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، ص ٥٦٥.

(٣) ابن أبي زرع: الأئيس المطرب، ص ٣١٨؛ نفسه، الذخيرة السنية، ص ١٥٠.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ١٩٣.

(٥) ابن أبي زرع: الذخيرة، ص ١٥٠.

يتركها وينتقل إلي مدينة تونس، ومنها جاز البحر إلي جزيرة جربة^(١) التي توفي بها، وكان هذا الفقيه قد أوصي قبل وفاته "بتعمية قبره؛ فلا يوقف له بها الآن علي قبر"^(٢).
وحسب رواية التجاني والتي يقول فيها "ويظهر لي أن ذلك والله أعلم لأنه اطلع علي النصارى ستملك تلك الجزيرة بعد، فكره إشهار قبره بين قوم كفار، أو لأنه مال علي أحد القولين عندنا في تكفير أهلها بما شرحناه من مذهبهم الفاسد"^(٣)، فإن هذا الفقيه كان يخشى علي نفسه - بسبب اختلال أمر الأندلس منذ نهاية القرن ١٠هـ / ١٠م وبداية القرن ١١هـ / ١١م - من تعرض الأسباب لقبره بالنش والتخريب إذا تمكنوا من الجزيرة، وفي الوقت نفسه خوفه من أهل الجزيرة أنفسهم، بسبب تعرضه لهم ولمذهبهم الفاسد من أن ينكلوا به ويقبره بعد وفاته. ونتوفر علي إشارة أخرى تفيد بتعرض الأسباب لقبور المسلمين في الأندلس بالطمس والتخريب، هذه الإشارة تخص فقيه أندلسي من مدينة بلنسية^(٤) يدعي محمد بن جعفر بن خيرة القرطبي البننسي^(٥)، الذي توفي سنة ١١٥٧هـ / ١١٥٢م وقد قارب علي المئة، فدفن خارج باب بيطالة، فأصبح قبره مزاراً للناس يتبركون به، إلي أن استولي الأسباب علي

(١) جزيرة جربة: من أعظم الجزر خطراً، طولها من المغرب إلي المشرق ستون ميلاً، وعرضها عشرون ميلاً، أكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين والنفاح الذي لا يوجد له نظير، أهلها ينقسمون إلي فرقتين، فرقة تعرف بالوهبية، والأخرى تعرف بالنكارة، وكلا الفرقتين خوارج غلاة في مذهبهم مكفرون، لا يلامسون بثيابهم ثياب = أحد ممن ليس علي مذهبهم، ولا يؤاكلونه في آنيته، وإن استسقي عابر سبيل ماء من بعض آبارهم استخرجوا ماء البئر كله. للمزيد انظر الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، مج ١، ص ٣٠٥؛ رحلة التجاني، ص ١٢١ - ١٢٦.

(٢) رحلة التجاني، ص ٢٦١.

(٣) نفسه والصفحة.

(٤) مدينة بلنسية: من أهم قواعد الأندلس، تقع في إقليم شرق الأندلس، علي مسافة ثلاثة أميال من ساحل البحر المتوسط، يحدها من الشمال مدينة طرطوشة، ومن الجنوب مدينة دانية ومرسية، ومن الغرب طليطلة. الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر، ص ١٩١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، مج ١، ص ٤٩٠؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر وتعليق إيلفي بروفسال، ط ٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٤٧.

(٥) كان هذا الفقيه من نهاء مدينة بلنسية، معروفاً بالنزاهة والفضل، ومتولياً للخطبة بجامع المدينة. ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج ٢، ص ١٣؛ عبد الملك المراكشي: النيل والتكملة، مج ٤، ص ٦، ص ١٦٦ - ١٦٧.

بلنسية^(١) في أواخر صفر سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م "قطمسوه وسائر قبور المسلمين"^(٢). ولعل في هذه الإشارات، ما يؤكد إقدام النصارى الأسبان علي نبش قبور مسلمى الأندلس، رغم إغفال المصادر التاريخية لتلك الوقائع.

(١) بعد هزيمة العقاب القاسية سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م، ضعفت قوة الموحدين وخارت قواهم، وعادت الأندلس إلي سابق عهدا من التشتت والفرقة، فقويت شوكة حركة الاسترداد الإسبانية، وبدأ مشروع ملك أرغون للاستيلاء علي مدينة بلنسية بفرض الحصار عليها ورميها بالمجانيق، وبلغ أهلها مبلغاً من شدة الجوع، ونفاد الأقوات، حتى اضطروا إلي تسليمها صلحاً سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م، فاستباح الأسبان منازلها وأراضيها، وقسموها بين رجالهم، مما أدي إلي تشريد أهلها. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق ٢، ص ٢٧٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص ٩٧؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط ٢، ١٩٩٠م، القسم الثاني، ص ٤٥٠ - ٤٥١.

(٢) ابن الآبار القضاعي: التكملة لكتاب الصلة، ج ٢، ص ١٣؛ عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، مج ٤، ص ٦، ص ١٦٦ - ١٦٧.

الخاتمة

لا شك أن معالجة موضوع "ظاهرة نبش القبور وتخريبها في الغرب الإسلامي" هو في حد ذاته إشكالية، لاسيما في ظل غياب حجج وأدلة قاطعة تبرهن على تقدم وازدهار تلك الظاهرة خلال الفترة المعنية بالدراسة، فالحديث عن نبش القبور أو تدنيس شواهدها وتخريبها، وحتى العبث بمحتوياتها، لا يزال محاطاً بالكثير من الغموض والكتمان، لكن المؤكد أن تلك الظاهرة كانت أساساً مهماً من الأسس التي انبنى عليها قهر السلطة للخصوم والمناوئين والمعارضين خلال العصر الوسيط، وبعد استعراضنا للموضوع من كافة جوانبه، خلصنا إلى بعض النتائج من هذه الدراسة، نذكر منها:

- (١) بيّنت الدراسة أن المسلمين عبر تاريخهم الطويل منذ بداية الدعوة الإسلامية وحتى نهاية فترة البحث قد مارسوا نبش القبور في فترات مختلفة من تاريخهم، وقد بدأ ارتكابهم لهذا الفعل الشنيع مع بداية الصراع السياسي بينهم علي الخلافة، رغم أن الإسلام في نصوصه وتعاليمه لم يدعُ إلي تخريب القبور أو المساس بها، كما نهى أيضاً عن التمثيل بالجثث والعبث بها.
- (٢) اقتصر الدوافع والأسباب الكامنة وراء نبش القبور في الغرب الإسلامي خلال فترة البحث علي الصراعات السياسية والخلافات المذهبية والفلسفية والكلامية.
- (٣) سيطرة البعد السياسي علي أغلب ظواهر نبش القبور المرصودة، ممثلاً في الرغبة في الانتقام من المخالفين والخصوم والثوار والمناوئين وإذلالهم بانتهاك حرمة قبورهم بعد رحيلهم عن الحياة، ولا غرو في ذلك، فالكيانات السياسية آنذاك اعتبرت أعداءها ومن ينحو منحاهم، ليسوا أعداء وخصوصاً سياسيين فحسب، بل كفاراً - وهم إخوان لهم في الدين - يجب جهادهم وإزهاق أرواحهم، ونبش قبورهم إمعاناً في التشفي والانتقام منهم، معتمدين في ذلك علي مبررات دينية وسياسية.
- (٤) توصلت الدراسة إلي أن معظم من تعرضوا لنبش قبورهم في الغرب الإسلامي قد تعرضوا للظلم والافتراء أكثر من مرة: إما بنبش قبورهم وحرق تراثهم الفكري من طرف السلطة، وإما بالباطل من قبل المؤرخ بالطمس والتهميش والسكوت عن وقائع وأحداث

- مثل هذه الأفعال الشنيعة، التي لم تذكر في المصادر إلا بنصف الكلمات، ولم تظهر في المصادر إلا بشكل باهت، بل نكاد نجهل كل تفاصيلها، بعدما أُسدل ستاراً من الصمت علي وقائعها.
- (٥) لم تصل ظواهر نبش القبور التي تم رصدها خلال فترة البحث إلي حد الظاهرة الإجرامية الفجة؛ نتيجة لعوامل كثيرة تتعلق بالواقع التاريخي الذي يؤكد أن تلك الانحرافات والممارسات لم تكن طابعاً غالباً، وإنما مست أفراداً، ولم يكن بإمكانها أن تشكل تياراً بارزاً في مجتمع الغرب الإسلامي.
- (٦) لم تقتصر ظواهر نبش القبور في الغرب الإسلامي علي فئة اجتماعية معينة، حيث شملت السياسيين من المخالفين والخصوم والمناوئين، وكذا الوزراء والفقهاء والقضاة.
- (٧) حاولت الدراسة قدر الإمكان أن تميظ اللثام عن الغموض الذي يكتنف أحداث ووقائع نبش القبور وتدنيس شواهدا وتخريب محتوياتها، والدوافع والظروف الكامنة وراء ذلك.

قائمة المصادر والمراجع العربية والمعربة

أولاً: المصادر العربية المطبوعة:

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي، ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢م.
- (٣) _____، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م.
- (٤) ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م): الحلة السيرة، جزآن، تحقيق حسين مؤنس، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
- (٥) _____، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ج ١.

- ٦ _____ ، المقترض من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط٣، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩م.
- ٧ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، مج٥.
- ٨ ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن يوسف، ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م): بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.
- ٩ _____ ، كتاب مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق محمد التركي التونسي، مراجعة محمد بن تاويت التطواني، منشورات جامعة محمد الخامس، تطوان، ١٩٦٤م.
- ١٠ ابن الجوزي (أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، ت ٥٩٧هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج٥.
- ١١ ابن الخطاب المالكي المغربي (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المالكي المغربي، ت ٩٥٤هـ): مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، ط١، دار الرضوان للنشر، موريتانيا، نواكشوط ، ٢٠١٠م، مج٢.
- ١٢ ابن الخطيب (لسان الدين بن الخطيب، ت ٧٦٦هـ/١٣٧٤م): أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق إيليفي بروفنسال، ط٢، دار المكتشف، بيروت، ١٩٥٦م، القسم الثاني.
- ١٣ _____ ، أعمال الأعلام ..، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤م، القسم الثالث.
- ١٤ _____ ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ٤ أجزاء.
- ١٥ _____ ، الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تصحيح السيد البشير الفورتي، طبعة تونس، ١٣٢٩هـ.

- ١٦) _____ ، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣ م.
- ١٧) _____ ، اللحة البدرية في الدولة النصرية، تصحيح ونشر محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧ هـ.
- ١٨) ابن القطان المراكشي (أبو الحسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي، ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، دراسة وتحقيق محمود علي مكي، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠ م.
- ١٩) ابن المبارك (عبدالله بن المبارك، ت ١٨١ هـ): كتاب الجهاد، تحقيق وتعليق نزيه حماد، دار المطبوعات الحديثة، جدة، (د.ت)، ج ١.
- ٢٠) ابن المؤقت (محمد بن محمد بن عبد الله بن المبارك المراكشي): السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، طبع بمطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٤١ هـ.
- ٢١) ابن الهمام الحنفي (كمال الدين محمد بن عبد الواحد، ت ٨٦١ هـ): شرح فتح القدير، تعليق الشيخ عبد الرازق غالب المهدي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م، مج ٢.
- ٢٢) ابن الوردي (زين الدين عمر بن مظفر، ت ٧٤٩ هـ): تاريخ ابن الوردي، ط ٢، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٩ م، ج ١.
- ٢٣) ابن بسام (أبو الحسن علي، ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ - ١٩٧٩ م، ٨ أجزاء.
- ٢٤) ابن بشكوال (أبي القاسم خلف بن عبد الملك، ت ٥٧٨ هـ / ١٠٨٣ م): الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط ١، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٩ م.
- ٢٥) ابن بطل (أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، ت ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م): شرح صحيح البخاري، تعليق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط ٢، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٣ م، ج ٢.

- (٢٦) ابن بلكين (الأمير عبدالله بن بلكين بن باديس بن حبوس): مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان، نشر وتحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥ م.
- (٢٧) ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، ت ٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٦٣ م، ج ٢.
- (٢٨) ابن تومرت: كتاب أعز ما يطلب، تحقيق وتقديم عمار الطالبى، الجزائر، ١٩٨٥ م.
- (٢٩) ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتب أبوابها وأحاديثها محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، دار السلام، الرياض، ٢٠٠٠ م، ج ١.
- (٣٠) ابن حزم الأندلسي (أبو عبد الله علي بن أحمد بن سعيد، ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م): المحلى، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٩ هـ، ج ٥.
- (٣١) _____، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧ م، ج ٣.
- (٣٢) ابن حماد (أبو عبدالله محمد بن علي، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة و عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٤٠١ هـ.
- (٣٣) ابن حيان القرطبي (أبو مروان بن حيان، ت ٤٦٩هـ): المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن على الحجى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥ م.
- (٣٤) ابن خاقان (أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسى، ت ٥٢٩هـ): قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق وتعليق حسين يوسف خربوش، ط ١، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الأردن، ١٩٨٩ م، ج ١، ٢.
- (٣٥) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوي السلطان الأكبر، تقديم عبادة كحيلة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧ م، الأجزاء ٤، ٦، ٧.

- ٣٦ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، مج ٥.
- ٣٧ ابن رشد القرطبي (أبو الوليد محمد بن أحمد، ت ٥٢٠هـ/١١٢٦): المقدمات الممهدة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأمهاة مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ج ١.
- ٣٨ _____، مسائل أبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد الحبيب، ط ٢، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣م، مج ٢.
- ٣٩ ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزهري، ت ٢٣٠هـ): كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م، ج ٣.
- ٤٠ ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى، ت ٦٨٥هـ/١٢٨٤م): المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، جزءان.
- ٤١ _____، ربايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق وتعليق محمد رضوان الداية، ط ١، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٧م.
- ٤٢ ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن صاحب الصلاة، ت ٥٩٤هـ/١١٩٨م): المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م.
- ٤٣ ابن صاعد الأندلسي (أبي القاسم أحمد بن صاعد، ت ٤٦٣هـ/١٠٦٩م): طبقات الأمم، نشر لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢م.
- ٤٤ ابن عاصم (أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، ت ٨٥٧هـ): جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق صلاح جرار، دار البشير للتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٩م، مج ١.
- ٤٥ ابن عبد البر القرطبي (أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، ت ٤٦٣هـ): الاستنكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معانى الرأى والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تحقيق عبد

- المعطي أمين قلجى، دار قنينة للطباعة والنشر، دمشق _ بيروت، دار الوعي، حلب _ القاهرة، ١٩٩٣م، مج ٨.
- (٤٦) ابن عبد الحكم) عبد الرحمن بن عبد الله، ت ٢٥٧هـ / ٨٧١م): فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤م.
- (٤٧) ابن عبد الكريم الراعى القزوينى (أبي القاسم عبد الكريم بن محمد، ت ٦٢٣هـ): العزيز، شرح الوجيز المعروف بالشرح الكبير، تحقيق وتعليق علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٢.
- (٤٨) ابن عبد الملك المراكشى (أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الملك، ت ٧٠٣هـ): الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة، السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، ط ١، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، القسم الأول والثاني؛ الأسفار الرابع والخامس والسادس، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)؛ السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٤، القسم الأول.
- (٤٩) ابن عذاري (أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشى، ت حالي ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، الأجزاء ١، ٢، ٣؛ الجزء الرابع، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م؛ قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط ١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.
- (٥٠) ابن عساكر (أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله المعروف بابن عساكر، ت ٥٧١هـ): تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ج ٣١.
- (٥١) ابن غازي (محمد بن غازي العثماني): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط ٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٨م.

- ٥٢ ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٠هـ): الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، ط ١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م، ج ١.
- ٥٣ ابن قدامة (موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، ت ٦٢٠هـ): المغنى، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي عبد الفتاح محمد الحلوة، ط ٣، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٧م، ج ١٢.
- ٥٤ ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين بن كثير، ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩١م، الأجزاء ٧، ١٠.
- ٥٥ ابن مرزوق (محمد بن مرزوق التلمساني، ت ٧٨١هـ/١٣٧٩م): المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بن عياد، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٥٦ ابن مفلح المقدسي (شمس الدين محمد بن مفلح المقدسي، ت ٧٦٣هـ): كتاب الفروع، تحقيق عبد الله بن محسن التركي، ط ١، مؤسسة الرسالة _ دار المؤيد، ج ٣، ٢٠٠٣م.
- ٥٧ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، ت ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، الأجزاء ٤٦، ٤٨.
- ٥٨ أبي الحسن الماوردي (أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م): الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد عوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، تقديم محمد بكر إسماعيل وعبد الفتاح أبو سنة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج ١٣.
- ٥٩ _____، الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- ٦٠ أبي زكريا بن شرف النووي (أبي زكريا محي الدين بن شرف، ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م): كتاب المجموع، شرح المذهب للشيرازي، تحقيق وتعليق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد، جدة، السعودية، (د.ت)، ج ٥.

- ٦١) الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي، ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م):
صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في
اختراق الآفاق، تحقيق دوزي ودي غوية، طبع بمدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل،
١٨٦٦م.
- ٦٢) __، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢هـ، مج ١.
- ٦٣) الإمام مالك (أبو عبد الله مالك بن أنس، ت ١٧٩هـ/٧٩٦م): موطأ مالك، رواية يحيى
بن يحيى الليثي الأندلسي، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف، ط ٢، دار الغرب
الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، مج ١.
- ٦٤) البكري (أبو عبيد الله عبد العزيز بن محمد، ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م): المغرب في ذكر
بلاد أفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت).
- ٦٥) __، المسالك والممالك، تحقيق أريان فان ليوفن وأندي فيري، ط ٢، المؤسسة
الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، الدار العربية للكتاب، بيت الحكمة، تونس،
١٩٩٢م، جزءان.
- ٦٦) البيهقي (أبو بكر بن علي الصنهاجي، ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م): أخبار المهدي بن
تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م
- ٦٧) البيهقي (أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البهقي، ت ٤٥٨هـ): السنن الكبرى،
تحقيق محمد عبد القادر، ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ج ٨.
- ٦٨) التجاني (أبو محمد عبدالله بن محمد التجاني، ت ٧١٧هـ): رحلة التجاني، تقديم
حسن حسنى عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨١م.
- ٦٩) الجزائني (علي الجزائني): جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب
بن منصور، ط ٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١م.
- ٧٠) الجونري (أبو علي منصور العزيري): سيرة الأستاذ جونر به توقيعات الأئمة الفاطميين،
تحقيق محمد كامل حسين و محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٤م.

- ٧١ الحسن البصري (أبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن البصري، ت ٣٧٨هـ):
التفريع في فقه الإمام مالك بن أنس، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية،
بيروت، ٢٠٠٧م، مج ٢.
- ٧٢ الحميري (محمد بن عبد المنعم، ت في أواخر القرن ٥٩/١٥م): الروض المعطار في
خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٧٣ _____، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار،
نشر وتعليق إيليفي بروفنسال، ط ٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٧٤ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ): تاريخ خليفة ابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري،
ط ٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥م.
- ٧٥ خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦هـ): الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من
العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ٧.
- ٧٦ الذهبي (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨/١٣٤٧م):
سير أعلام النبلاء، ج ٦، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، ط ١١، مؤسسة
الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.
- ٧٧ الزركشي (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم، توفي في نهاية القرن التاسع الهجري):
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، ط ٢، المكتبة
العتيقة، تونس، ١٩٦٦م.
- ٧٨ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، ت
٩١١/١٥٠٣م): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج ١.
- ٧٩ _____، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،
ط ١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج ١.
- ٨٠ _____، تاريخ الخلفاء، ط ١، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٣م.

- ٨١) الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ت ٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، مج ١٠.
- ٨٢) الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، ت ٥٩٩هـ): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٧٦م.
- ٨٣) الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ت ٣١٠هـ): تاريخ الطبري المسمى تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ج ٤.
- ٨٤) العباس بن إبراهيم السملالي المراكشي: الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور، ط ٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣م، ج ٩.
- ٨٥) عبد الواحد المراكشي (محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي، ت ٦٤٧هـ/١٢٥٠م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلي آخر عصر الموحدين، تحقيق وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط ١، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩م.
- ٨٦) _____، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، ط ١، الثقافة الدينية، ١٩٩٧م.
- ٨٧) القاضي عياض (عياض بن موسى السبتي، ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج ١، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، الرباط، ١٩٦٥م؛ ج ٢-٣-٤ تحقيق عبد القادر الصحرأوي، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٨٣م؛ ج ٥، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة فضالة، (د.ت)؛ ج ٦-٧-٨، تحقيق سعيد احمد أعراب، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٦م.
- ٨٨) _____، الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.
- ٨٩) الكتاني (أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس، ت ١٣٤٥هـ): سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحزمة بن محمد الطيب الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر، دار البيضاء، المغرب، (د.ت)، ج ٣.

٩٠. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤م.
٩١. مجهول (كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق سعد زغول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ١٩٨٦م.
٩٢. مجهول(من أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي): الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٩٣. محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ): الأم، تحقيق وتخريج رفعت فوزى عبد المطلب، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ٢٠٠١م، ج٢.
٩٤. محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، مج١.
٩٥. المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن المسعودي، ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به كمال حسن مرعى، ط١، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ٢٠٠٥م، ج٣.
٩٦. المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري، ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.
٩٧. المقري (أحمد محمد التلمساني، ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م): نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، المجلدات ١-٢-٣-٤-٥.
٩٨. _____، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩م، ٣ أجزاء.

- ٩٩) المقريزي (تقى الدين أحمد بن علي، ت ٨٣٤هـ/١٤٣٠م): السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٦م، ج ١، ق ٢.
- ١٠٠) الموسوعة الفقهية: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٤٠.
- ١٠١) الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد، ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٥٤م، الإجزاء ١، ٢.
- ١٠٢) النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، ت بعد سنة ٧٩٢هـ): تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ضبط وشرح وتعليق مريم قاسم طويل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- ١٠٣) النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٢، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة إبراهيم مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ١٠٤) الواقدي (محمد بن عمر بن واقد، ت ٢٠٧هـ): كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونسن، طبعة عالم الكتب، (د.ت)، ج ١.
- ١٠٥) الوزان (الحسن بن محمد الزياتي، ت ٩٦٠م/١٥٥٢م): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، ج ١.
- ١٠٦) الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيي، ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ١٣ جزءاً.
- ١٠٧) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج ١.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

- ١) أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨م.
- ٢) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).
- ٣) _، لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٦٨.
- ٤) آنخل بالنتيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م.
- ٥) بدوي عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ج٢، ط١، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٦) بسيم عبد العظيم: شعر الأسر والسجن في الأندلس، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٥م.
- ٧) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م.
- ٨) خضر محمد عبد المختار: الاغتراب والتطرف نحو العنف، دراسة نفسية اجتماعية، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ٩) رينهارت دوزي: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- ١٠) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٣م.
- ١١) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م.
- ١٢) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
- ١٣) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعي، دار الكاتب العربي، بيروت، ج١، (د.ت).

- ١٤) عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ٧ أجزاء.
- ١٥) عبد الهادي التازي: ابن الخطيب سفيراً ولأجناً سياسياً، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ع ٢، ١٩٨٧م.
- ١٦) عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط ١، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٣م.
- ١٧) محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، القاهرة، ١٩٩٢م.
- ١٨) محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ نشأتها حتى استيلاء المرابطين عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م.
- ١٩) الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق ١٠ إلى ق ١٢م، ترجمة حماد الساحلي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج ١.
- ٢٠) يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، المطبوعات الوطنية، الجزائر، (د.ت)، ج ١.
- ٢١) يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، تقديم سليمان العطار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١م، ج ١.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- 1) **Ashtor, Eliyhu:** The Jews of Moslem Spain, Vol 1-2, 1979.
- 2) **Dubnov, Semon, Markovic,** : History of The Jews from The Roman Empire To The Early Medieval Period, Vol.2, New York, 1973.
- 3) **Gonzalo Maeso, David.:** Garnata Al- Yahud (Garnada en la Historia de Judaismo Espanol), Universidad de Garnada, 1963.
- 4) **Maria Isable Firro.:** Accusation of Zandaq in Al- Andalus, Veneza, Quaderni di Studi Arabi, 1986.
- 5) **Vincent Lagardère:** Histoire et Société en Occident Musulman Au Moyen Âge, Madrid, 1995.